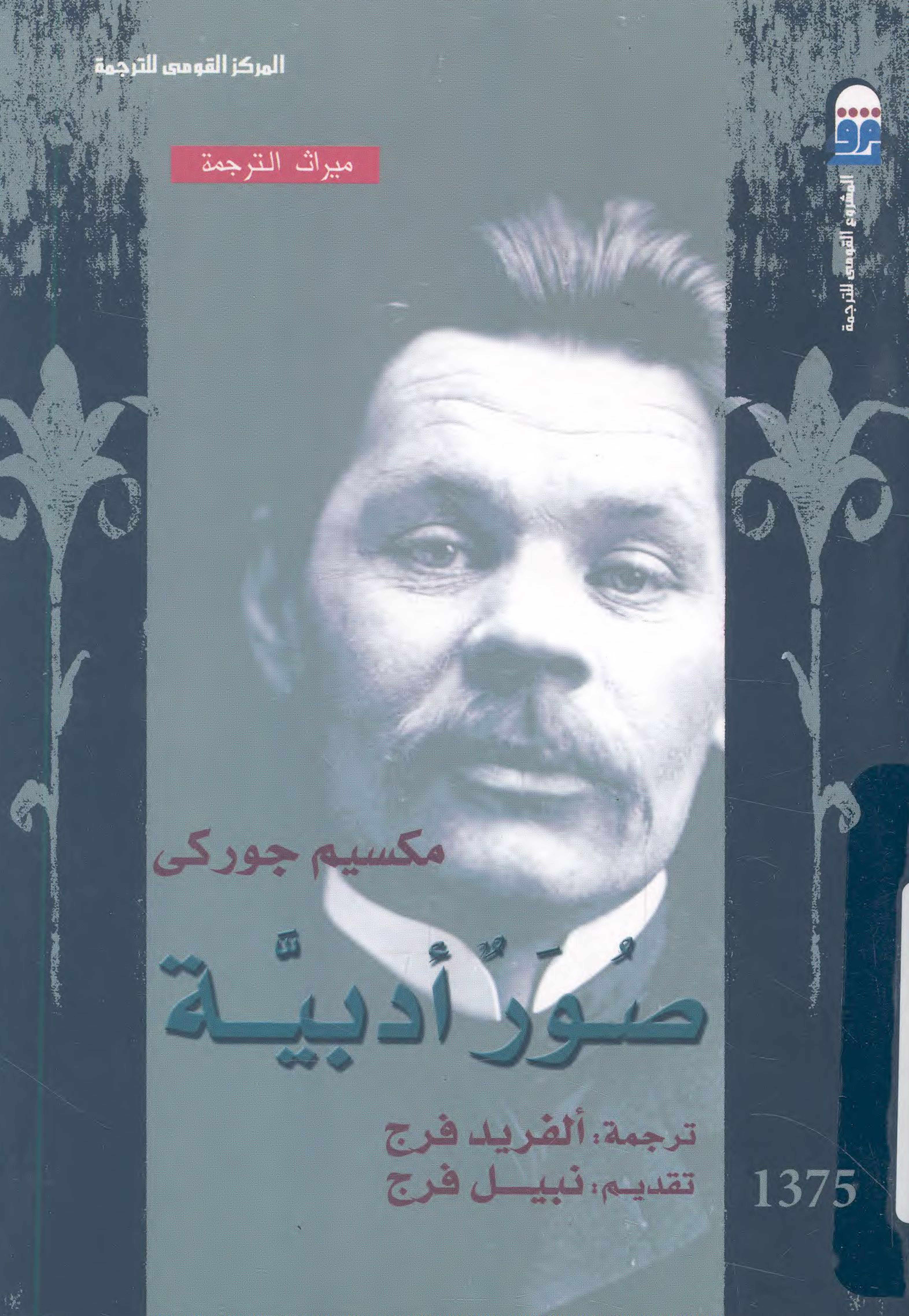

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
ميراث الترجمة
مكسيم جوركى
صُورٌ أدبيّة
ترجمة: ألفريد فرج
تقديم: نبيل فرج
1375

صــــور أدبيــــة

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: طلعت الشايب
- العدد: ١٣٧٥
- صور أدبية
- مكسيم جوركى
- ألفريد فرج
- نبيل فرج
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Selected Letters

by: Maxim Gorky

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

صُوَرٌ أدبيَّة

تأليف : مكسيم جوركى
ترجمة : ألفريد فرج
تقديم : نبيل فرج



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جوركى، مكسيم.
صور أدبية/ تأليف: مكسيم جوركى، ترجمة: ألفريد فرج، تقديم: نبيل فرج.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٣٠٤ ص، ٢٠ سم
١ - الأدب الروسى - تاريخ ونقد.
(أ) فرج، ألفريد (مترجم)
(ب) فرج، نبيل (مقدم)
(جـ) العنوان ٨٩١,٧٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٣٠٠١
الترقيم الدولى: 978-977-479-432-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهـــرس

مقـــدمة

تأثرت الثقافة المصرية فى نهضتها الحديثة بالأدب الروسى، كما تأثرت بالكثير من الآداب العالمية فى الشرق والغرب.

وكان فى مقدمة الأُدباء الروس الذين نقل أدبهم إلى العربية كما نقل إلى غيرها من اللغات الأجنبية: مكسيم جوركى، وأنطون تشيكوف، وديستويفسكى، وتولستوى، وشولوخوف وغيرهم.

وعلى رأس النقاد الروس الذين عرفتهم الثقافة العربية الناقد الأدبى بيلينسكى، الذى تصدى فى كتابه "دراسة فى الأدب الروسى" (١٨٤٦م) لدعاة الانغلاق من السلافيين الذين رأوا فى فضائل الطبيعة الروسية، باسم المحافظة على القومية، ما يكفى لتحقيق التقدم، وبَيَّنَ لهم بيلينسكى أن هذه الفضائل الفطرية لا ينفرد بها الروس، وليست شيئًا خاصا فى الطبيعة المحلية، وإنما هى سمات مشتركة بين شعوب الأرض كلها، وهى ثمرة الأخذ والعطاء التاريخى، وتداخل الحضارات.

وفى مقابل هذه الدعوة المتعصِّبة، دعا بيلينسكى إلى الانفتاح على الثقافات الغربية والحضارة الغربية التى تخاطب الإنسان فى كل مكان،

بغض النظر عن جنسه، والاقتباس منها، سواء كانت وسائل إنتاج أو مذاهب سياسية حرة أو صيغ فنية، دون التخلى بالطبع عن القومية، حتى تتخلص روسيا من جهلها وتخلفها، وتتقدم إلى مستوى العصر.

ولم تقتصر معرفة الثقافة العربية بالأدب الروسى على الكتب، بل إنها بالنسبة لكُتَّاب مثل تشيكوف وجوركى قدمت أعمالهما المسرحية، كما قدمت على مسارحها غيرهما من أُدباء آسيا وإفريقيا وأوروبا.

ولعل أشهر العروض التى قدمت لهما فى مصر مسرحيات «الخال فانيا» و«بستان الكرز» لتشيكوف، و«الحضيض» لمكسيم جوركى، فى سنة ١٩٦٣م.

ولا يستطيع ناقد أن يغفل أثر رواية جوركى الخالدة «الأم» على كل من قرأها فى أنحاء العالم وليس فى روسيا وحدها، لدقة تعبيرها عن ثورة الجيل الجديد مع يقظة الجيل القديم فى التطلع للعدل والحرية.

ومن بين الكُتَّاب والنقاد المصريين الذين احتفلوا بالأدب الروسى فى إطار الدعوة لإنشاء أدب قومى، نجد فى العشرينيات من القرن الماضى أعضاء المدرسة الحديثة فى القصة التى كان من أعلامها أحمد خيرى سعيد، ومحمود طاهر لاشين، وحسين فوزى وإبراهيم المصرى.

وقد سبقتهم وتلتهم أسماء عديدة لا تحصى، ترجمت و كتبت عن هذا الأدب، مثل: محمد السباعى ومحمود الخفيف وعباس حافظ

ومحمد مفيد الشوباشى وعبد الرحمن الخميسى وشكرى عياد وماهر نسيم وفؤاد دوارة وصلاح عبد الصبور ونعمان عاشور وأبو بكر يوسف وإدوار الخراط وغيرهم ممن شربوا من منهل الثقافة الأوروبية، وحملوا عبء تجديد الإبداع العربى فى كل فنونه واتجاهاته، تحت شعار الأدب فى سبيل الحياة.

ويُضاف إلى هذه الأسماء الكاتب السورى سامى الدروبى، مترجم الأعمال الكاملة لديستويفسكى فى الستينيات الماضية.

وفى سياق هذا الاحتفال والولع بالأدب الروسى على اختلاف تجلياته ترجم ألفريد فرج عن الإنجليزية كتاب "صور أدبية" لمكسيم جوركى، وصدر فى ١٩٥٧م.

ومكسيم جوركى (١٨٦٨ - ١٩٣٦)، بما أرسى من تقاليد فنية فى اللغة والفكر، يمثل خير تمثيل الأدب الروسى، الذى نضج فى ظل ثورة ١٩٠٥م المجهضة، والتى ارتفعت فيها الرايات الحمراء بأيدى المتظاهرين وهم يصطدمون بالشرطة، وتطور هذا الأدب مع ثورة ١٩١٧م التى قلبت كل الموازين القائمة، وصح بها قول الشاعر ألكسندر بلوك: إن انتصار القيصرية فى ١٩٠٥م كان انتصاراً عارضاً.

ارتبط مكسيم جوركى بالثورة أو بالعاصفة على حد تعبيره، بعد سنوات طويلة من التحضير لها بين النشطين من الشباب والمثقفين وأغمار الناس، طاف فيها على الأقدام بحذاء متهرئ وثياب خفيفة رثة

أركان روسيا النائية، فى بردها القارص، وتحت زخات المطر وسيوله التى لا تتوقف بالأيام.

وأثناء تجواله فى حقول الريف وساحات المدن، بين الأنهار وفى الغابات، خالط مكسيم جوركى كل فئات المجتمع من الحضيض إلى القمة، وتعرَّف على المعدمين والمتخمين، كما تَعرَّف على التيارات السياسية السرية والمعلنة، ومسه قبس من روح الشعب المطحون.

امتهن أقل المهن بأقل الأجور، واقتسم الآلام والأحزان مع الآخرين من الخيِّرين والفاسدين الأشرار، دون أن يفقد حبه للعالم وتعظيمه للإنسان، مهما تكاثرت الحشائش والأعشاب الضارة فى التربة الخصبة، أو فاضت حوله المظالم وتفاقمت الذنوب وانتشرت البذاءة والغش والفشل والبلاء، لأن ما كان فى قلبه الغامر من الحب للبشر كان كافيًا لكى يغفر كل نقص، ويتسامح مع كل خطيئة، حتى لو كان القصد منها النيل منه ومن أدبه.

ومع أنه كان يلتمس دائمًا الأعذار للضعف الإنسانى، ويتحامى إدانة أو لوم أحد، فقد امتلك من الشجاعة الانحياز لما يستحق أن ينحاز إليه من قيم المحبة والإبداع والكرامة الإنسانية، وعدم التمييز بين الروح والمادة، خاصة بعد أن تحرر من تأثير نيتشة عليه، الذى كان يمجد الأرستقراطية، ويؤمن بالبقاء للأقوى.

ولكنه – خلال هـذه الحياة القاسية القلقة، حياة التشرد والحرمان والمضض – كان يقرأ بنهم كل ما يقـع فـى يده من كتب قديمة يقتـنيها بقروش قليلة من الباعة الجائلين، أو يستعيرها من المكتبات والأصدقاء، وكان أول من قرأ لهم بوشكين وجوجول وتشيكوف.

كما قرأ بالنهم نفسه كتب الاقتصاد لآدم سميث، وكتب التاريخ والسياسة. واستوعب جيداً نظرية كارل ماركس عن رأس المال التى تربط بين الأحداث التاريخية والأوضاع الاقتصادية لأشكال الإنتاج، وصراع الطبقات.

وتحت تأثير هـذه القراءات ارتبط جوركى بالحلقات الأدبية التى كانت تناقش الرومانتيكية والرمزية والمستقبلية وغيرها من المذاهب الحديثة، وبدأ الكتابة مزوّداً بالخبرة والتجربة والذكريات التى رآها تفوق فى القيمة والشحنة التعبيرية كل ما تحويه الكتب من أفكار ونظريات.

ولا شك أن هـذه الحياة الصعبة هى التى جعلت من جوركى هـذا الكاتب الواقعى المرهف الحس القوى الخيال، صاحب الرؤية الموضوعية الحاذقة الباحثة عن الحقيقة والعدالة والجمال.

وبفضل هذه المكانة التى انتزعت بعيداً عن نظام الحكم الروسى، كان الشعب يهب للدفاع عن جوركى حين يتعرض للسجن أو للنفى، كما يهب للدفاع عن وطنه أو عن أقدس مقدساته.

ويعتبر الكاتب والمفكر فلاديمير كورولنكو، الذى يخصص له جوركى فى صوره الأدبية صفحات أكثر من غيره من معاصريه، أول من تنبأ له بالمستقبل العظيم فى دنيا الكتابة.

ويبدو أن معرفة جوركى بهذا الكاتب المسموع الكلمة، الذى رعاه ووجهه كما رعى ووجه الحركة الأدبية فى بلاده، هو الذى أغراه بالاتصال بأُدباء عصره ومعرفتهم عن قرب، وهى معرفة حميمة جدا، يكشف عنها كتابه فى حديثه النزيه عمن اختارهم من هؤلاء الكتاب، الذين لا يثقلون أحاديثهم معه بالتعاليم المدرسية القاطعة، أو بما يحفظون عن ظهر قلب من الكتب والورق.

على أن هذه المعرفة الحميمة كانت تتسلح على الدوام بفهم عميق وقدرة فائقة على ملاحظة كل شخصية، والوعى بإنتاجها الأدبى، وبجوانب التفتح فى تفكيرها إزاء قضية الحرية، بلا انفصال عن الالتزام، لأن الحرية بغير التزام خواء.

وبهذا التناول الذى تكثر فيه المقارنات بين الكتاب، وبما ينثره فيها من انطباعات وتقديرات، يرتفع جوركى إلى أرفع مستويات النقد الأيديولوجى.

وجوركى فى هذا الكتاب الجميل، الذى يقترب من السيرة الذاتية، يتحدث بصدق تام عن نفسه وعن حياته وكتاباته وهو يتحدث عن هؤلاء

الكُتَّاب، وعن أخلاقهم وأساليبهم وعلاقاتهم التي تومئ إلى أحوال وخصال بلاده، التى لم تكن تسلم من رقابة الشرطة وتوجيهات الحزب، كما لم تسلم من صراعات العقائد السياسية والفنية، وصراعات التنافس، والجدل الأجوف العقيم.

ولم يكن غريبًا أن يحتفل الاتحاد السوفيتي، في حياة جوركى في سنة ١٩٣٢ بمرور أربعين عامًا على صدور أول كتاب طُبِع له، تقديراً للمكانة الأدبية التى تبوأها فى وطنه، ولما قدمه لأمته وللإنسانية.

بقيت كلمة عن المترجم ألفريد فرج (١٩٢٩ - ٢٠٠٥)، أود أن أختم بها هذا التقديم، أذكر فيها أنه ليس له من الكتب المترجمة غير «صور أدبية» لجوركى، وبضع مسرحيات من فصل واحد لتشيكوف، نشرت فى الدوريات الصحفية ولم تجمع فى كتاب. ومسرحية «أنتيجون» لجان أنوى، التى ترجمها بالاشتراك مع إدوار الخراط فى "الألف كتاب" الأول. ثم نشر ألفريد فرج ترجمة لها فى جريدة «الجمهورية»، باسمه وحده، مع مقدمة طويلة عن المسرحية وكاتبها.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الترجمات مخطوطة لم تنشر، ذكرها ألفريد فرج فى إحدى رسائله الخاصة لم يكتب عنوانها، وإن كنت أظن من السطر الذى أشار به إليها أنها قد تكون «مصير إنسان» لشولوخوف التى صدرت فى ١٩٥٧م، وهى عبارة عن قصة جندى أصيب فى ميدان

القتال، ومع هذا ظل يقاوم ببسالة تكشف للقراء، كما يقول فى رسالته، «ماذا فى وسع الإنسان، وماذا ينبغى للإنسان ؟».

ولأن حياة ألفريد فرج كانت منذ بدايتها مشغولة بالتأليف الذى استأثر به المسرح، فقد عزف بعد هذه المرحلة المبكرة عن الترجمة، حتى لا تعطل إنتاجه فى التأليف الذى كرَّس حياته له، وقدَّمه على كل شىء آخر.

نبيل فرج

* * *

ليوتولستوى

يتألف هذا الكتاب من مذكرات كتبتها كيفما اتفق أثناء إقامتى فى «أوليين». وكان تولستوى حينذاك مقيمًا فى «جاسبرا»، مريضًا جدًا فى أول الأمر، ولكنه عوفى بعد حين من مرضه. وكنت قدرت أن هذه المذكرات - التى دونتها فى غير عناية على قصاصات ورق من كل نوع - قد ضاعت، غير أنى وجدت بعضها فيما بعد. وأضفت إليها أيضًا خطابًا غير تام، قد كتبته متأثرًا «برحيل» تولستوى من «ياسنايا بولياناس»، وبموته. وأنا أقدم الخطاب كما كتبته بالضبط، لم أُغَيِّر فيه كلمة، ولم أتمّه؛ لأنى لا أستطيع.

مذكـــرات

(١)

من الواضح أن الفكرة التى تلح على تدمير راحة باله أكثـر من غيـرها هى فكرة اللّـه، وهى أحيـانًا لا تبدو كـالفكرة، ولكن كـمقـاومـة مـجهدة ضد شىء ما يجعله يحس بأن إرادته غيـر حرة. وهو لا يتحدث عن هذا الشىء بقدر ما يحب، وإن كان يفكر فيه بلا انقطاع. لا أظن أن هذا الشـعور مـجرد علامة من علامـات الهرم، أو أنه يرجـع إلى هاجس باطنى بالموت. الأرجح أنه شـعور يصدر عن كـبرياء إنسـانـى رفيـع. وربمـا يصـدر بعضـه أيضًا عـن شـعور بالإهانة - بأنه هو ليـوتولستوى لا مناص له مـن أن يـخضـع خضـوعًا مـخزيًا لإرادة جراثيم خبيثة ما. لو أنه كان من «الطبـيعيـين» لأبدع من غـير شـك نظرية فلسفية برّاقة، أو توصل إلى كشوف عظيمة.

(٢)

يداه عجيـبتان - قبيحتـان، تشـوهـهما عـروق متـورمة، ومـع ذلك فـهـمـا مـعـبـرتان بشكل فـائق، ومليـئتـان بقـوة الخلق. ربما كـان

لليوناردافنشى يدان كيديه. إن أى شىء يمكن أن تصنعه يدان كهاتين. وهو أحيانًا، عندما يتحدث، يحرِّك أصابعه، يثنيهما بالتدريج ويبسطهما، بينما ينطق بكلمات رائعة لها وزنها، إنه كإله، ليس كإله العبريين، أو كإله من الأوليمب، ولكنه أشبه ما يكون بإله روسى ما، «جالس على عرش من خشب الاسفندان، تحت شجرة زيزفون ذهبية . وهو قد لا يكون جليلا كل هذا الجلال، إلا أنه أكثر دهاء، ربما، من كل الآلهة الآخرين مجتمعين.

(٣)

إنه يخصّ سولرتزتسكى بحنان يوشك أن يكون أنثويا. ويخص تشيكوف بمشاعر الأب . وإنك لتحسّ فى حبه لتشيكوف بافتتان الخالق، ولكن حبه لسولر هو الحنان نفسه، والشغف غير المنقطع، وإعجاب لا يرهق هذا الساحرَ العجوز أبداً، فيما يبدو. قد يكون فى هذا الشعور شىء سخيف قليلاً، شىء يشبه حب العانس لببغائها، أو لكلبها الأفطس، أو لقطتها. ويبدو سولر كطير حر جوّاب من أرض مجهولة غريبة. ومائة من الناس أمثاله قد يكون فى وسعهم أن يُغيِّروا وجه إحدى بلدان الأقاليم وروحها: فإنهم ليهشمون وجهها، ويضفون على روحها ولهًا بالعبقرية، قلقًا ومتحديا. إنه أمر سهل وسار أن يحب المرء سولر، وعندما أنظر كيف تهمله النساء، تملأنى الدهشة والغضب. ولكن ربما كان فى خبايا هذا الإهمال حذر مخبأ بحذق. ولا يمكن

للمرء أن يعوِّل على سول. ماذا تراه يزمع غداً؟ ربما يلقى قنبلة، أو ينضم مغنيًا إلى مجموعة كورس فى حانة، وهو ينطوى على طاقة تكفى عصوراً ثلاث. ويملك قدراً عظيمًا من لهب الحياة، حتى لكأنه يتفصَّد بالشرارات كالحديد المتوهج.

ولكن تولستوى كان ذات مرة غاضبًا جداً من سولر - وكان ليوبولد سولر تزتسكى ميالاً دائمًا للفوضوية، ومغرمًا بالنقاش الحار عن حرية الفرد، ويسخر منه تولستوى دائمًا إذا تناقشا.

أذكر أن سولر تزتسكى حصل ذات مرة على كتيِّب صغير للأمير كروبتكين، وانفعل به إلى حد الحماس، وانطلق طول يومه ينوه للجميع، أفراداً وجماعات، بحكمة الفوضوية، ويتفلسف بأكثر الأساليب تعذيبًا للسامعين.

فقال له تولستوى بخشونة:

«آه، كفّ ياليوفوشكا، قد أتعبتنى. إنك كالببغاء تردد كلمة واحدة - الحرية، الحرية، وما معناها الحقيقى؟ افترض أنك ستحصل على الحرية بالمعنى الذى تريد، كما تدركها - فما نتيجة ذلك؟ فلسفيًا - هى الخواء بلا قرار، بينما فى الحياة، فى الممارسة تصبح متبطلاً شحاذاً.

«لو أنك أصبحت حراً طبقًا لمفهومك، فما الذى يمكن أن يربطك بالحياة، وبالبشر؟ انظر، فالطيور حرة، ولكنها تبنى أعشاشًا. إنك

لن تكلِّف نفسك ببناء عش، وستكتفى بإشباع غرائزك الجنسية حيث كنت، كذكر القط. فكر تفكيراً جدياً لحظة واحدة، وسترى، ستشعر، أن الحرية بالمعنى المطلق للكلمة هى الخواء، الفراغ، مجرد فضاء لا شكل له».

وقطب حاجبيه مغضباً، وسكت، ثم أضاف برقة:

«المسيح كان حراً، وكذلك كان بوذا، وكل منهما حمل بنفسه خطايا العالم، ودخل مختاراً سجن الحياة الدنيوية. ولا أحد ذهب أبداً إلى أبعد من ذلك، لا أحد! أنت وأنا ماذا فعلنا نحن؟ نحن جميعًا نسعى للتحرر مما يجب علينا لجارنا، مع أن هذا المعنى للواجب بالضبط هو ما يجعل منا بشراً، ولولاه كنا نعيش كالحيوانات السائمة.. ».

وضحك..

«ومع ذلك نحن الآن نناقش: كيف نعيش فى نبالة . وهو نقاش لا يفضى إلى كثير، ولكنه فى نفس الوقت لا يفضى إلى القليل. انظر! أنت تجادلنى حتى يسودّ وجهك، ولكنك لا تضربنى، ولا تشتمنى حتى، لو أنك حقيقة تشعر بأنك حر، كنت ذبحتنى.. هذا كل ما عندى».

وسكت مرة أخرى، ثم أضاف:

«الحرية.. ذلك ليعنى ألا يعترضنى أى شىء، أو أى شخص، ولكنى حينئذ لا أعود موجوداً، لأننا نعى بوجودنا فحسب خلال الصراع والمعارضة».

(٤)

كان جولد نوايزر يعزف شوبان، فيلهم ليوتولستوى هذه الأفكار:

قال أحد النبلاء الألمان: «إذا كنت لتقتنى العبيد، فينبغى أن تؤلف أعظم قدر تستطيع تأليفه من الموسيقى». هذا خاطر محكم، وملحوظة صادقة، فالموسيقى تبلّد العقل. ولا يدرك هذه الحقيقة مثل الكاثوليك، فآباؤنا الروحيون لم يكن فى وسعهم أبداً أن يقبلوا عزف مندلسون فى الكنيسة، طبعًا. وقد أكّد لى قسيس من «تولا» أن المسيح نفسه لم يكن يهوديًا، مع أنه كان ابنًا لإله عبرى، وكانت أمه امرأة عبرية. لقد سلّم بهذا، ورغم ذلك قال: «يستحيل». فسألته: «فما هو إذن؟» فهز كتفيه وقال: «هذا سرّ غامض علىّ».

(٥)

«إذا كان ثمة شخص مثقف حقًا، فهو الأمير فلاديميركو، من بلاد «الغال». ففى عصر غابر كالقرن الثانى عشر، كانت له الجرأة الكافية أن يقول: «إن زمن المعجزات انقضى»، ومنذ ذلك الحين انصرمت

ستمائة سنة، والمثقفون يواصل كل منهم التأكيد على الآخر: «ليست هناك معجزات»، ولكن الناس لا تزال تؤمن بالمعجزات، تماماً كما اعتادت أن تؤمن بها فى القرن الثانى عشر .

(٦)

«الأقلية فى حاجة للرب، لأنها تملك كل شىء آخر. والأغلبية تحتاجه، لأنها لا تملك شيئاً آخر».

أو بتعبير آخر: تؤمن الأغلبية باللّه من جبنها، وقليل من الناس فحسب هم الذين يؤمنون بملء أرواحهم [١].

سألنى مفكر:

«هل تحب حكايات هانز كريستيان أندرسون الخرافية؟ أنا لم أفهمها عندما نشرت فى ترجمة ماركو فوفشوك، ولكنى بعد عشر سنوات التقطت الكتاب، وقرأتها مرة أخرى، وفجأة أدركت فى وضوح تام أن هانز أندرسون كان رجلاً وحيداً، وحيداً جداً. أنا لا أعرف شيئاً عن حياته. لقد كان ماجناً بالتأكيد، وجوّاباً فيما أعتقد، ولكن هذا

---

(١) لكى أتجنب أى فهم خاطئ؛ أقرر هنا أنى أعتبر الكتابات الدينية أدباً خالصاً؛ وأعتبر حياة بوذا، والمسيح ، ومحمد، قصصاً خيالية.

يدعم وثوقي بأنه كان رجلاً وحيداً: وهو لذلك اتجه للأطفال، معتقداً أن الأطفال يكنّون حنوا للآخرين، أكثر مما يكنُّه الكبار. ولكنه كان مخطئًا في ذلك، فالأطفال لا يشفقون على أحد، ولا يعرفون للشفقة معنى».

(٧)

نصحني بأن أقرأ تعاليم البوذية، وكانت بأسلوبه دائمًا رنة عاطفية، إذا ما تحدث عن المسيح وعن البوذية لم يكن في كلماته حماس، أو شجن، ولا شرارة واحدة من نار القلب. ويخيل لي أنه كان يعتبر المسيح ساذجًا، وجديراً بالشفقة. ورغم ذلك فهو معجب به على نحو ما، ولكني لا أرجح أنه يحبه. يبدو لي أنه يخشى – إذا ما أتى المسيح إلى قرية روسية – أن تضحك منه البنات.

(٨)

زاره اليوم الغراندوق نيكولاي ميخايلوفتش، وهو رجل يبدو عليه أنه حاذق. غير أنه متواضع في مسلكه، ولا يتكلم كثيراً. وله عينان بديعتان، وشكله حسن، وإيماءاته مقتصدة. ابتسم له تولستوي، وتحدث إليه بالفرنسية بعض الوقت، وبالإنجليزية بعض الوقت، وبالروسية قال:

«كتب كارامزين للقيصر، وكتب له سولوفيوف فى تطويل مملّ، بينما كتب كليوشيفسكى إرضاء لمتعته الشخصية. لقد كان عميقًا، هو. فأنت تظن للوهلة الأولى أنه يمتدح القيصر، ولكنك إذا تعمقت النظر ستفطن إلى أنه يسبه».

وذكر أحدهم زابيليين، فقال:

«طيب جداً. كالموظف الصغير. وهو محب للعاديات، يجمع منها كل شىء، بلا تمييز. ويصف الطعام كمن ليس عنده ما يكفيه ليأكل. ولكنه مسلٍّ جداً، جداً».

(٩)

إنه يذكِّر المرء بهؤلاء الحجاج الذين يذرعون الأرض، وعصيهم الغليظة فى أيديهم. وطوال حياتهم يقطعون آلاف الأميال من دير إلى دير، ومن محراب إلى محراب، ومن مزار إلى مزار، مشردين بفظاعة، غرباء عن كل شخص، وعن كل شىء. ليس العالم لهم.. ولا اللَّه، حتى. هم يصلّون له لأنهم اعتادوا ذلك، ولكنهم فى أعماق قلوبهم يبغضونه: فلماذا يسوقهم فوق الدنيا إلى نهاية الأرض.. لماذا؟ ويعتبرون البشر مجرد عثرات، جذور، حجارة ملقاة على الطريق، المرء يتعثر فيهم، وأحيانًا يؤذيه الارتطام بهم. والمرء يستطيع أن يستغنى عنهم، ولكن يسرَّه أحيانًا أن يدهش الناس ببعد الشبه بينه وبينهم، ويباهى باختلافه عنهم.

(١٠)

قال فريدريك الأكبر عبارة ذكية: «ينبغى على كل امرئ أن ينقذ روحه بطريقته». وهو الذى قال: «فكِّر ما شئت، ولكن أطع ». واعترف وهو يموت: «لقد تعبت من حكم العبيد». إن الناس الذين يقال عنهم إنهم عظماء، هم دائمًا متناقضون مع أنفسهم إلى أقصى حد. وهذا يغتفر لهم، مع كل أنواع الحماقات الأخرى. ولكن ليس من الحماقة، على أية حال، أن يناقض المرء نفسه: فالأحمق عنيد، لا يناقض نفسه أبداً. نعم، لقد كان فردريك رجلاً عجيبًا، فالألمان يعتبرونه أعظم أباطرتهم، ومع ذلك فهو لم يستطع احتمالهم، ولم يكن يحب حتى جيته، وويلاند... ».

(١١)

قال ليلة أمس: «الرومانسية هى الخوف من النظر إلى الحقيقة فى عينيها». وكان يتحدث حينذاك عن قصائد بولونت. ولم يوافقه سولر، وقرأ بعض قصائد بولونت بانفعال عظيم، وكان يلثغ من فرط اهتياجه:

«هذا ليس شعراً، ليوفوشكا، إنه شعوذة، هراء، مجرد تلفيق للكلمات بلا معنى. إن الشعر شيء لا فن فيه. عندما كتب فت:

إن ما سأغنيه لا أعرفه،

ولكن أغنيتى ستنتفخ فى باطنى،

كان يعبر عن شعور الناس الحقيقى بصدد الشعر. والفلاح أيضًا لا يعرف ما يغنيه؛ ولا يفعل إلا أن يغنى: أوه! وآه! وآى – درامى! فتنطلق لفورها أغنية حقيقية، من الروح مباشرة، كما تغنى الطيور. تعرف أنت أنه ثمة أشياء بلهاء اسمها «مقالات من باريس»، وهذا هو ما يشتغل شعاريرك بعمله. لم يفعل نكراسوف شيئًا سوى أنه ابتدع الشعر الركيك الذى لا وزن له».

وسأله سولر: «وما رأيك فى بيرانجر؟»

«بيرانجر يختلف. أية خصال لنا يشاركنا فيها الفرنسيون؟ هم يعبدون اللذة – حياة الروح لا تهمهم كحياة الجسد. أهمّ شىء عند الرجل الفرنسى المرأة. إنهم أمة منهوكة متسخة. يقول الأطباء: إن كل المصدورين حسيِّين».

وبدأ سولر يجادل بفصاحته المعتادة. ويطرطش سيلاً من الكلمات كيفما اتفق. ونظر إليه تولستوى، وقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

«أنت اليوم شكِسٌ كفتاة نضجت للزواج، ولا خطيب لها ..».

(١٢)

أصاب المرض جسده بالجفاف، وألهب شيئًا فى داخله. يلوح لى أنه أصبح أخف وزنًا، وأكثر شفافية، ووجدانه أكثر توافقًا مع الحياة. أصبحت عيناه أحدّ، ونظرته أنفذ. وهو يصغى فى انتباه، ويبدو كمن

يتذكر شيئًا نسيَه طويلا، أو ينتظر فى ثقة شيئًا جديدًا، غير معروف بعد. ففى «ياسنايا بوليانا» بدا لى تولستوى كرجل يعرف كل ما يمكن أن يعرفه المرء، كرجل وجد الإجابات على كل أسئلته.

(١٣)

لو أنه كان سمكة، لاستوطن المحيط بالتأكيد، وما كان ليسبح أبدًا فى البحار الداخلية، بله فى الأنهار. وربما تندفع سمكة نهرية حواليه؛ ما يقوله لا يثير اهتمامها، ولا يرضى لها حاجة، وسكونه لا يفزعها، ولا يؤثر فيها بأى شكل. ولكنه يعرف كيف يسكت فى مهابة وبمقدرة، مثل ناسك حقيقى. صحيح، هو يتحدث كثيرًا عن الموضوعات التى تستحوذ عليه، ولكن المرء يحس أن ثمة أشياء أكثر لا يقولها. ثمة أشياء لا يستطيع أن يقولها لأحد. وربما كانت له أفكار يخافها.

(١٤)

أرسل إليه أحد الناس قصة الصبى الذى عمده المسيح مرويّة بأسلوب مسلٍّ. وقرأ القصة لسولر ولشيكوف فى تلذذ عظيم - قرأها فى روعة!

كانت تسلِّيه بنوع خاص ألوان الاضطهاد الذى توقعه صغار العفاريت بملاك الأرض، وفى هذا شىء لم أكن أحبه تمامًا. إنه ليس

خليقًا بالاصطناع والتمثيل، ولكن إذا كان هذا الذى يبديه هو شعوره الصادق، فذلك أسوأ بكثير.

قال:

«انظر كيف يروى الفلاحون القصص ببراعة، كل شىء بسيط؛ كلمات قليلة، ومشاعر واقرة. الحكمة الحقيقية موجزة دائمًا، مثل (ارحمنا يارب)».

ولكن القصة كانت فيها ضراوة.

(١٥)

كان اهتمامه بى اهتمامًا بعلم الأثنوجرافيا، (علم طبائع الشعوب وعاداتها). لقد كنت فى نظره عضوًا فى قبيلة لا يعرف عنها إلا القليل - لا أكثر.

(١٦)

قرأت له قصتى «الثور». وضحك طويلاً، وأثنى علىَّ لمعرفتى «بالحيل اللغوية».

«ولكنك لا تجيد استخدام الكلمات، وكل فلاحيك يعبِّرون عن أنفسهم فى جلال عظيم. فى الحياة الحقيقية يتكلَّم الفلاحون فى غباوة،

وفى ارتباك. وأنت لأول وهلة لا تستطيع أن تفهم ما يحاولون أن يقولوه وهم يفعلون هذا عن عمد. ويخبئون الرغبة فى استدراج الرجل الآخر دائمًا خلف ستار الغباوة الظاهرية لحديثهم. الفلاح الحقيقى لا يفصح عما يدور فى خلده على الفور أبدًا، فهذا لا يلائمه. وهو يعرف أن الناس تلقى الشخص الغبى فى بساطة وفى غير مكر، وهذا بالضبط هو ما يريده: أن تقف مكشوفًا أمامه، فيرى هو كل نقاط ضعفك فى الحال. وهو لا يثق بالناس، ويخاف أن يعلن أفكاره التى يسرُّها، حتى لزوجته، ولكن كل شىء فى قصتك فوْرى ومباشر، وفى كل قصة لك مجموعة من التشدقات. وأحاديث الفلاحين عندك تتخللها جوامع الكلم، وهذا لا يطابق الحقيقة، أيضًا فجوامع الكلم لا تناسب اللغة الروسية».

«فما رأيك فى الأمثال، والأقوال السائرة؟»

«هذه تختلف، فهى لم تخترع أول أمس.

«أنت نفسك تسوق الكلمات الجامعة فيما تتحدث».

« أبدًا! وأنت بعدئذ تحاول أن تزخرف كل شىء.. الناس والطبيعة.. الناس بخاصة. ليسكوف فعل هذا، أيضًا. وكان محلّقًا فى السماء ومتكلفًا، والناس لم تعد تقرؤه منذ زمن. لا تضعف لأى شخص، لا تخف من أى شخص، وحينئذ ستكون على ما يرام...».

(١٧)

أدهشني قول غريب في المذكرات التي أعطانيها لأقرأها: «اللّه رغبتي».

وعندما أعدت المذكرات له اليوم، سألته عما يعنيه.

قال وهو يجيل بصره في الصفحة: «فكرة غير تامة، لابد أني كنت أريد أن أقول: اللّه هو رغبتي في أن أحققه ... لا، ليس هذا...» وضحك. وفرّ كراسة المذكرات، ودفع بها في جيب قميصه الواسع. إن علاقاته باللّه مبهمة، وهي أحيانًا تجعلني أتصور «دبّيْن في عرين واحد».

(١٨)

في العلم:

«العلم سبيكة ذهبية طبخها كيميائي مشعوذ. تريد أن تبسّطها، وتجعلها مفهومة للكافة، هذا معناه بتعبير آخر أن تسكّ أي كمية من العملة الزائفة. وحين يكتشف الناس القيمة الحقيقية لهذه النقود لن يحمدوك عليها».

(١٩)

كنا نمشي في حديقة يوسوبوف، وهو يتحدث حديثًا باهرًا عن أخلاق أرستقراطية موسكو. وكانت فتاة روسية فارعة تشتغل

في حـوض زهور، وهي توشك أن تكون مـثنيَّـة تمامًـا على نفسـهـا، وساقاها السمينتان باديتان، وثدياها الكبيران الثقيلان يهتـزان. فنظر إليها تولستوي بإمعان، وقال:

«كل هذا السرف والفخامة التي للأرستقراط، كانت تقيمها دائمًا هاتان الساقان الأنثويتان اللتان تشبهان الأعمدة الإغريقية. إن الأرستقراطية لا تعيش على مجرد شغل الفلاحين والفلاحات، ولا على الحكر، ولكن على دمـاء الشـعب بالمعنى الحـرفي للكلمـة. فلو أن الأرستقراطية لا تتزاوج من وقت لآخر مع أنثيات كهذه، لانقرضت منذ زمن طويل. فالقوة التي كان ينفقها الشبان في أيامي، لم تذهب سدًى. ولكن الكثيرين منهم، بعد أن انهمكوا في شهوات الشباب، تزوجوا عشيقاتهم الفلاحات، وأنجبوا ذرية حسنة. ومن ثم، أيضًا، أنقذت قوة الفلاحين الأرستقراطية. وهي ذات نفع يسير المنال في كل مجال. إن كل جيل للأرستقراط يبدد نصف قوته في ملذاته الخاصة، والنصف الآخر يخلص دمه بدم الريفيين ثقيل القوام، ليخففه قليلاً، أيضًا. وهذا ينفع الجنس كله».

(٢٠)

إنه مغرم جداً بالحديث عن النساء، مثل روائي فرنسي. ولكنه يتحدث عنهن بخشونة الفلاح الروسي دائمًا، حتى لتحدث كلماته صريراً في أذني عادة، بينما كان يتمشى اليوم في أجمة من أشجار اللوز، سأل تشيكوف:

«هل كنت فاجراً جداً فى شبابك؟»

فابتسم تشيكوف فى وداعة الحمل، وتلعثم بشىء ما، وهو يشد لحيته الصغيرة. وصرح تولستوى، وهو ناظر للبحر:

«أنا كنت لا أكلّ عن...».

قالها بأسف، مستخدمًا كلمة سوقية ريفية فى نهاية الجملة. ولاحظت لأول مرة أنه نطق الكلمة ببساطة تامة، كما لو لم يكن يعرف لها بديلاً لائقًا. كانت مثل هذه الكلمات كلها تبدو بسيطة وعادية للغاية، وهى تنحدر من شفتيه الملتحيتين، وتفقد فى طريقها خشونتها شبه العسكرية، وقذارته. أذكر الآن ما قاله لى عن قصتى «ڤارنكا أوليسوفا»، و«ستة وعشرون رجلا وامرأة» فى أول لقاء لى معه. فمن وجهة النظر العادية كان حديثه سيلاً من «البذاءة». وقد ذهلت حينذاك، وشعرت بالإهانة حتى، وظننت أنه يعتبرنى غير كفء لفهم أى نوع آخر من الكلام غير هذه البذاءة. ولكنى أرى الآن أنى كنت أحمق إذ غضبت.

(٢١)

كان جالسًا على مقعد حجرى تحت أشجار السرو، متغضنًا، صغير الحجم، أشيب، ومع ذلك كان أشبه بإله عبرى، منهكًا قليلاً، ويحاول تشتيت باله بمحاكاة حسون يغرد، وكان الطير يشدو وهو

مستتر فى أوراق السرو الخضراء الداكنة، وتولستوى يسدد بصره فى الأوراق، ويضيق عينيه الصغيرتين الحادتين، ويمط شفتيه كطفل، ويصفر صفيراً خافتاً.

«الطيرة الصغيرة تجهد نفسها إلى حد الهوس! أنصت له! أى طيرة هى؟».

فحدثته عن طيور الحسون، وعن غيْرتها.

«أغنية واحدة فقط طوال حياتها وتغار! الإنسان فى قلبه مئات الأغنيات، ويلام لأنه يستسلم للغيرة، أهذا عدل؟».

كان يتكلم فى نبرة المتأمل، وكأنه يوجه السؤال لنفسه:

«هناك لحظات يقول فيها الرجل للمرأة عن نفسه أكثر مما ينبغى لها أن تعرف: وبعدها ينسى أنه قال لها، أما هى فتتذكر دائماً. ربما كانت الغيْرة تصدر خوف المرء من أن يحطَّ بنفسه، خوفه من أن يُمتهن، أو أن يبدو سخيفاً. ليست البنت التى تستولى على ما تملكه هى الخطرة، ولكن تلك التى تستولى على الروح».

وعندما قلت له: إن فى هذا القول شيئًا يناقض ما فى قصته «سوناتا كروتزر»، انتشرت على وجهه ابتسامة مضيئة فشملت لحيته، وأجاب:

«أنا لست حسوناً».

وبينما هو يتمشى في المساء قال:

«الإنسان يجوز الزلازل، والأوبئة، وأهوال المرض، وكل ألوان العذاب الروحي، ولكن أوجع المآسي التي عرفها على الإطلاق كانت دائمًا - وستكون دائمًا - مأساة الفراش».

أرسل هذا القول بابتسامة ظافرة، وأحيانًا كانت تبدو على وجهه ابتسامة منبسطة رضية.. ابتسامة رجل تغلب على شيء في غاية الصعوبة، أو رجل كان يعاني لوقت طويل من ألم قارص، فتلاشى عنه فجأة.

إن كل فكرة تكنُّ نفسها في روحه كقرادة في جحرها. وهو إما يجذبها للخارج فوراً، أو يدعها تمتص كفايتها، حتى لتنطرح بنفسها، مفعمة.

وفي مرة أخرى تجهم فجأة خلال نقاش كان يستغرقنا عن الفلسفة الرواقية، وتأتأ، وقال في جفاء:

«حشوُه، لا حياكته...».

ولم تكن لهذه الكلمات طبعًا أية علاقة بفلسفة الرواقيين. فما أن لمح دهشتي حتى قال - مطرقًا برأسه جهة الباب المفضي إلى الغرفة الأخرى -:

«إنهن يقلن ويكررن: حياكة اللحاف، بدل أن يقلن حشوه».

ثم واصل حديثه: «رينان هذا ... ثرثار حلو كالسكر».

قال لى: «أنت تروى الأشياء رواية جيدة بكلماتك أنت، وفى اقتناع، لا بحذلقة الكتبيِّين [1]».

وهو يكاد يلحظ دائمًا أى إهمال فى الحديث، فيقول همسًا - كمن يحدِّث نفسه -: «يستخدم كلمة روسية حسنة، ثم يتبعها بكلمة absolutno [2] فى نفس الجملة».

وكان أحيانًا يعنفنى قائلاً: «أنت تربط كلمات مختلفة تمامًا فى روحها معًا، لا تفعل ذلك أبدًا!».

ويلوح لى أن حساسيته لشكل الكلمات مرهفة إلى حد السوداوية. مرة قال:

«صادفت كلمتى «قط» و «أحشاء» فى جملة واحدة فى كتاب ما شيئًا يثير الاشمئزاز! كادت تثير غثيانى».

---

(١) اخترت كلمة «الكتبيين» ترجمة للكلمة الإنجليزية bookish لسهولتها وقربها للمعنى. (المترجم)

(٢) absolutno هى الكلمة الواردة فى النص الروسى . تقابلها بالعربية كلمة: مطلقًا. ضرب تولستوى بها مثلاً على التخليط فى اللغة لأنها كلمة جسمها لاتينى ونهايتها (no) تتبع القاعدة اللغوية الروسية. (المترجم)

وكـان يقـول: «لا أسـتطيـع أن أحـتـمـل اللغـويين. كلهـم علمـانيـون كالتراب جفافًا، ولكن أمامهم عملاً ضـخمًا فى اللغـة. فنحن نسـتخـدم كلمات لا نفهمها. وليست لدينا فكرة عن السبيل الذى وجدت به كثير من الأفعال».

وكان دائمًا يتحدث عن لغـة ديستوفسكى:

«كانت كتابته شنيـعة، وأدخل القبـح على أسلوبه عامدًا - عـامدًا، أنا متـأكـد، سـعيًـا وراء التظـاهر. كـان يحـب التظـاهر، فـفـى «الأبله» تجـد كلمـات «عجـرفـة»، و«اخـتيـال»، و«ألفة متبـاهية»، كلها مختلطة ببعضـها. وأعتقـد أنه كان يستمـتع بأن يخلط كلمات روسـية دارجـة بكلمـات ذات اشـتـقـاقـات أجنبـيـة. ولكـنـك لتجـد زلاّت لا تغـتـفـر فى كتابتـه. «فـالأبله» يقــول: «الجـحـش شـخص جدير ومفـيد»، ولكن أحـداً لا يضحك من قوله، مع أن هذه الكلمات لا تقصُر عن أن تثير الضحك، أو على الأقل هى لا بد تـثير بعض التعليق، خاصة وهو يقـول ذلك أمـام أخـوات ثلاث مـغـرمـات بالسـخرية منـه، خـصـوصًـا «أجـلايا». الكتـاب يعـتـبـر رديئًـا، ولكن عيبـه الرئيسى هو أن الأمـيـر مـيشكين مـصـاب بالصـرع. لو أنه كـان رجـلاً صـحـيح البـدن، لكانت سـذاجـتـه الطفـليـة الأصيلة، ونقـاء قلبه يؤثر فى أعمـاقنا. ولكن ديسـتـويفـسكى لم تكن له الشـجـاعـة أن يجـعل منه رجـلاً صــحـيح البـدن. وفـوق ذلك، لم يكن ديستويفسكى يحب الأصحاء.

وكان مقتنعًا بأنه ما دام هو نفسه رجلاً مريضًا، فالعالم كله لا شك مريض...».

* * *

قرأ على سولر وعليّ مشهد سقوط «الأب سرجيوس» - وهو مشهد قاس. وأخذ سولر يعبس ويتلوى من اهتياجه، فسأله تولستوى:

«ما حكايتك ؟ ألا تحبه؟».

«إنه فى الحقيقة مفرط فى القسوة، وهو كديستويفسكى تمامًا. هذه البنت المتعفنة، وثدياها اللذان يشبهان الزلابية، وكل ذلك! لماذا لم يكن ليزنى بامرأة جميلة، وفى صحة جيدة؟».

«كان هذا ليصبح زنى بلا أى عذر، ولكن فى هذه الحالة قد يصبح رثاؤه للبنت شيئًا يعتذر به عن الزنى، فما من أحد غيره كان ليرضى أن يأخذها، المسكينة».

«لا أفهم ...».

«أنت لا تفهم أشياء كثيرة، ليوفوشكا، ليس بك أى مكر ...».

ودخلت زوجة أندريه لفوفتش، فتوقفت المحادثة. وعندما ذهبت برفقة سولر إلى الغرفة الملحقة، قال لى تولستوى:

«ليوڤوشكا أنقى من أعرفهم من الرجال سريرةً. إنه هو نفسه من هذا الصنف - إذا اقترف إثماً؛ فبسبب شفقته على أحد الناس» .

(٢٢)

موضوعات الحديث المحببة إليه هي: اللّه، والفلاح، والمرأة. أما الأدب فهو لا يتحدث عنه إلا نادراً، وإذا فعل فلا يتحدث حينئذ إلا قليلاً، كأن الأدب موضوع غريب عنه. وموقفه من النساء - بقدر ما أرى - موقف فيه عداء عنيد . فهو لا يحب شيئاً قدر حبه الاقتصاص منهن، ما لم يكنّ مجرد نساء عاديات، مثل: كيتي، وناتاشا روستوڤا. وما ذلك إلا انتقام رجل لم يحصل من السعادة على القدر الذى كان كفئاً للحصول عليه، أو هو عداء الروح «لنزوات الجسد المهينة». وأيا كان، فهو عداء، ومرير جداً، كما يتضح فى «أنا كارنينيا».

وقد تحدث يوم الأحد عن «نزوات الجسد المهينة» حديثاً شيقاً، وهو يناقش «اعترافات روسو» مع تشيكوف ويلباتييفسكى. ودوّن سولر بعض كلماته، ولكنه فيما بعد، ألقى بما دوّنه فى لهب موقد الكحول، بينما كان يصنع القهوة. وقبل ذلك أحرق سولر ملاحظات تولستوى عن إبسن، وضيع مذكراته عن رمزية طقوس الزواج، وقد كان لتولستوى فى هذا الصدد تعليقات وثنية إلى الحد الأقصى، تطابق فى بعض المواضع تعليقات ف. ف. روسانوف.

(٢٣)

كان بعض الستنديين (١) الآتين من فيودوسيا هنا صباح اليوم، وقد ظل طول يومه يتحدث في حماس عن الفلاحين.

وعلى الغداء قال لنا:

«كان ينبغى أن تروهم، هم أقوياء جداً وممتلئون بالعافية. قال أحدهم: «لقد جئنا دون أن يأمرنا أحد!»؛ قال الآخر: «فلنرحل دون أن يزجرنا أحد!»، واهتز وهو يضحك ضحكات طفل».

وبعد الغداء قال فى الڤاراندا:

«سيمتنع علينا فى القريب العاجل أن نفهم لغة الناس. نحن الآن نتحدث عن «نظرية التقدم»، و «دور الفرد فى التاريخ»، و «تطور العلم»، و «الدوسنتاريا»، والفلاح يقول: «لا فائدة من البحث عن إبرة فى كومة قش»، وهكذا تصبح كل النظريات، والتاريخ، والتطور، غير ذات فائدة، وسخيفة، لأن الفلاح لا يفهمها، ولا يطلبها. والفلاح أقوى منا، ويملك قوة أبقى على الزمن. ونحن (من يدرى؟)، قد نلحق

---

(١) فرقة دينية من المنشقين على الكنيسة، يرفضون أشكال وطقوس العبادة، ويؤسسون إيمانهم وعبادتهم على نص الإنجيل وحده.

بقبيلة إتسورى[1]، ونواجه نفس مصيرها. وهى القبيلة التى قيل لأحد العلماء عنها: «كل الأتسوريين هلكوا، ولكن لا يزال ثمة ببغاء يعرف بعض الكلمات من لغتهم».

(٢٤)

«المرأة أخلص من الرجل فى الجسد، ولكن أفكارها زائفة. فهى عندما تكذب لا تصدق نفسها، بينما كان روسو يكذب ويصدق نفسه أيضًا».

(٢٥)

«كتب ديستوفسكى أن أحد أبطاله المخبولين لبث طوال حياته يعاقب نفسه والآخرين، لأنه كان قد خدم قضية لا يؤمن بها. لقد كان يقصد نفسه، أو بالأحرى كان من السهل أن يقول ذلك عن نفسه».

(٢٦)

«بعض الأقوال التى فى الإنجيل غامضة للغاية، فماذا تعنى مثلاً هذه الكلمات: (الأرض مِلْك اللّه، ومن ثمّ الكمال)؟ هذه عبارة لا علاقة لها بالكتاب المقدس، فإن لها طعم المادية العلمية الشائعة».

---

(١) قبيلة انقرضت. (المترجم)

قال سولر: «أنت علّقت على معنى هذه الكلمات فى مكان ما».

«وماذا عليَّ لو فعلت؟... قد يكون لها معنى، ولكنى لم أصل إلى أعماقه».

وابتسم ابتسامة ماكرة.

(٢٧)

يحب تولستوى أن يلقى بأسئلة ماكرة ومحرجة:

«ما رأيك فى نفسك؟».

«هل تحب زوجتك؟».

«هل تعتبر ابنى ليو موهوبًا؟».

«هل تعجبك صوفيا اندرييفنا؟[١]».

ومن المستحيل أن يكذب أحد عليه.

مرة سألنى:

«هل تحبنى، يا ألكسى ماكسيموفتش؟».

---

(١) زوجة تولستوى. (المترجم)

وهكذا كان يعبث عبث البوجاتير[1] الروسي - ڤاسيلي بوسلاييف، بطل نوفجورود المتهور، الذى كان مولعًا بهذا اللون من المعابثة. فهو يجس شيئًا فى الأول، ثم شيئًا آخر، كأنه يستعد لخوض معركة. وهذه تسلية ممتعة، ولكنى لا أستطيع الزعم بأنى أهتم لها. تولستوى شيطان، وأنا لا أزال طفلاً، لا أكثر، وكان ينبغي عليه أن يدعنى وشأنى.

(٢٨)

ربما كان الفلاحون مجرد رائحة خبيثة لأنفه، لا يستطيع أن يتناساها أبدًا، ويحس بأنه مرغم على الحديث عنهم.

حدثته ليلة أمس عن مناوشتى لأرملة الجنرال كورنيت. وضحك حتى دمعت عيناه، ضحك حتى توجع وزام، وظل يصيح بصوت مجلجل:

«بجاروف! على ...! بجاروف، هه؟... على طول! هل كان جاروفًا كبيرًا؟».

وسكت لحظة، ثم قال في جد:

«لقد كنت طيبًا جدا - رجل آخر فى محلك كان ضربها على رأسها. أنت طيب فوق الحد. هل فهمت أنها كانت تشتهيك؟».

---

(١) كائن خرافى، يتصوره الروسيون بطلاً له بنيان ضخم وقوة جبارة.

«لا أذكر. لا أظن أنى فهمت ذلك».

«طبعًا كانت تشتهيك. هذا واضح تمامًا. طبعًا كانت تشتهيك ».

«لم يكن يهمنى حينذاك».

«لا شأن لنا بما كان يهمك. أنت لست بالذى يصلح للنساء، وهذا واضح. رجل آخر فى محلك كان يجمع ثروة من ذلك، ويصبح مالك بيت، ويسوح معها بقية حياته».

وبعد أن سكت، قال:

«أنت فتى عجيب! لا تغضب. أنت عجيب جدا. والمضحك أنك طيب، مع أن لك مطلق الحق فى أن تكون حقوداً. أنت قوى، وهذا حسن جدا ...».

وسكت مرة أخرى، ثم أضاف متأملاً:

«أنا لا أفهم تفكيرك، إن تفكيرك مضطرب جدا، ولكن قلبك حكيم ... نعم، فلك قلب حكيم» .

ملحوظة: أثناء إقامتى بقازان، كنت أشتغل خفيراً وبستانيًا عند أرملة الجنرال كورنيت. وهى فرنسية، شابة، وسمينة لها ساقان طويلتان كسيقان التلميذات. وعيناها جميلتان جمالاً فائقًا، وقلقتان جدا، مفتوحتان أوسع ما تكونان دائمًا، ويطل منهما الظمأ. أعتقد أنها كانت بائعة فى دكان أو طباخة قبل زواجها، وربما كانت بنت هوى.

كانت تبدأ فى الشراب صباحًا، وقد تخرج إلى الفناء أو الحديقة وليس عليها غير قميص تحت ردائها البرتقالى اللون، وفى قدميها خف تترى أحمر من جلد السختيان، وشعرها الذى يشبه عُرف الفرس مشبوك على قمة رأسها بدبوس، ومثبَّت بإهمال شديد حتى ليظل يتساقط على خديها الورديين، فكتفيها. ساحرة صغيرة. اعتادت أن تتجولَّ فى الحديقة. وهى تغنى أغانٍ فرنسية، وترقبنى وأنا أشتغل، وتذهب إلى نافذة المطبخ من حين لآخر، تقول:

«اعطنى شيئًا، بولين!».

و «الشىء» كان هو نفسه دائمًا لا يتغيَّر – كأسًا من النبيذ المثلَّج.

وكانت الأميرات اليتيمات الثلاثة د. – ج. يسكنّ الطابق الأسفل فى البيت. وكان أبوهن مديراً للتوريدات فى الجيش، وعلى سفر دائمًا، وأمهن متوفاة. وقد كرهت الأرملة البنات، وأخذت تبذل جهدها لتجعل حياتهن تعسة، وذلك بأن تحتال عليهن كل أنواع الحيل القذرة. وكانت لا تحسن التحدث بالروسية، ولكنها تستطيع أن تشتم بطلاقة عجيبة، كأى عربجى كارو عريق. كانت تثير اشمئزازى من طريقة معاملتها للبنات المسكينات، والبنات فى حالة مفجعة، مفزَّعات، بغير حماية. مرة، حوالى الظهر تقريبًا، خرجت بنتان منهن تتمشيان فى الحديقة، وظهرت أرملة الجنرال فجأة، سكرانة كالمعتاد، وبدأت تصيح عليهما

وتطردهما من الحديقة. وشرعت البنتان تغادران الحديقة، دون أن ينبسا بكلمة، ولكن مدام كورنيت وقفت عند البوابة، تسد الطريق بجسدها، وتطلق سيلاً من السباب بالروسية كفيلاً بأن يصعق حصانًا. قلت لها تكفَّ عن السباب، وتدع البنتين تمران، فصاحت:

«أعرفك أنا! أنت تتسلل من شباكهن في الليل ...».

ففقدت زمام أعصابي، وأمسكتها من كتفها ودفعتها بعيدًا عن البوابة، ولكنها تملصت وانفلتت من يدي، وأدارت وجهها نحوي وصرخت، وهي تفتح ثوبها فجأة وترفع قميصها:

«أنا أجمل من هذه الفئران العجفاوات».

ففقدت زمام نفسي بجد، ودفعتها حتى دارت حول نفسها وضربتها بجاروفي في ردفها، فاندفعت من البوابة إلى الفناء، صارخة ثلاث مرات في استغراب فائق:

«أوه! أوه! أوه!».

وبعد ذلك استرجعت جواز سفري من مدبِّرة بيتها «بولين»، وهي الأخرى قحبة سكيرة، ولكنها محنَّكة إلى أقصى حد، وحملت بقجتي تحت ذراعي، ورحلت، بينما كانت أرملة الجنرال واقفة في الشباك، وبيدها منديل أحمر، وتصيح بي:

«لن أدعو البوليس – لا يهمك – اسمع! عد! لا تخف ...».

(٢٩)

سألته:

«هل توافق بوزنيشيف على أن الأطباء قتلوا، ولا يزالون يقتلون الناس بمئات الآلاف؟».

«وهل تلحّ عليك الرغبة فى أن تعرف؟».

«نعم».

«إذن فلن أقول لك».

وضحك ضحكة مكتومة، وهو يدوِّر إبهاميه.

أذكر مقارنة عقدها فى إحدى قصصه بين بيطار قروى، وطبيب ممارس؛ كتب:

«أليست الكلمات: «عرق»، و «البواسير»، و «دمع يسيح»، هى مجرد شكل آخر للتعبير عن كلمات طبية مثل: «الأعصاب»، و «الحمى الروماتيزمية»، و «بنية»، وهكذا؟».

يكتب هذا بعد ظهور علماء مثل: چينر، وبهرنج، وباستير! ألم أقل إنه عفريت!

(٣٠)

كم يدهشنى أنه يحب لعب الورق. وهو يلعب بشغف متهالك! وأحيانًا يهتاج جدًا، ويمسك بالورق فى عصبية كأنما يمسك بطير حىّ متوفز بين أصابعه، لا مجرد قطع من الورق المقوَّى.

(٣١)

«قال ديكنز قولاً حكيمًا جداً: «أنت تمسك بزمام حياتك على شرط أن تكافح فى سبيلها كفاحًا شاقًا». هو، على العموم، كان كاتبًا عاطفيًا ثرثارًا، ولم يكن حكيمًا جداً. لقد كان بالطبع يتقن بناء رواية، كما لا يستطيع أحد غيره. وهو بالتأكيد أحسن جداً من بلزاك. قال أحدهم:

«يستحوذ على الكثيرين حب مشبوب لكتابة الكتب، ولكن قليلين منهم هم الذين يخجلون من هذه الكتب». وبلزاك لم يكن أحد الذين يخجلون، ولا ديكنز. وكلاهما كتب قدراً عظيمًا من الأدب الردىء. ومع ذلك فبلزاك كان عبقريًا، أعنى أنه كان من ذلك الصنف من الناس الذى لا يمكن أن يوصف إلا بالعبقرية...».

وأحضر له أحدهم كتاب «تيخوميروف»، «لماذا لم أعد ثوريًا»، فالتقطه تولستوى، ولوَّح به قائلاً:

«الاغتيال السياسى يعالَج هنا علاجًا حسنًا جداً، يتضح منه أن هذا المنهج للمقاومة ليس له هدف واضح الحدود. فكرة الاغتيال، كما يقول هذا القاتل التائب، لا يمكن إلا أن تكون طغيانًا فوضويًا للفرد، وازدراء للمجتمع، وللإنسانية، وهذا قول حسن جداً. ولكن كلمة «الطغيان الفوضوى»، ليست إلا خطأ مطبعيًا، وكان الأحرى به أن يقول: «الطغيان الملَكى». الفكرة جيدة وصادقة، وكل الإرهابيين

سيتعظون بها؛ أنا أتحدث عن الشرفاء منهم. أما من يحب القتل بطبيعته، فلن يكفّ عن القتل، وليست فى الكتاب حجر عثرة تعترض سبيله. مثل هذا الشخص هو مجرد قاتل وقع بين الإرهابيين بالصدفة...».

(٣٢)

فى بعض الأحيان يصبح راضيًا عن نفسه، وغير محتمَل، مثل طائفى متعصب من إقليم الفولجا. والذى يجعل من ذلك شيئًا مريعًا، هو أن تولستوى ناقوس يدوِّى فى كل أرجاء العالم. بالأمس قال لى:

«إن بى من الفلاحين أكثر مما بك، وأنا أستطيع أن أحس بمشاعر الفلاحين أحسن منك».

يا إلهى! لا ينبغى له أن «يُزهى بهذا»، لا ينبغى له فى الحق!

(٣٣)

قرأت له بعضًا من مشاهد مسرحيتى «الحضيض». وأنصت لى بانتباه، ثم سألنى:

«ما جعلك تكتب هذا؟».

وأجبته بأحسن ما استطعت، فقال:

«أنت تندفع نحو الأشياء كالديك الصغير. وشىء اخر، أنت تحاول أن تصقل كل الجروح والشقوق بأسلوبك الخاص. ويقول هانز

أندرسون في إحدى قصصه: «الطلاء الذهبي يمحي، ولكن الجلد يبقى». وفلاحونا يقولون: «كل شيء يزول؛ والحقيقة وحدها تبقى». الأحسن ألا تطلي عملك، فهذا سيضرٌ بك فيما بعد. ولغتك، بعدئذ، زائدة الرشاقة، مليئة بالحيَل، وهذا غير مناسب. يجب أن تكتب بأسلوب أبسط، فالناس تتحدث دائمًا في بساطة. قد يبدو حديثهم مفككًا لأول وهلة، ولكنهم يعبِّرون عن أنفسهم تعبيرًا حسنًا. الفلاح لا يسأل: «كيف يجوز أن ثالثًا يصبح أعظم من رابع، مع أن أربعة أكثر من ثلاثة؟» كما تسأل فتاة متعلمة ما. لا حاجة لنا بالكتابة ذات الحيل».

وظهر عليه أنه غير مسرور. كان واضحًا أنه لا يحب ما قد قرأته عليه إطلاقًا. وبعد أن سكت قال بنبرات واثقة، وهو ينظر فيما ورائي:

«رجُلك العجوز لا يسعنا أن نحبه، والمرء لا يثق بطيبته. الممثل حسن جدا. هل قرأت «ثمرات التنوير؟»، فلي فيها أسطى مطبخ يشبه ممثلك. كتابة المسرحيات صعبة جداً، عاهرتك حسنة أيضًا. من المحتمل أنهن حقيقة على هذه الصورة. هل التقيت بهذا النوع من النساء؟».

«أوه، نعم».

«أستطيع أن ألمح ذلك. الحقيقة تُشعرك دائمًا بنفسها. ولكنك تتكلم كثيرًا جدًا من وجهة نظر المؤلف، وأبطالك ليسوا شخصيات حقيقية، فكلهم متشابهون بقدر زائد. أنت لا تفهم النساء ربما، فكل نسائك شخصيات فاشلة – كلهن. المرء لا يستطيع أن يتذكرهن...».

ودخلت زوجة أندريه لفوفتش الغرفة تدعونا إلى الشاى. فنهض تولستوى وخرج مسرعًا، كأنه ابتهج لإنهاء المحادثة.

(٣٤)

«ما أفظع حلم حلمته فى حياتك؟».

أنا نادراً ما أحلم، ويصعب على أن أتذكر أحلامى. ولكن حلمين لبثا فى ذاكرتى، وقد لا أنساهما ما حييت.

مرة رأيت السماء شاحبة عفنة، صفراء باخضرار، وفيها نجوم مستديرة مسطَّحة، لا أشعة لها ولا بريق، كالورود على جسد رجل يموت جوعًا. وكان يزحف بينها برق محمرٌ، فوق السماء العفنة؛ والبرق أشبه بأفعى، وكلما مسَّ نجمًا ينتفخ هذا فى الفضاء وينفجر دون أن يصدر عنه صوت، مخلفًا فى محله بقعة داكنة، كسحابة دخان، ويختفى فوراً فى السماء العفنة المائية. انفجرت كل النجوم الواحدة بعد الأخرى، والسماء تمسى أكثر عتمة لا تزال، وأكثر ترويعًا. ثم خيل لى أنها تتجمع، وتغلى وتسقط نتفًا على رأسى، كالهلام المائى، بينما فى المساحات بين النتف كان السطح الأسود الملمّع يضوى.

قال تولستوى:

«لا بد أنك كنت تقرأ مؤلفًا علميا عن الفلك، وهذا ما أفضى بالكابوس إليك. ما هو الحلم الآخر؟».

رأيت فى الحلم الآخر سهلا مغطى بالجليد، مسطحًا كصفحة الورق، ولا أكمة فيه، ولا شجرة أو شجيرة، لا شىء غير غصن تراه فى غير وضوح هنا أو هناك، ناتئًا فى الجليد. ويمتد عبر جليد هذه الصحراء التى لا حياة فيها، من الأفق إلى الأفق، طريق كالشريط الأصفر يوشك ألا يلمحه أحد، وزوج من الأحذية الطويلة الرمادية المكسوّة باللباد تمشى بخطى واسعة وببطء على الطريق، لوحدها.

رفع تولستوى حاجبيه الكثّين، بشكلهما العفريتى، وحملق فىّ منتبهًا. وسكت، ثم قال:

«هذا مريع. هل حلمت بهذا حقا - ألم تفسره؟ إن به شيئًا كتْبيّا قليلاً».

ثم لاحظت فجأة أنه يفقد زمام نفسه، وقال فى تأكد، وبقسوة وهو يخبط بإصبع واحدة على ركبته:

«أنت لا تشرب. ولا يظهر أنك كنت فى يوم من الأيام تدمن الخمر. ومع ذلك ففى هذين الحلمين شىء من خواطر السكيرين. أعرف كاتبًا ألمانيا اسمه هوفمان كان يرى موائد القمار تجرى ذاهبة آتية فى الشارع، وكل هذا النوع من الأشياء، حسن، لقد كان سكيراً، «مستدمن» خمر، كما يقول العربجية المتعلمون. حذاء يمشى لوحده، هذه مريعة فى الحق. حتى لو كنت اخترعتها، فهى حسنة جداً. مريع!».

وابتسم فجأة حتى شملت الابتسامة لحيتـه، ونورت عظام خديه.

«وتصـوَّر هذا: على حين غـرَّة تقبل مـائـدة قمـار تجرى فى شـارع تفرسكايا، تصور! بقوائم من الخشب الملتوى، وعوارضـها تصـفق، وتنـفث الطبـاشـيـر، أنت تسـتطيع حتى أن تتصـور أجسـامًـا فوق جـوختـهـا الخضـراء. لقـد فـرَّت لأن بعض مـحـصلى الضـرائب لعبـوا عليـهـا لعـبة «واحد وعشرين»، ثلاثة أيام بلياليها، حتى لم تعـد المائدة تطيق».

وضحك، لكنه لا بد قد لاحظ أننى استأت قليلاً من أنه لم يصدقنى.

«أنت غـاضب لأن أحـلامك تبـدو لى كـتـبـيّـة. لا تغـضب. أنـا عـارف كيف يخترع المرء أحيانًا، بلا وعى منه، أشياء غريبة إلى حد أن واحداً لا يستطيع أن يصدقها. ثم يبدأ هو نفسـه يظن أنـه لا بد قد حلم بهذه الأشـياء. لقـد حكى لى مالك أرض عجـوز مـرة أنه رأى نفسه يمشى فى غابة، خرج منها إلى إقليم أعشاب السفانا، وإذا بالأعشاب تتحـول فجأة إلى حلمات أثداء، وطلع من بينها وجـه أسـود، بقـمرين مـكان العـينين، بيضـاويين، هه. والرجل نفسه كـان واقفًا بين سـاقى امـرأة، وأمامـه هـاوية عميقة سوداء، تشفطه إليها. وبعد ذلك الحلم بدأ شـعره يتـحول رمـاديًا، ويداه تصابان بالرعشة، فسافر إلى الخـارج ليرى الدكتور نيب، ويشرب المياه المعدنية. وهـذا بالضبط هو نوع الأحلام التى كان لا بد لرجل مثله أن يراها؛ فقـد كان داعراً».

وربت على كتفى:

«ولكنك أنت لست سكيرًا، ولست فاسقًا، فكيف تنتابك أحلام كهذه؟»

«لا أعرف».

«نحن لا نعرف شيئًا عن أنفسنا».

ونهد، وضيَّق عينيه، وأضاف بنبرات أخفت:

«لا شيء».

وفى ذلك المساء، كنا نتمشى فى الخارج، فأمسك بذراعى وقال:

«حذاء يمشى، فظيع، هه؟ لوحده - تيبتى تيبتى تيبتى - والجليد يقرقش تحت وطئه. نعم، إنه حسن جداً. ولكنك لا تزال كتبيّا جداً جداً. لا تغضب، هذا سيئ، لو تعرف، وسيكون سيئًا فى مستقبلك».

لا أظن أنا أنى أكثر كُتبيَّة منه، والآن فقط يخيل لى أنه رجل عقلانى إلى الحد الأقصى، مهما قال هو غير ذلك.

(٣٥)

إنه يبدو أحيانًا كرجل وصل لفوره من مكان بعيد جداً، حيث يفكر الناس ويحسون بطريقة تختلف عن طريقتنا، ويعامل الواحد منهم

الآخر بأسلوب يختلف عن أسلوبنا، وهم حتى لا يتحركون مثلنا، ويتخاطبون بلغة أخرى. إنه يجلس فى ركن، مجهداً، رمادياً، كأنه مترب بتراب أرض أخرى، ويحملق بجد فى كل شخص، بعينى أجنبى أو بعينى أصم أبكم.

أمس، قبل الغذاء، أتى إلى غرفة الجلوس على هذه الصورة بالضبط، كأنما هو بعيد، بعيد جداً، وجلس على الأريكة ساكناً لحظة، ثم قال فجأة وهو يطوح ركبتيه ويدعكهما بكفيه، ووجهه يتجعد:

«هذه ليست النهاية، لا، لا».

فسأله شخص ما فى غباوة ورصانة واستواء، كأنه مكواة:

«ماذا تعنى؟».

فحملق فيه بثبات، وانحنى، وهو يلقى بصره على الفاراندا، حيث كان الدكتور نيكيتين ويلباتييفسنكى وأنا جالسين، وسألنا:

«عم تتحدثون؟».

«عن بليڤ».

«بليڤ... بليڤ...».

كررها مفكراً، وهو يسكت بين الكلمات كأنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل، ثم نفض نفسه كالطير، وقال وهو يضحك ضحكاً مكتوماً:

«كلام فارغ ما ظل يدور فى دماغى منذ الصباح. لقد أخبرنى أحد الناس عن نقش على شاهد قبر يقول:

«هنا يرقد، تحت هذا الحجر، إيڤان بيجوربيف»

«كان دبّاغًا، ينقع الجلد طول النهار، لقد كدح ،

وكان طيب القلب، والآن مات، تاركًا دكانه لزوجته»

«لم يكن عجوزًا، وكان ليستطيع أن يواصل نقع

جلده، ولكن اللّه دعاه»

«ليشارك فى الحياة الأبدية»

«فى ليلة الجمعة، ليلة أسبوع الآلام».

وسكت، ثم هز رأسه، وابتسم ابتسامة باهتة، وأضاف:

«ثمة شىء مؤثر جدًا، شىء حلو للغاية فى بلادَة الحياة الإنسانية، إذا كانت غير خبيثة. ثمة دائمًا هذا الشىء».

ودعينا إلى الغذاء.

(٣٦)

«أنا لا أحب السكيرين، ولكنى أعرف أشخاصًا يصبحون ممتعين بعد كأس أو اثنتين، فهم يكتسبون مهارة وجمالاً فى الفكر، وكفاءة

وفصاحة ليست في طاقتهم وهم في حالة صحو. ففي هذه الحالة أصبح على استعداد لمباركة النبيذ».

قال سولر: إنه وتولستوي كانا يسيران في شارع تڤير سكايا، حين لفت نظر تولستوي جنديان متدرعان على مبعدة، ودروع الصدر النحاسية عليهما تبرق في نور الشمس، ومهاميزهما تشخلل، وهما يمشيان بخطى عسكرية واسعة منتظمة، كأنهما قد شبّا معًا، ووجهاهما يلمعان أيضًا ببهجة الشباب وقوته. وشرع تولستوي يسبهما:

«أية غباوة جليلة! ليسا إلا حيوانان دربًا بالسوط...».

ولكنه وقف ساكتًا بعد أن مر الجنديان، يتبعهما بنظرة حب، وقال في إعجاب:

«ألا تراهما جميلين مع ذلك! كالرومانيين القدماء هه، ليوفوشكا؟ قوة، جمال، أوه، يا إلهي! ما أبهى تقاطيع الإنسان! ما أبهاها!».

(٣٧)

أدركني في الطريق الواطئ، ذات يوم حار جدًا. كان راكبًا في طريقه إلى ليڤاريا، على جواد تتريٍّ صغير هادئ، وهو رمادي أشعث على رأسه قبعة من اللباد الأبيض الرقيق لها شكل عش الغراب، ويبدو في جملته كعفريت صغير.

شد عنان الجواد وخاطبنى، ومشيت أنا بجوار ركاب السرج، وذكرت له ضمن حديثى أنه قد وصلنى حالا خطاب من ف. ج. كورولنكو.

هز تولستوى لحيته مغضباً، وقال:

«أهو يؤمن باللّه؟».

«لا أعرف».

«لا تعرف أهم شىء! إنه مؤمن، ولكنه يخجل من أن يعترف بذلك أمام الملحدين».

كان يتحدث فى ضجر وتبرم، ويضيِّق عينيه فى غضب، وأنا ماشٍ فى طريقه. ولكننى حين تهيأت للافتراق عنه أوقفنى.

«ما الحكاية؟ أنا ماش ببطء».

ثم زمجر ثانية:

«رجلك أندرييف يخاف الملحدين، ولكنه يؤمن باللّه أيضًا، وهو خائف من اللّه».

وعلى حدود ضيعة الغراندوق! ا. م. رومانوف، كان ثلاثة رجال من أسرة رومانوف واقفين متلاصقين فى الطريق؛ يتحدثون، هم مالك ضيعة أى تودور، وجيورجى، وشخص آخر أظنه بيوتر نيكولاييفتش من مدينة ديوليبار، وهو رجل أنيق طويل. وكانت تسد الطريق عربة ذات حصان

واحد، وحصان ركوب آخر، فلم يستطع ليونيكولاييفتش تولستوى المرور، فرمى نظرة جهمة مثالية على أفراد رومانوف. ولكنهم كانوا وقوفًا وظهورهم إلينا. ونقل حصان الركوب ساقيه، وتحرك جانبًا مخليا الطريق لجواد تولستوى حتى يمر.

وبعد أن مشينا دقيقة أو اثنتين ساكنين، قال:

«لقد تعرَّفوا على، الأجلاف!».

وبعد دقيقة أخرى، عاد يقول:

«الحصان عرف أنه يجب عليه أن يخلى الطريق لتولستوى».

(٣٨)

«اعتن بنفسك، من أجل صالحك أولاً وقبل كل شىء، وبذلك تصنع الكثير من أجل الآخرين».

(٣٩)

«ماذا نعنى بقولنا: نحن نعرف؟ أنا أعرف أنى تولستوى – الكاتب – وأن لى زوجة وأطفالاً، وشَعرًا وخطه الشيب، ووجهًا قبيحًا ولحية، وهذا كله عبارة عن جواز سفرى. لكنهم لا يدخلون الروح فى بيانات جواز

السفر. كل ما أعرف عن روحى أنى أشتهى قربًا من اللّه. ولكن ما هو اللّه؟ هو الذى روحى ذرة منه. لا غير. إن أى شخص تعلّم أن يفكر يلقى صعوبة فى أن يؤمن، ولكن المرء لا يستطيع أن يعيش فى اللّه إلا عن إيمان. قال تيرتوليان: (الفكر شر)».

(٤٠)

إن هذا الرجل العجيب - رغم رتابة عظاته - متقلب بلا حدود.

كان أثناء حديثه مع إمام جاسبرا فى الحديقة، واقفًا إزاء الإمام، كريفى شديد الحياء، واتته الساعة التى لا بد فيها من أن يفكر فى أيامه الأخيرة. وبرغم صغر حجمه، لاح لى أنه يحاول أن يجعل نفسه أقصر قامة. وكان واقفًا جنب التترى القوى الوثيق، ويبدو كرجل عجوز صغير الجسم، قد بدأ لفوره يتأمل فى معنى الحياة، وأغرقته المسائل التى يقدمها هذا التأمل. رفع حاجبيه الكثين مدهوشًا، وعيناه الحادتان تطرقان فى حياء، وهو يطفئ التماعهما النفاذ غير المحتمل. وسكنت نظرته الباحثة بلا حراك على وجه الإمام العريض، وفقدت حدقتا عينيه حدتهما التى كم وجدها الناس مثيرة لارتباكهم. وأخذ يسأل الإمام أسئلة طفلية عن معنى الحياة، وعن الروح واللّه، وهو يكمل آيات من القرآن بآيات من الإنجيل، ويصف الأنبياء بالمهارة الفائقة. وكان فى الحقيقة يمثل دورًا، ويفعل ذلك بشطارة غير عادية، لا يقدر عليها غير فنان وحكيم عظيم:

ومنذ أيام كان يتحدث إلى تانييف وسولر عن الموسيقى، فاستخفه الطرب كطفل من جمال هذا الفن، وكان أى امرئ يستطيع أن يرى أنه يستمتع بحالة طربه أو بالأحرى، كان يستمتع بقدرته على الشعور بهذا الطرب. وقال: إن أحداً لم يكتب عن الموسيقى كتابة حسنة وعميقة كشوبنهور. وبينما هو يتحدث فى ذلك حكى حكاية مضحكة عن «فت»، وقال عن الموسيقى إنها «الصلاة الخرساء للروح».

فسأله سولر: «لماذا الخرساء؟».

«لأنها بغير كلمات. إن فى الأصوات نسيج من الروح أكثر مما فى الأفكار. الفكر كيس يحتوى على عملات نحاسية، أما الصوت فلا يلوثه أى شىء، وهو نقى من الباطن».

وكان يستخدم كلمات طفلية مؤثرة باستمتاع واضح، ويتذكر فجأة أحسن هذه الكلمات وأرقها. ثم يبتسم حتى تسع الابتسامة لحيته، ويقول فى ليونة، يكاد أن يحنو على الكلمات:

«كل الموسيقيين أغبياء؛ فكلما كانت الموسيقى أعظم موهبة، كانت أضيق عقلاً. والعجيب أن كلهم تقريباً متدينون».

(٤١)

قال لتشيكوف فى التليفون:

«كم يبهجنى هذا اليوم، وأشعر بالسعادة إلى حد أنى أريدك أن تكون سعيداً أيضاً. أنت بخاصة! فكم أنت لطيف! كم أنت لطيف جداً!».

(٤٢)

إنه لا يسمع للناس ولا يصدقهم حين يخطئون القول. وهو في الحقيقة لا يسأل، بل يستجوب.

وينصت مثل جامع الأشياء النادرة، لا يقبل إلا الشيء الذي لا يفسد انسجام مجموعته.

(٤٣)

قال وهو يقلب خطابات قرائه:

«إنهم يحدثون صخبًا عظيمًا؛ يكتبون، وعندما أموت، سيقولون بعد سنة: تولستوى؟ أليس هو الكونت الذى ذهب يرتق حذاءه، ثم حدث له شيء ما؟».

(٤٤)

كثيراً ما ضبطت على وجهه، وفى نظرته الابتسامة الماكرة الراضية، كابتسامة رجل وقع فجأة على شيء كان قد خبأه. لقد خبأ تولستوى شيئًا ما، ثم نسى مكانه. وعاش أيامًا كثيرة يخفى قلقه، ويتساءل فى إلحاح: أين يمكن أن أكون وضعت هذا الشيء الذى أحتاجه جداً؟ ويخشى أن تلحظ الناس قلقه، وافتقاده لهذا الشيء، فيصنعون ما لا يسره، ما لا يحبه. ثم يتذكر فجأة، ويعثر على الشيء،

فيمتلئ بالفرح، ولا يعود يشغل نفسه بإخفاء هذا الفرح. بل يرمى كل شخص بنظرة ماكرة كأنه يقول:

«أنتم لا تملكون إيذائى الآن!».

ولكنه لا يتحدث أبداً عن ذلك الشيء الذى عثر عليه، أو يقول أين عثر عليه.

والمرء لا ينى يتعجب منه، ومع ذلك فالمرء لا يحرص على أن يراه مراراً كثيرة، وأنا لا أستطيع أن أعيش معه فى بيت واحد، بله فى غرفة واحدة. إن صحبته تثير فى النفس ما يثيره وجود المرء فى سهل أحرقت الشمس كل إنسان عليه، وهى نفسها تحترق أيضًا فوقه وتذوى، وتنذر بليل مظلم لا نهائى..

الخطاب :

ما إن وضعت خطابى إليك فى صندوق البريد، حتى وصلتنى البرقية التى تعلن «فرار تولستوى». فأنا كما ترى أكتب إليك مرة أخرى، ولا زلت تحت تأثير الشعور باتصالنا العقلى.

لا ريب أن كل شىء أميل لقوله بصدد هذا النبأ سيكون مضطرباً، بل قد يكون خشنًا وغير كريم، ينبغى أن تغفر لى، فأنا أشعر كأن شخصاً قد أمسك برقبتى ويخنقنى.

لقد تحدث تولستوى إلىَّ مراراً، وطويلاً. وعندما كنت مقيماً فى جاسبرا بالقرم زرته مراراً، وكان يحب زيارتى هو أيضاً. وقد قرأت كتبه بإمعان وشغف، وفى حب؛ ولذا يخيل لى أن من حقى أن أقول رأيى فيه، حتى لو أن فى هذا جسارة منى عليه، أو لو أن ما أقول يناقض الرأى الشائع عنه. أنا أعرف كما يعرف أى امرئ سواى أنه لم يكن هناك أبداً من هو أحق بأن يوصف بالعبقرية، أو من هو أكثر منه تعقيداً ومناقضة لنفسه، أو أبهر من كل وجه، نعم، من كل وجه. هو باهر بالمعنى الخاص، وبالمعنى الواسع، على نحو يكاد لا يستطيع أحد أن يُعبِّر عنه فى كلمات على الإطلاق. وبه شىء يثير فىَّ الرغبة أن أصيح بالجميع: انظروا أى رجل عجيب يعيش فوق كوكبنا! لأنه، إذا صح هذا التعبير، رجل شامل، وإنسان أولاً وقبل كل شىء، رجل بين الرجال.

ولكنى كنت أنفر دائمًا من جهوده الطغيانية العنيدة التى يبذلها ليحول حياة الكونت ليونيكولاييفتش تولستوى إلى «حياة الأب القديس ليو». وقد ظل يجتهد أن «يتعذب» زمنًا طويلاً، أنت تعرف. وأبلغ يفجينى سولوفيوف، وسولر، كم هو آسف لأنه لم ينجح فى تحقيق ذلك بشكل وافٍ! وهو لم يكن يريد أن يتعذب لمجرد رغبة طبيعية فى أن يختبر قوة إرادته، ولكن عن قصد عنيد واضح - وأنا أكررها - فى أن يزيد من وزن عقائده، أن يجعل من تعاليمه شيئًا لا يمكن مقاومته، أن يضفى عليها قداسة فى أعين الناس بتعذيبه، ليرغمهم على قبولها، ليرغمهم،

أتفهم. ذلك أنه يعلم جيداً أن تعاليمه ليست مقنعة بما يكفى، وعندما تنشر مذكراته سترى بعض عينات الشك الجيدة يسحبها على تعليمه نفسها، على شخصيته. وهو يعرف أن «الشهداء والمعذبين هم بلا خلاف تقريبًا طغاة ومضطهِدين»، إنه يعرف كل شيء. ومع ذلك يقول: «إذا فرض علىّ أن أتعذب من أجل أفكارى، فإنها ستحدث أثرًا مغايرًا جدًا». وهذا كان دائمًا ينفرنى منه، لأنى لا أملك إزاء موقفه هذا إلا الشعور بأنه يحاول أن يقسرنى، ويريد أن يسيطر على وجدانى، ويذهله بمنظر دم الشهيد، ويضع حول عنقى ربقة عقائده المتزمتة.

كان دائمًا وفى كل مكان ينشد أناشيد النصر للخلود فى العالم الآخر، أما الخلود فى هذا العالم فكان أحبَّ إلى نفسه، إنه كاتب قومى بأصدق معانى الكلمة، وتنطوى روحه العظيمة على كل رذائل الأمَّة، وكل التشويه الذى ضربته علينا صنوف الاضطهاد فى تاريخنا... كل شىء فيه قومى، وكل تعاليمه هى مجرد رجعة، عود على بدء، على ما كنا شارعين فى أن نزعزعه، ونقهره.

تذكَّر خطابه «المثقفون والدولة، والشعب»، الذى كتبه سنة ١٩٠٥م، أى شىء بغيض خبيث كان هذا الخطاب، وفى كل سطر منه تستطيع أن تقرأ عبارة المنشقين التى تغيظ «لقد قلت لكم ذلك!». كتبت له ردًا فى ذلك الوقت، أسسته على كلماته التى خاطبنى بها هو نفسه: إنه قد «خسر من زمان حقه فى أن يتكلم عن الشعب الروسى،

وباسمه»، فإني كنت شاهداً على نفوره من أن يصغي ويفهم للناس الذين أقبلوا يتحدثون إليه حديث القلب للقلب. وكان خطابي قاسيًا، فلم أرسله.

وما يصنعه الآن ربما يكون قفزته الأخيرة، على أمل أن يضفي على أفكاره أعلى دلالة ممكنة. ولقد كان مثل فاسيلي بوسلاييف ولوعًا دائمًا بهذه القفزات، لا يستهدف منها غير تأكيد قداسته هو، والسَّعْي وراء هالة لرأسه. وفي هذا شيء من رائحة محاكم التفتيش، رغم أن تعاليمه يبررها تاريخ روسيا القديم، وتبررها الآلام الذاتية التي يعانيها كل عبقري. إن طريق القداسة هو تأمل الخطيئة، وكبح إرادة الحياة.

شيء كثير في خصال ليونيكولاييفتش، ذلك الذي كان يثير فيّ مشاعر قريبة من الكراهية. شيء كثير كان يسقط كعبء ثقيل على روحي. إن ذاته المفرطة التضخم ظاهرة فظيعة، وشاذة تقريبًا، وفيها شيء من بوجاتير سفياتوجور الذي لم تستطع الأرض أن تحتمل ثقله. نعم، هو عظيم! وأنا عميق الاقتناع بأن هناك – فضلاً عن كل ما يقوله – شيئًا كثيراً لا يتحدث عنه حتى في مذكراته، وربما لن يتحدث عنه لأية نفس. وهذا «الشيء» لا يظهر إلا لمامًا، وفي غير حسم، في حديثه. وفي كراستي مذكراته اللتين أعطانيهما أنا وسولر لنقرأهما. إشارات لهذا «الشيء» الذي يبدو كأنه «إنكار لكل ما قد قاله»، أعمق وأحطّ لون من ألوان العدمية، نشأ ونما في تربة من اليأس والوحدة اللانهائيين، اللذين لم يستطيع شيء أن يحطمهما أبداً،

ولم يشعر بهما أحد من قبل – ربما – بمثل هذا الوضوح المروِّع. وقد أدهشني كثيراً بأنه رجل لا ينثني، ولا يبالي في أعماقه بالناس، فهو أعلى منهم بقدر عظيم وأقوى، حتى لينظر إليهم كبعوض، مشغولياتهم سخيفة ومثيرة للرثاء. ولقد انسحب بعيداً عنهم جداً إلى صحراء ما، حيث يقوم في وحدته بأعظم قدر من التركيز لجميع قوى روحه، وينظر في «أهم شأن على الإطلاق» – الموت.

لقد كان طوال حياته يفزع من الموت ويبغضه. كان يطارده طوال حياته شبح مجاعة آرزاما – ألا بد له، وهو تولستوي، من أن يموت؟ إن أنظار العالم كله، والكون، تحط عليه. وتمتد إليه خيوط حية مرتعشة من الصين والهند وأمريكا؛ وروحه تسطع على كل الناس، وعلى كل العصور. فلماذا لا تصنع الطبيعة استثناءً من قواعدها، وتمنحه – وحده من دون كل الناس – خلوداً بالجسد؟ وقد كان طبعًا أكثر تعقلاً وذكاء من أن يؤمن بالمعجزات. ومع ذلك فهو من ناحية أخرى متمرد، ورائد، هو كمجنَّد صغير يصيبه الفزع الوحشي واليأس حين يجابه الثكنات المجهولة. أذكر أنه ذات مرة في جاسبرا، بعد شفائه، وبعد أن قرأ كتاب ليوشستوف «الخير والشر في تعاليم نيتشه والكونت تولستوي»، قال يردّ على قول تشيكوف: إنه «لا يحب الكتاب»:

«أما أنا فأراه كتاباً مسليا. الكاتب متأثر بغيره، ولكن الكتاب ليس رديئًا، إنه ممتع. أنا أحب المتهكِّمين إذا كانوا صادقين. والمؤلف يقول

فى موضع ما من الكتاب: «الحقيقة غير مطلوبة»، وهو محق فى هذا تماماً – ما حاجته للحقيقة؟ إنه سيموت على أية حال.

ولما لاحظ بوضوح أن كلماته لم يفهمها أحد؟ أضاف وهو يضحك فرحاناً:

«حالما يتعلم الإنسان كيف يفكر، ترتبط كل أفكاره بفكرة موته هو. كل الفلاسفة هكذا. ما جدوى الحقائق، ما دام الموت يأتى بالتأكيد؟».

ومن ثم استأنف يشرح أن الحقيقة واحدة لجميع الناس، هذه الحقيقة هى حب اللّه. ولكنه كان يتحدث عن هذا الموضوع فى لا مبالاة، وهو منهك. وفى القاراندا، بعد الغذاء، التقط الكتاب ثانية، وعثر بالموضع الذى يقول فيه الكاتب: «لم يستطع تولستوى وديستويفسكى ونيتشه أن يطيقوا الحياة وأسئلتهم معلّقة بلا جواب. إن أى إجابة كانت فى نظرهم أحسن من لا شىء»، فضحك وهو يقول:

«أى حلاق جسور! يقول بلا مواربة أنى أخدع نفسى، وهذا يعنى أنى أخدع الآخرين، أيضاً. هذه هى النتيجة الواضحة التى تترتب على ما يقول...».

فسأله سولر: «ولكن لماذا تدعوه (حلاقاً؟)».

قال وهو يفكّر: «حسن، لقد بدر لذهنى أنه كان عايقاً عصرياً. وتذكرت حلاقاً من موسكو رقص فى حفلة زواج عمه القروى فى الريف.

كان سلوكه رائعًا، فهـو قـادر على الرقـص بالرمح، وكان لذلك يحتـقر كل الناس».

وأنا أروى هذه المحادثة بالكلمة تقريبًا، وأتذكرها بوضـوح تام، وقد كنت دونّتـها حـتى، كمـا دونّت كل شيء أثارنى. وقد دوّن سـولر مـثلى مذكرات كثيرة، ولكنه ضيعها فى طريقه إلى آرزاماس، حيث زارنى كان مهملاً جداً، ورغم أنه كان يحب ليونيكولاييفتش تولستوى حبا يوشك أن يكون أنـثويًا، إلا أن موقفه من تولستوى كان غريبًا بعض الشىء، ويكاد يخامره شعور بالتفضل عليه. وأنا أيضًا وضعت مذكراتى جانبًا فى مكان ما، ولا أعثر عليها؛ لا بد أنها فى روسيا. لقد راقبت تولستوى عن قـرب جـداً، لأنى كنت دائمًا أبحث، وسأبحث إلى يوم الممات، عن رجل ذى إيمان حقيقى وحىّ، ولأن تشيكوف أيضًا شكى لى مرة ونحن نتحدث عن ضآلة ثقافتنا بقوله:

«انظـر، كل كلمة قالها جيتـه قد دوّنت، ولكن صوت تولستوى يتبـدد ولا يسجل. هذا الولد العجوز، الروسى إلى حدٍّ مريع! وسينـتبه الناس فيما بعد، ويشرعون فى كتابة ذكريات عنه مليئـة بصنوف التشـويه».

ولكن، فلنستأنف موضوع شستوف:

«إنه يقـول: «المرء لا يستطيع أن يعيش محملقًا دائمًا فى رؤى مفزعة» كيف يعرف ما يستطيعه المرء وما لا يستطيعه؟ لو كان يعرف،

لو كان هو نفسه يرى رؤى لما كتب سخافات، ولشغل نفسه بشيء جاد، كما فعل بوذا طوال حياته...».

وقال شخص ما: إن شستوف كان يهودياً.

فرد تولستوى غير مصدِّق: لا أظن! فهو لا يشبه اليهود فى شىء. وليس ثمة أى يهود ملحدين، اذكر لى مثلاً واحداً. لا يوجد واحد».

كان يلوح لى أحياناً أن هذا الساحر العجوز يلاعب الموت، ويغازله، ويحاول أن يغلبه بطريقة ما: أنا لا أخافك، أنا أحبك، أنا أنتظرك. وترمق عيناه الحادتان الصغيرتان، ما حواليه طول الوقت، ما شكلك؟ وماذا وراءك؟ أتنوى أن تدمرنى كلية، أم أن بعضاً منى سوف يبقى؟

وكانت لكلماته «أنا سعيد، سعادة مروِّعة، سعادة مفرطة!» تأثير غريب. و - بعدها مباشرة: «أوه، أن أعانى!» أن يعانى - هذه أيضاً كانت صادقة. ولا شك عندى أبداً فى أنه بينما كان لا يزال، فى دور النقاهة، كان ليملأه الفرح الصادق لو ألقى به فى السجن، أو فى المنفى، وباختصاره كان ليرضى بإكليل الشهداء. هل كان سبب ذلك شعوره بأن الاستشهاد يبرر الموت على نحو ما، ويجعله أيسر فهماً، وأسهل قبولاً من وجهة النظر الشكلية الظاهرية؟ وإنى على ثقة بأنه لم يكن سعيداً أبداً، فلا هو فى «كتب الحكمة»، ولا «على ظهر جواد»،

ولا «فى ذراعى امرأة» حظى إلى حد الامتلاء بنعيم «الفردوس الأرضى». فله ذهن عقلانى إلى حد أنه غير خليق بإدراك هذا النعيم، وهو يعرف الحياة والناس معرفة أعظم من أن تتيح له مثل هذا الشعور. وله كلمات أخرى فى ذلك. قال:

«حظي الخليفة عبد الرحمن بالسعادة أربعة عشر يوماً من حياته، وأنا لا أعرف أني حظيت بمثل هذا القدر من السعادة. وذلك كله لأني لم أعش أبداً – ولا أعرف كيف أعيش – لنفسى، ولروحي. لقد عشت دائماً لأجل المجد، ولأجل الآخرين».

وبينما نحن منصرفون. قال تشيكوف: «لا أعتقد أنه لم يظفر بالسعادة أبداً». ولكنى أنا أعتقد ذلك. إنه لم يظفر بالسعادة أبداً . وليس حقيقيا أنه عاش «للمجد». فقد كان دائماً يعطى للآخرين، للشحاذين من فضلته. وكان يحب دائماً أن يجعلهم «يصنعون» أشياء.. يقرءون، ويمشون، ويعيشون على الأطعمة النباتية، ويحبون الفلاح، ويؤمنون بأن أفكار ليوتولستوى العقلانية والدينية، حقائق يقينية. وأنت لا بد لك من أن تعطى الناس شيئاً، إما يشبعهم أو يشغلهم، كى تتخلص منهم. لماذا لا يسعهم أن يتركوا رجلا لنفسه، فى عذابه المعتاد، وأحياناً فى وحدته المريحة، ليواجه المستنقع الذى لا قرار له يواجه مسألة الشىء العظيم».

لقد كان كل الوعاظ الروسيين - باستثناء أقا كوم وربما تيخون زادونسكي - ذوي طبع جامد، وليس في قلوبهم إيمان إيجابي حيّ. وفي مسرحيتي «الحضيض» حاولت أن أخلق هذا الصنف من الكهول في شخصية لوقا. وكان الذي يهمه.. هو «كل أنواع الإجابات»، ولا تهمه الناس. ولم يكن يملك إلا أن يلتقي بالناس، فكان يواسيهم، ولكنه يواسيهم لكي لا يعترضون طريقه، ليس إلاّ. وكل فلسفته - وكل عظات مثل هؤلاء الرجال - تبلغ مبلغ الصدقات التي يتصدقون بها في تأفف مستور، وكأنك وراء عظاتهم، تسمع الكلمات الشاكية شكوى المتسولين:

«دعني وحدي! أحبب إلهك وجارك، ولكن دعني وحدي!

وأحبب أولئك المبعدين عن ملكوته، ولكن دعني وحدي! دعني وحدي، لأني لست إلا بشراً، ومقضي عليه بالموت».

ويلاه، فهذه هي الحياة، وستظل الحياة على هذا النحو دهراً طويلاً. وقد كان من المستحيل - وسيظل من المستحيل دائماً أن تصبح الحياة على غير هذا النحو، لأن البشر مكروبون، معذبون، كل منهم معزول إلى حد مريع، وكلهم مكبَّلون بوحدة تعصر أرواحهم، فلا ينبغي لي أن أدهش أبداً إذا كان ليوتولستوي ليصطلح مع الكنيسة. فلهذه المصالحة منطق قائم بذاته، هو أن كل الناس متساوون في تفاهتهم، بما فيهم القسيس. وهذه في الحقيقة ليست مصالحة، بل هي عنده

مجرد خطوة منطقية مؤداها: «أنا أغفر لهؤلاء الذين يكرهوننى». وإنه لصنيع مسيحى، وفى طياته تهكم حاذق طفيف، فى وسعنا أن نفهمه على أنه انتقام الرجل الحصيف من الحمقى.

ولكنى لا أكتب كما كنت أريد، ولا عن الأشياء التى كنت أريد. فثمة كلب يعوى فى روحى، والكارثة ترفرف أمام عينىَّ. فالصحف قد وصلت فى التو، ولا أستطيع أن أرى كيف ستجرى الأمور. إن أسطورة تتخلَّق الآن فى الركن الذى تعيشون فيه من العالم.

«كان ياما كان يعيش كسالى ومتطفلون، وقد صنعوا قديساً». تأمل فقط أى أذى سيوقعه هذا ببلادنا، وبخاصة فى وقت تطأطئ فيه الجماهير رؤوسها، وقد انقشعت عنها الأوهام، وأرواح الأغلبية العظمى من الناس خاوية وعقيمة، وأرواح الخاصة مفعمة بالكآبة. كل هذه الأرواح الجائعة الخربة تصرخ تطلب أسطورة. كم بالناس من شوق لما يخلصها من الألم، لما يخفف عذابها. والأسطورة هى نفس الشىء الذى تمنَّاه هو، ونفس الشىء الذى كم نتمنى ألا يتخلَّق – حياة رجل مقدس قديس – مع أن العظمة والقداسة التى فيه ركازها أنه «إنسان»، إنسان ذو جمال يصنع لنا العذاب والجنون، وإنه رجل بين الرجال. ويلوح لى أنى أناقض نفسى هنا، ولكن لا تبال بذلك. إنه رجل يبحث عن اللَّه، لا لنفسه ولكن للآخرين، حتى يتركونه هو فى هدوء، فى الصحراء التى اختارها. لقد أعطانا «الإنجيل»، ولكى يجعلنا ننسى ألوان الصراع الذى يحتدم فى باطن المسيح نفسه، بسَّط لنا صورة المسيح، وخفَّف

العناصر العدوانية فيه (في المسيح)؛ واستبدل بها «الطاعة لإرادة ذلك الذى أرسلنى»، وما من شىء يمكن أن يصبح أيسر قبولاً لدى الناس من «إنجيل» تولستوى، فهو أكثر ملائمة لعلل الشعب الروسى. كان ينبغى أن يعطَى هولاء الناس شيئًا ، لأنهم يشكون، وأناتهم تهز الأرض وتشتت الذهن البشرى، حتى لا يعود يفكر فى «الشىء العظيم» و «الحرب والسلام» وكل شىء على نهجها لا يصنع شيئًا يخفف أحزان الأرض الروسية النائحة ويأسها.

قال هو نفسه عن «الحرب والسلام»: «إذا خلينا جانبا التواضع الزائف، فهى إلياذة أخرى». وقد سمع م. ا. تشايكوفسكى من شفتى تولستوى ما يقرب من نفس هذا الإطراء لكتابيه «طفولتى»، «صباى».

أقبل بعض الصحفيين الآن فوراً من نابلى، وأحدهم حتى، جاء من روما. وهم يسألوننى عن رأيى فى «فرار» تولستوى - هكذا يسمون هم ما فعله - «فراراً». وقد رفضت أن أكلمهم. أنت تفهم طبعًا أن روحى فى قلق مروّع، لا أريد أن أرى تولستوى وقد قلبوه قديسًا. دعه يظل خاطئًا، قريبًا إلى قلب العالم الخاطئ، قريبًا للأبد إلى قلب كل منا. هو وبوشكين، فما من شىء أعظم ولا أعزّ علينا منهما...

مات ليوتولستوى.

وصلت برقية تفيد بكلمات عادية أنه مات.

كانت ضربة فى القلب، ولقد بكيت من الألم والحزن، والآن، وأنا فى حالة قريبة من الجنون، أتصوره، كما عرفته، كما رأيته، وأحس برغبة مكروبة فى أن أتحدث عنه. أتصوره فى تابوته راقدًا هناك كحجر أملس فى قاع جدول، وابتسامته المخادعة على وجهه لا شك - منفصلاً تمامًا عنا - ومختف فى هدوء تحت لحيته الرمادية، ويداه أخيرًا مضمومتان فى هدوء، فقد أكملتا شغلهما الشاق.

أذكر عينيه الحادتين - كانتا تريان من خلال أى شىء - وأصابعه، التى كانت تبدو دائمًا كأنها تصوغ شيئًا فى الهواء، وحديثه، ونكاته، وكلماته الريفية الحبيبة، وصوته اللامحدود فى نحو غريب. وأرى أى قدر من الحياة كان يشمله هذا الرجل، وكم كان حكيمًا حكمة تفوق كل قدرة بشرية، وكم كان مُفزعًا

أنا رأيته مرة كما لم يره أحد فيما أعتقد. كنت ماشيًا على شاطئ البحر قاصدًا جاسبرا حين لمحت فجأة، خارج ضيعة يوسوبوف مباشرة، وبين الصخور - لمحت هيكله الصغير النحيل، مرتديًا بدلة رمادية مهلهلة، وقبعة مهروسة. كان قاعدًا هناك، وذقنه مرتكزة على يديه، وشعرات لحيته مفلوتة من بين أصابعه، وهو يحملق فى البحر، بينما تتدحرج تحت أقدامه المويجات المخضرَّة فى خضوع وحنو، كأنها تروى قصتها للساحر العجوز. وكان اليوم منورًا لامعًا، وظلال السحب تزحف فوق الصخور، حتى ليضىء كل من العجوز والصخر على

التتابع، ويسقط عليهما الظل. والصخور كانت ضخمة وفيها شقوق عميقة مكسوَّة بأعشاب البحر الحريفة – فقد كانت هبت عاصفة هوجاء فى اليوم السابق. وبدا لى هو كصخرة عتيقة دبت فيها الحياة فجأة، فهى تعرف بداية كل الأشياء، وقصدها، وتتساءل: متى وكيف تكون نهاية الأحجار والعشب والأرض، والماء الذى فى المحيط، والإنسان، والعالم كله، ابتداء من الصخور إلى الشمس. كان البحر كبضعة من روحه، وكل شىء حوله قد انبثق منه، فهو بضعة منه. وهو جموده وإمعانه فى الأمل، يوحى بشىء نبوى، مسحور، عميق، فى الظلمة من تحته.. يختفى بحثًا عن شىء فى أعالى الفضاء الأزرق فوق الأرض، كأنما هو – بتركيز إرادته – هو الذى يدعو الأمواج، ويأمرها بالانصراف، ويوجه حركة الشمس، والظلال التى كانت يبدو أنها تزحزح الصخور وتوقظها. وعلى حين فجأة انتابنى شعور، فى لحظة خبل، بأنه سوف ينهض ويلوح بيده فيسكن البحر ويصبح زجاجيا، وتتحرك الصخور وتصرخ، وكل شىء حوله ستدب فيه الحياة، وكل شىء سينطلق صوته، كل شىء سيتكلم، بألسنة كثيرة، عن نفسه، وعنه، بين يديه. يستحيل علىَّ أن أصف فى كلمات ما أحسست به فى تلك اللحظة – لقد كان فى روحى وجْد ورعب. ثم انصهرت جميع أوهامى فى خاطر هانئ واحد:

«أنا لست يتيمًا فى هذا العالم، ما دام يسكنه هذا الرجل».

وعندئذ قفلت راجعًا وأنا حريص على ألا أحدث أى صوت على الحصى تحت قدمى، حتى لا أزعج تأملاته. والآن - أشعر بجد أنى يتيم، ودموعى تسقط وأنا أكتب - أنا لم أبك فى حياتى أبدًا بمثل هذا الغم، بمثل هذا اليأس، بمثل هذه المرارة. ولا أعرف حتى ما إذا كنت أحببته. ولكن ماذا يهمنى إن كنت أحببته، أو كنت كرهته؟ لقد كان دائمًا يثير العواطف فى روحى. ويثير بنفسى اهتياجًا بارحًا خياليًا. وحتى المشاعر غير السارة والمشاعر العدائية التى كان يوقظها فىّ كانت تتخذ أشكالاً لا تثقل على النفس، وإنما تتفجّر فى الروح توسِّعها وترهف حساسيتها، وتجعلها أعظم كفاءة وقدرة. كان مؤثرًا للغاية حين يظهر فجأة من خلف باب أو منحنى، بخطوٍ متغطرس مستبد، كأنه يدوس أرضًا مستوية يسويها بنعليه، ويتقدم من الواحد منا بخطى سريعة خفيفة قصيرة، خطى رجل اعتاد أن يتحرك على الدوام فوق سطح العالم، وإبهاماه مغروزان فى حزامه، ويتوقف لحظة، يلقى نظرة باحثة حواليه، نظرة تشمل كل شىء جديد، وتستوعب معناه فى الحال.

«كيف حالك؟».

وكنتُ دائمًا أفهم هاتين الكلمتين على الوجه التالى: «كيف حالك؟ أعرف أن هذه الكلمات لا تثير فى نفسى سرورًا كبيرًا. ولا معنى لها عندك؛ ولكن، رغم ذلك: كيف حالك!».

ويدخل رجل ضئيل، فيبدو كل شخص فى الحال أضأل منه حجمًا، وكانت لحيته الريفية، ويداه الخشنتان الشاذتان، وملابسه البسيطة، وكل تفاصيل مظهره الخارجى الديموقراطى الأنيق، تخدع كثيرًا من الناس، وفى الأغلب تخدع ذا الروح الروسية من البسطاء، وهذا الذى اعتاد أن يحيى الناس حسب ملابسها – وهى عادة عبودية قديمة – فينطلق يفيض فيضًا عاطرًا متدفقًا من «تلقاء نفسه»، أو بتعبير أدق «من مشاعر الإلفة فى نفسه».

«أوه، أيها الرجل العزيز! إذن فهذا أنت! أخيرًا أستطيع أن أمتلئ بالنظر إلى أعظم أبناء الوطن! تحياتى، تحياتى، تقبَّل طاعتى!».

وهذه طريقة أهل موسكو الروسية، وهى بسيطة وقلبية، ولكن ثمة أيضًا أسلوب روسى آخر – أسلوب «المفكرين الأحرار»:

«ليونيكولاييڤتش! رغم اختلافنا حول آرائك الفلسفية والدينية، فإنى، باحترام عميق للفنان العظيم فى شخصك...».

وعلى حين فجأة يبزغ من تحت اللحية الريفية، والدخان الديموقراطى المهلهل، ذلك الجنتلمان الروسى العجوز، الأرستقراطى الفخم؛ فتشمل ذوى الفطرة الصريحة، والمتعلمين والباقين قشعريرة لافحة، تجعل لونهم أزرق، وكانت تسرنى رؤية هذا الرجل ذى الدم النقى، وأن ألحظ نبالة ورشاقة إيماءاته، وتحفّظ الكبرياء فى حديثه؛ وأن أنصت للدِّقة الباهرة التى تضبط كلماته الهدامة. لقد كان فى

نفسه من خُلق السادة ما يكفيه ليُحكم معاملة العبيد، وعندما كانوا يوقظون في تولستوى خُلق السيد العظيم، كان يقبل إليهم فى يسر وخفة، يسحقهم حتى لا يستطيعون إلا التذلل والعويل.

ومرة سافرت مع أحد هؤلاء الروسيين «البسطاء» بعد لقاء له مع تولستوى. كنا مسافرين من بلدة ياسنايا بوليانا إلى موسكو؛ وقد لبث الرجل وقتًا طويلاً قبل أن يستعيد توازنه، وظل يكرر فى شرود، وبابتسامة تثير الرثاء:

«ياه، أى علقة! ألم يكن مفترسًا، بشرَفى!».

ثم صاح متحسراً:

«ياه، لقد ظننت أنه حقيقة فوضوى! فكل الناس لا تنقطع تدعوه بالفوضوىّ، وقد صدقتهم...».

وكان الرجل ثريًا، ومن كبار أصحاب الصناعة، وله كرش كبير ووجه سمين بلون اللحم النيِّئ؛ فلماذا يريد من تولستوى أن يكون فوضويا؟ هذا يظل واحداً من «الأسرار العميقة» للروح الروسية.

وكان بوسع تولستوى، حين يريد، أن يدخل السرور على قلوب الآخرين بأيسر مما تستطيع امرأة ذكية جميلة. إنه ليجلس وسط حلقة من مختلف الناس - الغراندوق نيكولاى ميخايلوفتش، والنقّاش إليا، وهو رجل اشتراكى ديموقراطى من يالتا، وباتسوك، وهو موسيقى

ومن جماعة الستنديين الدينية، وخولى الكونتيسة كلينميتشل، والشاعر بولجاكوف – وكلهم يحملقون فيه بأعين مفتونة، وهو يفسر لهم فلسفة لاو – تسى، فيبدو لى مثل أوركسترا عجيب من رجل واحد، موهوب بالقدرة على العزف على عدة آلات موسيقية في وقت معًا – نفير وطبلة، وأكورديون وفلوت. وأنا الآخر كنت أحملق فيه. والآن بى حنين إلى أن أحملق فيه مرة واحدة أخرى – ولن أراه ثانية أبدًا.

كان هنا صحفيون وهم يقولون إن برقية وردت من روما تنقض إشاعة وفاة تولستوى. وقد أحدثوا كثيرًا من الجلبة والثرثرة، وهم يعبّرون عن عطفهم على روسيا. ولكن الصحف الروسية حسمت كل شك.

كان من المحال أن يكذب أحد عليه – ولو بوازع الإشفاق. فهو قد يكون مريضًا في حالة خطرة، ولا يثير الشفقة. ومن الغفلة أن يشفق أحد على مثله. فمثله من ينبغى الاعتناء بهم وإعزازهم، ولكن تراب الكلمات البالية الجامدة لا ينبغى أن يُنثر عليهم.

كان يسأل: «أنا لا أعجبك أليس كذلك؟» وكان لا بد للإجابة أن تكون: «بلى أنت لا تعجبنى».

«أنت لا تحبنى أليس كذلك؟».

«أنا لا أحبك اليوم»

ويوجه أسئلته بلا رحمة، ويجيب أسئلة الآخرين في تحفّظ الرجل الحكيم.

وكان يتحدث عن الماضي في روعة، وأحسن ما يتحدث عنه: تورجنيف. ويذكر دائمًا «فت»، فيضحك ضحكة مرحة، ويتذكر شيئًا هزليا عنه. أما نكراسوف فقد كان يتحدث عنه في برود، وفي استرابة. ولكنه عمومًا كان يتحدث عن الكتاب كأنما هم أطفاله، وهو أبوهم الذي يعرف كل أوجه قصورهم، ولكنه قد صمم تصميماً متحديا على أن يعطي للجوانب السيئة فيهم وزنًا أكبر من الجوانب الحسنة.

وكلما تحدث عن أحد وحطَّ من قدره، كنت أشعر به كأنه يتفضل بالصدقات على سامعيه؛ وكان الإنصات لنقده يبلبل الخاطر، والمرء حينئذ لا يملك إلا أن يخفض عينيه تحت ابتسامته الحاذقة، ولا شيء بعد ذلك يلبث في ذاكرته.

كان يجادل مرة في عنف زاعمًا أن ج. ا. أوسبنسكي كتب بلهجة أهل «تولا»، وأنه لم يكن موهوبًا. ومع ذلك فقد قال عنه لتشيكوف في حضوري ذات مرة:

«إليك كاتبًا لتقرأه! فإنه بقوة صدقه يذكِّرنا بديستويفسكي، ولكن ديستويفسكي كان مغرمًا بتدبير المكائد والتظاهر، أما أوسبنسكي فهو أبسط منه وأشد إخلاصًا بكثير. إن كان مؤمنًا بالله، فهو بالتأكيد من المنشقين على نحو ما».

«ولكنك قلت إنه يكتب بلهجة تولا، وإنه لم يكن موهوباً».

فاختفت عيناه تحت حاجبيه الكثين، وقال:

«إن كتابته رديئة. هل تسمى هذه لغة؟ علامات الترقيم أكثر من الكلمات. الموهبة هى الحب. فالذى يحب هو الموهوب. حسبك أن تنظر إلى المحبين.. كلهم موهوبون».

وكان يتحدث عن ديستويفسكى بإحجام واضح، وفى جفاء، ويراوغ كأنه يحاول أن يتغلب على شىء ما. قال لى:

«كان يجب عليه أن يدرس عقائد كونفوشيوس والبوذيين، فهؤلاء كانوا ليهدّءونه. هذا هو الشىء العظيم الذى ينبغى لكل شخص أن يعرفه. لقد كان رجلا حسّيًا بشكل عنيف عندما يغضب، كانت الأورام تظهر فى البقعة الصلعاء فى رأسه، وأذناه ترجفان. كانت تعتريه مشاعر وافرة، ولكنه لم يكن يحسن التفكير، فقد تعلم التفكير عن «الاشتراكيين أتباع فورييه»، وعن بوتاشيفتش، وهذا الصنف من الناس. ثم كرههم طوال حياته. وكان يخالط دمه شىء يهودى. وهو عديم الثقة، مغرور، شرس، وتعس. والمضحك أن كثيراً جداً من الناس يقرءون كتبه، لا أستطيع أن أفهم لماذا يقرءونها. فمن الصعب، ومن العبث قراءتها، كل هؤلاء البلهاء والمراهقين، وأنماط راسكولينكوف وسائر أبطاله لم يكن منهم فى الواقع من هو على الصورة التى رسمها

له، فكل شيء كان في حقيقته أبسط وأقرب إلى الأفهام مما رسمه ديستويفسكي. قال لي: لماذا لا تقرأ الناس لسكوف الآن؟ إنه كاتب بحق - هل قرأت له؟».

«أوه، نعم، وأحببته، أحببت لغته بخاصة!».

«كان يجيد اللغة إجادة رائعة، ويستطيع أن يصنع أي شيء بها. يضحكني أنه يعجبك. إن فيك شيئًا غير روسي، أفكارك ليست أفكارًا روسية.. لا يثيرك ما أقول. أنت لست مستاءً، هه؟ أنا رجل هرم، وربما لم يعد في قدرتي أن أفهم الأدب الحديث، ولكن يبدو لي دائمًا أن هذا الأدب - على نحو ما - أدب غير روسي. الناس تكتب نوعًا عجيبًا من الأشعار، ولا أعرف أنا لأي غرض يكتبون هذه الأشعار، ولمن يكتبونها. يجب علينا أن نتعلم كتابة الشعر من بوشكين، وتيوتشيف، وشينشين (فت). وأنت الآن - واستدار لتشيكوف - أنت روسي. نعم، أنت روسي جدًا جدًا».

ووضع ذراعه حول كتف تشيكوف وابتسم له ابتسامة محبة، مما أوقع تشيكوف في حرج كبير، فشرع يتحدث عن بيته وعن التتار بصوت خفيض.

كان يحب تشيكوف، وعندما ينظر إليه تغدو نظرته حنونة غالبًا، كأنها تمسح برفق على وجه تشيكوف. وذات يوم كان تشيكوف يتمشى

فى أحد ممرات الحديقة مع ألكسندر لڤوڤنا [١]. وتولستوى - الذى كان حتى ذلك الحين قعيداً - جالسٌ فى كرسى وثير فى الڤاراندا، ويلوح عليه أنه سيخرج إلى تشيكوف بجماع نفسه.

قال بصوت خافت:

«أى رجل ساحر ظريف متواضع، وهادئ، كفتاة تماماً! بل هو يمشى أيضاً كفتاة. إنه رائع، باختصار!».

وذات مساء، قرأ لنا وقت الشفق مشهداً من «الأب سرجيوس»، وفيه تذهب المرأة إلى الناسك لتغويه. كان عابساً وحاجباه يرتعشان. قرأ الفصل من أوله لآخره، ثم رفع رأسه وأغمض عينيه، وقال فى وضوح:

«الرجل العجوز قد أحسن كتابة المشهد.. مشهد حسن جداً».

قال ذلك فى بساطة رائعة وفى صدق، وكان إعجابه بجمال كتابته، هو، صادقاً مثل هذا الصدق، حتى إننى لن أنسى كم استخفنى الطرب حينئذ! طربٌ لم أستطع أبداً أن أعبر عنه فى كلمات، وقد كلفنى إخفاؤه جهداً عظيماً. خيّل لى أن قلبى نفسه توقف، وفى اللحظة التالية خيل لى كأن كل شىء بدأ يستعيد حيويته، ونضارته، وجدّته.

---

(١) ابنة تولستوى.

إن سحر حديثه المتفرد، الذى يعز علىّ التعبير، عنه، والذى يمتلئ بالأخطاء فى ظاهره، ويكرر فيه باستمرار كلمات معينة، حديثه المشبع بسذاجة كسذاجة الفلاحين، لا يستطيع أن يفهمه إلا الذين يلاحظونه وهو يتحدث. وقوة كلماته لا تكمن فى طريقته فى تنغيمها، أو فى حيوية ملامحه فحسب، ولكنها تكمن أيضًا فى لعِب عينيه والتماعهما. إنهما أفصح عينين رأيتهما فى حياتى على الإطلاق. لقد كان تولستوى يملك ألف عين فى عينيه الاثنتين.

جلس سولر وتشيكوف وسرچى لڤوفتش وشخص رابع فى الحديقة يتحدثون عن النساء؛ وأنصت لهم تولستوى طويلاً فى سكون، ثم قال فجأة:

«سأقول الحق عن النساء عندما تصبح إحدى قدمى فى القبر. وبعدها سأقفز فى تابوتى وأحتمى تحت غطائه، فلتحاول إحداهن الإمساك بى عند ذاك!» ولمعت عيناه فى تحدٍّ على نحو مخيف، حتى إنهم سكتوا جميعًا عدة لحظات طويلة.

إنى لأرى فيه شخصًا جمع فى نفسه جسارة ڤاسيلى بوسلاييف، وشيئًا من روح الأب أڤاكوم العنيدة، بينما يختبئ فى نفسه - قبل هذا كله، أو فضلاً عنه - شكّ تشادابيف. فالذى فى نفسه من الأب أڤاكوم كان يعظ، ويضطهد روح الفنان فيه، أما الذى فى نفسه من ڤاسيلى بوسلاييف صعلوك نوفجورود، فقد كان يلفُظ دانتى وشكسبير

ويرفضهما، بينما يضحك ما فيه من تشادابيف من مسلّيات وعذابات الروح السالفة.

وكان الطبع الروسى التقليدى فيه هو الذى يجعله يرفق العلم ومبدأ قيام الدولة - الطبع الروسى الذى دفع به فشل المحاولات العديدة لبناء الحياة على أسس إنسانية - إلى الفوضوية السلبية.

وهنا شيء جدير بالملاحظة: لقد كشف أولاف جلبرانسون رسام الكاريكاتير فى مجلة سمبليسيسيموس (Simplicissimus) - كشف عن ملامح من بوسلاييف فى وجه تولستوى، بقوة حدسه. انظر إلي الرسم ودقق فيه النظر، وسترى أى شبه فيه من ليوتولستوى الحقيقى، وأى ذهن جسور يتطلع إليك من ذلك الوجه ذى العينين الغائرتين، ذهن رجل لا شيء عنده مقدس، ذهن ليس فيه خرافات أو عقائد من عقائد الكسالى.

هكذا أرى هذا الساحر، أمامى، غريبًا عن كل الناس، مسافراً وحده فوق صحارى الفكر هذه التى بحث فيها عبثًا عن الحقيقة الشاملة. أحملق فيه أنا، ورغم أن ألمى لفقدانه عظيم، فمشاعر الزهو بأنى قد رأيت هذا الرجل تخفف من ألمى وحزنى.

كان مشهد تولستوى بين أتباعه التولستويين غريبًا، فهو يقف وسطهم مثل برج أجراس الكنيسة المهيب، وأجراسه تدق دقة الجناز للعالم كله بلا انقطاع، بينما كل من حوله جراء صغيرة متلصصة تتواثب

وتعوى على نغمات الجرس، وينظر كل منهم للآخر فى استرابة كأنه يريد أن يرى أيهم أحسن من الآخرين عواء. شعرت دائمًا أن هؤلاء الناس كانوا يملأون البيت فى ياسنايا بوليانا، ويملأون بيت الكونتيسة بانينا بروح الرياء والجبن، والمساومة، وانتظار التركات. ويشبه التولستويون، على نحو ما، الحجاج الذين يعبرون روسيا من أقصاها إلى أقصاها، يحملون عظام الكلاب، ويذيعون أنها بقايا مخلَّفات مقدسة، ويتاجرون فى «الظلمة المصرية» وفى «دموع» أم الرب. أذكر أن واحداً من هؤلاء «الحواريين» رفض فى ياسنايا بوليانا أن يتناول بيضة من إشفاقه على الدجاجة، ورأيته يلتهم اللحم بالتوابل فى بوفيه محطة تولا، ويقول عن تولستوى:

«الولد العجوز يبالغ!».

ويسترسلون كلهم فى التنهد والتقبيل، ولكل منهم يدان بغير عظام وتنضحان بالعرق، وعينان مخاتلتان. وهم فى ذات الوقت عمليُّون يصرّفون شئونهم الدنيوية بغاية الشطارة.

وكان تولستوى طبعًا يقدِّرالتولستويين حق قدرهم، وكذلك كان يفعل سولر زتسكى الذى كان تولستوى يحبه فى حنان، وكان يتحدث عنه دائمًا بحماسة الشباب، وفى إعجاب. ذات يوم روى أحد الناس فى ياسنايا بوليانا كيف أصبحت حياته ميسِّرة، وروحه نقية منذ أن اعتنق عقائد تولستوى فانحنى تولستوى نحوى وقال بصوت خافت:

«إنه يكذب، الصعلوك، ولكنه يفعل ذلك ليسرُّنى».

وقد حاول كثيرون أن يدخلوا السرور على نفسه، ولكنى لم أشهد واحداً منهم يفعل ذلك بإتقان. وكان لا يحدِّثنى إلا نادراً فى الموضوعات التى اعتاد التحدث فيها - مثل موضوع النسيان الشامل، وحب المرء لجاره، والإنجيل، والبوذية؛ وذلك بعد أن تحقق فى البداية، كما اتضح لى من هذه الموضوعات «لا تناسب أمثالى». وقد قدّرت هذا منه تقديراً عميقًا.

إنه يستطيع أن يكون حصيفًا لدرجة ساحرة، وظريفًا، ورقيقًا حين يود ذلك، فيصبح لحديثه عندئذ بساطة ورشاقة خلابة، ولكن المرء ينفر أحيانًا من الإنصات له. وأنا لم تعجبنى أبداً طريقته فى الحديث عن النساء، ففى هذا الصدد كان يتحدث طويلاً كرجل الشارع، وتتخلل كلماته فى بعض الأحيان أصداء غير طبيعية، وشىء غير صادق، هو فى نفس الوقت شىء شخصى للغاية. كان كرجل أسىء إليه، لا يستطيع أن ينسى أو يغتفر الإهانة. وفى أول مساء تعارفنا فيه أخذنى إلى مكتبه - وكان ذلك فى خاموفنيكى - وأجلسنى أمامه وشرع يتحدث عن قصتى «فارنكا أوليسوفا» و«ستة وعشرون رجلا وامرأة». وقد أثارت نبرته كآبتى وتبلبلت للغاية، فقد حاول أن يقنعنى بطريقة ركيكة وقاسية بأن الحياء ليس خصلة طبيعية لصبية سليمة النفس.

«عندما تجتاز البنت الخمسة عشر عامًا من عمرها، وهى سليمة النفس، فهى تريد رجلاً ليقبلها ويجتذبها. إن عقلها يرتد أمام

ما لا يعرفه ولا يفهمه، وهذا هو ما يسميه الناس بالعفة والحياء. ولكن جسدها يكون قد عرف فعلاً أن هذا الذى لا تفهمه شىء لا مفر منه، ومشروع، فيطالب الجسد من الأول بتحقيق هذا القانون، برغم عقلها. أنت وصفت (فتاة قصتك) فارنكا أوليسوفا بأنها سليمة البدن، ومع ذلك فمشاعرها مشاعر مخلوق مصاب بالأنيميا. وهذا خطأ كله».

ثم بدأ يتحدث عن فتاة «ستة وعشرون رجلا وامرأة» ويتفوّه بالبذاءة تلو البذاءة فى بساطة أحسست أنها وحشية، بل وأغضبتنى. وقد أدركت بعد ذلك أنه يستخدم هذه الكلمات «الممنوعة» لمجرد أنه يراها أكثر دقة وسداداً، ولكنى نفرت من طريقته فى الحديث فى ذلك الوقت. ولم أعارضه أنا فيما قال، وفجأة صار طيبًا ومنصفًا، وأخذ يسألنى عن حياتى، ودراستى، وقراءتى.

«هل أنت قارئ جيد كما يقولون، صحيح؟ هل كورولنكو موسيقى؟».

«لا أظن ذلك. لا أعرف».

«ألا تعرف؟ هل تعجبك قصصه؟».

«جداً».

«هذا بسبب تناقضكما. فهو شاعر، وليس فيك أنت أى شاعرية. هل قرأت ويلتمان؟».

«نعم».

«كاتب مجيد، أليس كذلك؟ مشرق، دقيق، لا يبالغ أبدًا. وهو أحيانًا أحسن من جوجول. لقد درس بلزاك. جوجول كان يحاكى مارلنسكى، كما تعرف؟».

ولما قلت إن جوجول ربما قد تأثر بهوفمان، وستيرن، وربما بديكنز، أطلق علىَّ نظرته وقال:

«أنت فلاح حقيقى، وستشقى بين الكتاب، ولكن لا تدع أى شىء يخيفك، وقل رأيك دائمًا، لا يهم أن يكون رأيك خشنًا أحيانًا. الأذكياء سيفهمونك».

وكان لهذا اللقاء الأول تأثير مزدوج علىّ - كنت سعيدًا ومزهوًا بمقابلة تولستوى، وأحسست فى ذات الوقت أن حديثه أقرب إلى الاختبار الشخصى، وكأنى لم أقابل مؤلف «القوزاق»، و«خولستومر»، و«الحرب والسلام»، وإنما قابلت سيدًا قد تفضل على واعتبر من الضرورى أن يتحدث إلىَّ بطريقة شعبية، مستخدمًا لغة الشوارع، وهو ما قلبَ ظنى به، وقلب الفكرة التى كنت كونتها عنه، والتى كانت عزيزة علىّ.

ورأيته للمرة الثانية فى ياسنايا، ذات يوم معتم من أيام الخريف، مبلل برذاذ لطيف. كان تولستوى لابسًا عباءة ثقيلة وحذاء جلديًا طويلا يصلح للخوض فى الماء. وأخذنى لنتمشى فى أكمة لأشجار البتولا. وكان يقفز فوق الحفر والبِرَك برشاقة الشباب فتهتز الأغصان وتسقط

قطرات المطر فوق رأسه، وهو طيلة الوقت يروى لى، فى تفاصيل باهرة، كيف شرح شينشين (فت) فلسفة شوبنهور فى نفس أكمة البتولا تلك وكان يربت على جذوع البتولا الحريرية المبللة فى حب.

«قرأت بعض أشعار أخيرًا:

«لم يعد هناك نباتات عش الغراب، ولكن، كل التجاويف

معطرة برائحة عش الغراب الرطبة».

– إنها حسنة، ملاحظة حسنة جدًا».

وانطلق على حين غرة أرنب برى من تحت أقدامنا بالضبط. فقفز تولستوى وقد اهتاج اهتياجًا وحشيًا. وحال خداه قرمزيين، وأطلق صيحة عالية كأنه يحرّش كلابًا للصيد. ثم نظر إلىّ وعلى وجهه ابتسامة يعجز عنها كل وصف، وأطلق ضحكة حكيمة وإنسانية جدًا. لقد كان مثيرًا لكل إعجابى فى تلك اللحظة.

ومرة أخرى، كنا فى الحديقة، ورفع بصره إلى صقر يحلق فوق فناء المزرعة ويدور حوله، ثم يسكن بلا حراك متوازيًا فى السماء، وجناحاه يتحركان حركة خفيفة كأنه متردد فى أن ينقضّ الآن، أو ينتظر برهة. وانتبه تولستوى فى الحال، وظلل عينيه بكفه وهمس فى عصبية.

«الصعلوك يريد دجاجنا! انظر، انظر – الآن – أوه، إنه خائف! ربما كان الحوذى هناك – ينبغى أن ندعو الحوذى...».

ودعاه. فلما صاح، ذعر الصقر وفر بعيداً.

فتنهد تولستوى وقال يؤنب نفسه فى وضوح:

«ما كان يجب أن أصيح؛ لقد كان سيذهب من نفسه على أية حال...».

وكنت ذات مرة أحدثه عن تفليس، وذكرت له ف. ف. فليروفسكى بيرفى، فسألنى مشغوفًا:

«هل عرفته؟ قل لى شيئًا عنه».

قلت: إن فليروفسكى طويل، له لحية طويلة، ورفيعة، وعيناه واسعتان، يتسربل برداء طويل من قماش الفلوع، ويتعلق فى حزامة كيس صغير به أرز مغلىّ فى النبيذ الأحمر، ويحمل فى تجواله مظلة كبيرة من الخيش، وإننا ذرعنا معًا ممرات الجبال فيما وراء القوقاز حيث قابلنا مرة فى ممر ضيق ثوراً شكسًا أفلتنا منه بأن هددناه بالمظلة وهى مفتوحة ونحن نتراجع إلى الوراء مخاطرين بالسقوط فى الهاوية. وفجأة لاحظت الدموع فى عينى تولستوى، فتوقفت عن الكلام محرجًا.

«لا تهتم، استمر، استمر! إنه سرورى بالسماع عن رجل طيب، ليس إلا! أى رجل شائق كان هو، من غير شك! هكذا تصورته تماماً - ليس كالآخرين! فهو أنضج وأكثر حكمة من كل الكُتَّاب التقليديين،

وهو يطلعنا بمقدرة فائقة - فى (كتاب المطالعة) الذى ألّفه - على أن كل حضارتنا بربرية، بينما الثقافة مسألة تُعنى بها القبائل المسالمة، يُعنى بها الضعفاء، لا الأقوياء، وأن الصراع للبقاء أكذوبة اختُرعت لتبرير الآثام. أنت لا توافق على هذا. لا شك. ولكن «دودت» يوافق عليه؛ تذكر بطله (بول استير)».

«كيف يمكن لأحد أن يطبّق نظرية فليروفسكى على دور النورمانيين فى تاريخ أوروبا، مثلاً؟».

«أوه. النورمانيون! هذا شىء مختلف».

وعند ما لا تسعفه الإجابة، كان دائمًا يقول: «هذا شىء مختلف».

وكنت أشعر دائمًا - وأنا محق فيما أعتقد - أن تولستوى لم يكن يحب الحديث عن الأدب، ولكنه كان شغوفًا للحد الأقصى بشخصية الأديب. ولقد سمعته مرارًا يسأل: «هل تعرفه؟ كيف هو؟ أين ولد؟»، وتكاد مناقشاته أن تنحصر دائمًا فى حياة الأديب الخاصة.

قال عن ف. ج. كورولنكو، مفكرًا:

«هو أوكرانى، وعلى ذلك فلا بد أنه أقدر منا على أن يرى حياتنا. فهى أوضح فى عينيه مما هى فى عيوننا».

وقال عن تشيكوف، وكان يحبه بحنان:

«لقد أفسدَته مهنته، لو أنه لم يكن طبيبًا، لكتب أحسن مما فعل».

وقال عن أحد الكُتَّاب الناشئين:

«إنه يحاول أن يصطنع مظهر رجل إنجليزى؛ ولكن أهل موسكو لا يتقنون ذلك».

وقال لى مرارًا:

«أنت خيالى. وكوفالدا وسائر شخصياتك من اختراعك تمامًا».

فقلت له إن كوفالدا شخصية مأخوذة عن الحياة.

«قل لى أين قابلته؟».

وأنصت باستمتاع عظيم وأنا أصف مكتب كولونتابييف، ومحكمة السلام فى قازان، حيث قابلت لأول مرة الرجل الذى سميته كوفالدا.

«الدم الأزرق! الدم الأزرق - هو ذاك».

قالها ضاحكًا وهو يمسح عينيه.

«ولكنه ساحر ومسلٍّ؛ أنت تروى الحكايات أحسن مما تكتبها. أنت رومانتيكى، تعرف؟ - مخترع، اعترف بذلك أيضًا».

فقلت له: إن كل الكُتَّاب مخترعون على نحو ما، فهم يرسمون الناس على الصورة التى يحبون لهم أن يكونوا عليها فى الحقيقة. وقلت أيضًا إننى أحب الناس الإيجابيين، الناس الذين يطمحون لمقاومة الشر فى الحياة بكل قواهم، حتى بوسائل العنف.

فصاح وهو ممسك بذراعى:

«ولكن العنف نفسه هو أعظم الشرور. كيف ستروغ من ذلك يا ناسخ؟ خذ شخصية «رفيق سفرى» - إنها ليست مخترعة. وهى حسنة، لأنها غير مخترعة. وأنت إذا ما شرعت تخترع، فإن كل الناس تصبح عندك فرسانًا، وأبطالاً مثل أماديز وسيجفريد...».

فقلت إننا ما دمنا نضرب فى الحياة ونحن محوطون تمامًا «برفاق سفر» أشبه بالوحوش، ولا مفر منهم، فكل شىء نبنيه إنما ينبنى فوق الرمال فى بيئة معادية.

فأطلق ضحكة خافتة وهو يدفعنى بمرفقه.

«قد يفضى بنا هذا القول إلى نتيجة خطرة جدًا جدًا. أنت لست اشتراكيًا حقيقيًا! أنت رومانتيكى. وينبغى للرومانتيكيين أن يظلوا ملَكيين، كما كانوا دائمًا».

«وما قولك فى فيكتور هيجو؟».

«فيكتور هيجو يختلف. أنا لا أحبه، فهو رجل صخَّاب» .

وكان يسألنى دائمًا عما أقرأ، ويؤنبنى فى كل مرة على سوء اختيارى للكتب، فيقول:

«جيبون أسوأ من كوستوماروف، يجب أن تقرأ مومسن.. إنه ممل جدًا، ولكنه راسخ جدًا».

ولما علم أن أول كتاب قرأته هو «الإخوان زيمجانو» غضب جداً .

«هاك رواية حمقاء! هذا ما أفسدك. عندك ثلاثة كُتَّاب فرنسيين – ستاندال، وبلزاك، وفلوبير – وبوسعك أن تضيف إليهم موباسان، ولكن تشكيوف أحسن منهم جميعًا . أما الأخوان جونكور فمجرد بهلولين، وهما يتظاهران فقط بالجدِّية، وقد تعلمّا الحياة من قراءة كتب ألَّفها مخترعون مثلهما، وحسبوا أنها كتب جادة. ولكن لا حاجة بنا لما يكتبان».

ولم أوافقه، فأثاره هذا قليلاً. فهو لم يكن يطيق الاعتراض عليه، وكان يجادل أحيانًا بعناد غريب، كان يقول:

«ليس ثمة شيء اسمه الانحلال. فهذا مجرد شيء اخترعه لومبروز الإيطالى، وردده اليهودى نوردو كالببغاء. إيطاليا بلاد الدجالين والمغامرين – ولا تنجب غير أشخاص مثل أريتينوس، وكازانوفا، وكاليوسترو».

«وما قولك فى غاريبالدى؟».

«هذا فى السياسة. هذا يختلف».

وعندما يبسط له المرء الواقعة بعد الأخرى من تاريخ أسر التجار فى روسيا، كان يقول:

«هذه الوقائع ليست صحيحة، إنها مكتوبة فحسب فى كتب ماهرة...».

فرويت له قصة أجيال ثلاثة فى أسرة تجار أعرفها، وهى قصة تقترف فيها مباذل الانحلال فى غير رحمة، فأخذ يجذب كمى فى اهتياج، وأعلن:

«هذا صحيح! هذا أعرفه، وهناك أسرتان كهذه فى تولا. هذا ما ينبغى لك أن تكتب عنه. رواية عظيمة بالاختصار، أترى ما أقصد إليه؟ هكذا تكتبها!».

والتمعت عيناه فى تعطش:

«ولكنهم جميعًا سيتحولون عندى إلى فرسان يا تولستوى».

«دعك من هذا! أنا أتكلم بجد. واحد منهم يصبح راهبًا كى يصلِّى من أجل جميع أفراد الأسرة - هذا رائع. هذه هى الحياة الحقيقية. أنت تأثم، وأنا أذهب أكفّر عن آثامك. والآخرون - الشرِه السأمان - هذا حقيقى أيضًا، فبالنسبة له: أن يسكر ويصبح حيوانًا وداعرًا، ويحب كل شخص، ثم يُقتل فجأة، أليس هذا حسنًا! هذا ما ينبغى لك أن تكتب عنه، بدلاً من البحث عن بطل بين اللصوص والصعاليك. ليس الفرسان إلا أكاذيب.. ابتكارات، ليس هنا شىء غير البشر، الناس.. هذا كل شىء».

وقد لفت نظرى مرارًا لأمثلة من المغالاة تسللت إلى قصصى. ولكنه قال مرة، وهو يتحدث عن الجزء الثانى من «الأرواح الميتة»، ويبتسم فى طيبة:

«نحن جميعًا، على التحقيق، كُتَّاب حكايات خيالية، وأنا أيضًا، يبدأ المرء أحيانًا فى الكتابة، وعلى حين غرة، يعتريه الأسف على بعض الشخصيات «فيشرع يضفى عليها سجايا أحسن» أو يخفض من صوت شخصية أخرى حتى لا يبدو الأول، إذا قورن به، أسود حالكًا».

ثم أضاف على الفور فى نبرات قاسية، نبرات قاضٍ لا يرحم:

«ولهذا أقول إن الفن أكاذيب وخداع ومادة فلسفية ضارة بالإنسانية. فأنت لا تكتب عن الحياة كما هى، ولكن عن أفكارك أنت بصدد الحياة، ورأيك أنت فى الحياة. أى نفع للناس فى أن يعرفوا كيف أرى أنَا هذا البرج، أو البحر، أو ذلك التترى؟ ما حاجة الناس لمعرفة ذلك، وما نفعهم به؟».

كانت أفكاره ومشاعره تبدو لى أحيانًا كأنها شطحات، بل ومشوهة عن عمد، ولكنه ليدهش سامعيه فى الأغلب، ويفحمهم بالاستقامة الصارمة لأفكاره؛ مثله فى ذلك مثل أيوب الذى استجوب الله القاسى فى غير خوف.

قال مرة:

«كنت ماشيًا فى الطريق الموصِّل إلى كييف فى أواخر مايو؛ وكانت الأرض فردوسًا، وكل شىء بهيج، السماء لا سحب فيها، والطيور تغرد، والنحل يزن، والشمس دافئة في حنان، وكل شىء حولى إنسانى، باهر كأنه العيد. وقد تأثرت حتى دمعت عيناى، وأحسست كأنى نحلة

تحوم فوق أحلى الزهور فى العالم، وكأن اللّـه قريب من روحى. وفجأة؛ ماذا أرى؟ على حافة الطريق، تحت بعض الشجيرات، كان يرقد رجل وامرأة من الحجاج ملتصقين معًا، وكل منهما مرهق، قذر عجوز، يتلويان كالديدان، يهمهمان ويتمتمان، والشمس تضىء فى غير رحمة أقدامهما العارية التى لا لون لها، وجسديهما الخائرين. وشعرت بكربة فى القلب، آه، يا إلهى، يا خالق الجمال، ألست تخجل من نفسك؟! وأحسست بغمة.

«وها أنت ترى نوع الأشياء التى تحدث فى الواقع! الطبيعة - والبوجوميليون [1] يعتقدون أنها من خلق إبليس - تعذِّب الإنسان فى قسوة بالغة وبسخرية؛ تنتزع منه قوته، ولكنها تُبقى له شهواته. وهذا يصدق على كل ذى روح حية. والإنسان وحده قد أُعطى القدرة على أن يشعر بالخزى والارتياع من هذا العذاب - فى الجسد الذى أعطى إياه. ونحن نحتمل هذا الذى فينا كأنه بعض عقاب لا مفر منه، ولأية خطيئة العقاب؟».

وكان التعبير فى عينيه، خلال حديثه، يتغير بأسلوب عجيب، فهو مرة يعكس شكاية صبيانية، ومرة يرسل التماعًا قاسيًا جافًا. وكانت شفتاه تختلجان، وشاربه ينتفش. وعندما فرغ من كلامه، أخرج من جيب قميصه منديلاً ومسح وجهه بقوة، رغم أن وجهه كان جافًا تمامًا. ثم دفع بأصابعه التى تشبه الخطاطيف خلال لحيته. وعاد يقول برقة:

---

(١) طائفة دينية فى بلغاريا. (إيفى)

«نعم، لأية خطيئة؟».

وذات يوم، كنت ماشيًا معه فى الطريق الأسفل متجهين من ديولبر إلى أى – تودور، فقال وهو يخطو خطوات واسعة بخفة الشباب، ويلوح عليه اهتياج أعظم مما اعتدنا منه:

«ينبغى أن يكون الجسد للروح مثل كلب مدرب تدريبًا جيدًا، يذهب حيثما ترسله الروح. انظر إلينا! فالجسد مشاغب لا يهدأ، والروح تنقاد له فى عجز مثير للرثاء».

ومسح صدره فى عنف، فوق موضع القلب تمامًا، ورفع حاجبيه واستأنف الكلام فى تأمل.

«رأيت مرة بالقرب من برج سوخاريف بموسكو – وكان ذلك فى الخريف – صبيَّة سكرانة. كانت راقدة هناك فى مجرى المياه القذرة على جانب الشارع، وتتسرب قناة من الماء القذر خارجة من الفناء فتجرى تحت عنقها وظهرها مباشرة. وهى هناك، راقدة فى الماء البارد، تهمهم وتطأطئ رأسها وتتلوى فى البلل عاجزة عن النهوض».

وارتعش، وأغلق عينيه لحظة، وهز رأسه، واسترسل يتكلم بنبرات خفيضة:

«دعنا نجلس هنا. لا شىء مريع وكريه مثل أنثى سكرانة. كنت أريد أن أتقدم فأعينها على النهوض، ولكنى لم أستطع، فقد أثارت جَزَعى.

كانت نحيلة تمامًا ومبلولة؛ فلو أنك لمستها، لن تستطيع أن تنظف يديك قبل شهر.. مريع! وفوق حجر برطيل قريب، كان يجلس صبى ضئيل عيناه رماديتان، وشعره أشقر، ودموعه تجرى على خديه وهو يجهش بالبكاء ويصرخ ولا حيلة له:

«ما – ما – ما... انهضى».

«وكانت تحرك ذراعيها من حين لآخر، وترسل شخيراً، وترفع رأسها، ثم تسقط ثانية فى القذر».

وسكت، ثم نظر حواليه، وكرر فى ضيق، همس تقريباً:

«مريع. مريع! هل رأيت نساء كثيرات فى حالة سكر؟ لقد رأيت.. أوه. يا إلهى! لا تكتب عنهن. يجب ألا تفعل».

«لم لا؟».

فأجاب وهو ناظر فى عينى، مبتسم:

«لم لا؟».

ثم قال مفكرًا، وفى بطء:

«لا أعرف. لا شىء غير أنى – يبدو أنه من المخجل أن نكتب عن الحيوانية. ولكن على كل حال – لم لا؟ ينبغى أن يكتب المرء عن كل شىء...».

وتعلقت الدموع فى عينيه، فمسحها مبتسمًا طيلة الوقت. ونظر فى منديله، بينما عادت الدموع تسيل فى غضون وجهه، وقال:

«أنا أبكى، أنا رجل هرم، وقلبى يختلج حين أفكر فى شىء شنيع».

ثم دفعنى بمرفقه فى رقة:

«أنت أيضًا ستبلغ تمام العمر، فى حين يلبث كل شىء فى الحياة لا يتغير، وستبكى فى مرارة أكبر حتى من مرارة بكائى أنا، (وتشرُّ) عيناك كما تقول الفلاحات... ولكن ينبغى أن نكتب عن كل شىء، كل شىء، وإلا أسأنا للصبى الضئيل ذى الشعر الأشقر، وأنَّبنا هو وقال: ليست هذه كل الحقيقة».

واهتز كيانه كله وقال يلاطفنى:

«هيا الآن، قل لى شيئًا، أنت محدث بارع. ارو لى شيئًا عن طفل، أو عن نفسك. يصعب علىَّ أيضًا أن أصدق أنك أنت، كذلك، كنت طفلاً ذات مرة. فأنت فتى شاذ للغاية. وتبدو كأنك قد ولدت يافعًا. ففى أفكارك قدر كبير مما هو صبيانى وفج، ومع ذلك فأنت تعرف الكثير جدًا عن الحياة، ولا حاجة بك لأن تعرف أكثر مما عرفت. هيا، قل لى شيئًا ...».

وجلس مستريحًا على الجذور الظاهرة بشجرة صنوبر، يرقب هياج النمل وحركته فوق أوراق الصنوبر الرمادية.

وهنا فى الأراضى الجنوبية، التى تبدو فى أعين الشماليين مختلفة اختلافًا بيِّنًا عما ألفوه. وبين كل صنوف الترف الطبيعى هنا، وحياة النبات الفاجرة بلا حياء، كان يجلس ليوتولستوى، واسمه بالذات يدل على قوته الباطنية [١]! – رجل ضئيل، معقَّد مبرَّز كأنه بعضٌ من الجذور الأرضية الخشنة. وأكرر أنه فى محيط الطبيعة الزاهية فى القرم، كان تولستوى يبدو كأنه فى موضعه بالضبط، وفى غير محلِّه فى ذات الوقت. كان كرجل قديم جداً، وسيد لجميع أنحاء الريف، على ما هى عليه – السيد والحلاق، وقد عاد بعد غيبة مائة عام، عودة أَحكم حسابها بنفسه. وهناك أشياء كثيرة قد نسيها، وأشياء جديدة عليه؛ الأشياء باقية كما ينبغى لها أن تكون، تقريبًا.. ويجب عليه أن يكتشف فى الحال تلك الأشياء التى ليست على ما يرام، ويعرف لماذا هى كذلك.

فهو يروح ويجىء فى الممرات والطرقات مبتهجًا، متعجِّلا مسرعًا، كجواد خبير بأن يذرع الكرة الأرضية، وعيناه الحادتان، اللتان لا يفلت من نظرتهما حجر أو فكرة، تحملقان، تقيسان، تختبران، تضاهيان. وهو يبعثر حواليه البذور الحية لفكره المتدفق. قال لسولر ذات مرة:

---

(١) تعنى كلمتا ليوتولستوى فى الروسية: الأسد القوى. (إيڤى)

«أنت لا تقرأ أبداً يا سولر، وهذا سيء فوق الحد، وغرور. جوركى هنا يقرأ قدراً زائداً، وهذا خطأ أيضًا - وقلة ثقة بالنفس. وأنا أكتب كثيراً. وليس هذا من الصواب، لأنى أفعل ذلك من زهو الشيخوخة، ومن رغبتى فى أن أجعل كل شخص يفكر كما أفكر. إن طريقتى فى التفكير تناسبنى بالطبع، رغم أن جوركى يفكر فى أنها لا تناسبه، ولكنك أنت لا تفكر على الإطلاق. أنت لا تفعل إلا أن تطرف بعينيك، وتبحث حواليك عن شيء تتعلق به. وأنت تتعلق بأشياء لا علاقة لها بك - كثيراً ما فعلت ذلك. أنت تتعلق، وتتشبث بشيء ما، فإذا ما بدأ هذا الذى تتعلق به يهوى منك، تدعه يفلت. إن لتشيكوف قصة جيدة جداً - «الحبيبة» - وأنت تشبه بطلتها إلى حد ما».

وضحك سولر: «من أى ناحية؟».

«أنت على أهبة الاستعداد دائمًا لأن تحب، لا تدرى كيف تختار، وتبدد طاقتك فى الترّهات».

«ألا يفعل ذلك كل الناس؟».

«كل الناس!»، وكررها تولستوى: «لا، لا - ليس كل الناس».

وعلى حين غرة لطمنى:

«لماذا لا تؤمن أنت باللّه؟».

«ليس فى قلبى إيمان يا تولستوى».

«ليس هذا حقيقيًا. أنت مؤمن بطبعك، ولا يمكنك أن تعيش بدون اللَّه؛ سرعان ما ستشعر بذلك. أنت لا تؤمن لأنك عنيد، ولأنك متضايق - فالعالم ليس مشيداً على النحو الذى تحب له أن يكون عليه. وبعض الناس لا يؤمنون باللَّه من الحياء. الشبان لا يؤمنون لهذا السبب أحيانًا. هم يعبدون امرأة ما، ولكنهم لا يطيقون إظهار ذلك، ويخافون من أن يُساء فهمهم، وفضلاً عن ذلك فليست لهم الشجاعة. الإيمان، كالحب، يتطلب الشجاعة، والجرأة. يجب أن تقول لنفسك: «أنا أؤمن»، فيصبح كل شيء حسنًا عندئذ، وكل شيء سيبدو لك كما تحب له أن يكون؛ كل شيء سيفسِّر نفسه لك، ويجذبك، أنت تحب أشياء كثيرة، مثلاً، والإيمان بالاختصار تكثيف للحب، ويجب عليك أيضًا أن تحب أكثر مما تفعل، فيتحول الحب إلى إيمان. إن المرأة التى تحبها أحسن نساء العالم (فى نظرك)، وكل رجل يحب أحسن امرأة فى العالم، هاك.. فهذا هو الإيمان. وغير المؤمن لا يستطيع أن يحب. إنه يقع فى حب امرأة اليوم، وأخرى فى مدى سنة. ومثل هذا الرجل له روح متشردة، وعقيمة، وهو شيء غير سليم. أنت ولدت مؤمنًا ولا فائدة من أن تقاوم طبيعتك نفسها. أنت دائمًا تقول الجمال. فما الجمال؟ إنه فى أعلى وأتم صُوَره - اللَّه».

ولم يكن قد كلمنى فى هذه الأمور من قبل. وقد أخذتنى أهمية الموضوع، وعدم توقعى له، على غفلة منى، فكاد يغلبنى. ولم أقل شيئًا.

كان جالسًا على أريكة، وقد دفع بقدميه تحتها، وارتسمت على وجهه بسمة ظافرة تلصصت فوق لحيته، وقال وهو يلوِّح بأصبعه فى وجهى:

«ليس بوسعك أن تهرب من ذلك بالسكوت، كما تعرف».

فرميت أنا، غير المؤمن باللَّـه، نظرة مختلسة ويوشك أن يصبغها الحياء عليه، وقلت لنفسى:

«هذا الرجل يشبه الله».

صوفيا تولستايا

بعد أن فرغت من قراءة مقال مستر تشيرتكوف «انسحاب تولستوى»، قلت لنفسى: سيوجد شخص بالتأكيد ليكتب للصحف أن الغرض المباشر والوحيد لهذا المقال الملفق هو تلطيخ ذكرى المرحومة صوفيا أندرييفنا تولستايا.

ولكنى، على ما قرأت، لم أصادف مقالاً واحداً يلفت النظر، وله هذا القصد الشريف. وقد علمت الآن أن كتاباً آخر سوف يصدر، وهو مكتوب بنفس النية الحميدة (!) لإقناع الطائفة المتعلمة من المجتمع بأن زوجة ليوتولستوى كانت روحه الشريرة، كان ينبغى لاسمها الحقيقى أن يكون «إكسانتيب» [1]. ويتضح لى أن تأكيد هذه «الحقيقة» يعتبر فى غاية الأهمية، وجوهرى فى الحق، وبخاصة – فيما يبدو لى – بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الذين يعيشون روحيًا وماديًا، على الفضائح.

---

(١) زوجة سقراط. المشهور عنها أنها كانت تعذبه. (المترجم)

لقد اعتاد جاميروف، وهو ترزى من نيچينى - نوفجورود، أن يقول:

«يمكننا أن نصنع بدلة لتزيِّن الرجل، ويمكننا أن نصنعها لتشوِّهه».

والحقيقة التى تزيِّن كائنًا بشريًا يصفها الفنانون، أما سائر الناس كلهم فلا يستطيعون أكثر من أن يلفقوا «حقيقة» فى تسرّع، وبقدر ما فى وسعهم من المهارة، لكى يشوِّه أحدهم الآخر. وأظن أن كلا منا لا يكل عن مناوءة الآخر لأن المرء مرآة أخيه.

وأنا لم أذهب إلى حد تحقيق وزن هذه «الحقائق» التى كتبت بالقار على البوابات، طبقًا للعادة الروسية القديمة [1]، ولكنى أحس باضطرارى أن أقول بضعة كلمات عن الصديقة الوحيدة لليوتولستوى العظيم، كما أراها وأفهمها.

إن الشخص لا يصبح أحسن مما كان عليه بالطبع، لمجرد أنه مات. ويكفى لإثبات ذلك أن نلاحظ أننا نتحدث عن الأموات بنفس الوضاعة والقسوة التى نتحدث بها عن الأحياء. أما العظماء، هؤلاء الذين آبوا آخر الأمر إلى قبورهم بعد أن وقفوا علينا حياتهم، وكل قوة فى أرواحهم التى تصنع المعجزات؛ أما هؤلاء العظماء فنتحدث عنهم ونكتب، وكأن كل ما نريده هو أن نؤكد لأنفسنا أنهم، هم أيضًا، كانوا آثمين وتعساء مثلنا.

---

(١) عادة شعبية الغرض منها التشهير بالناس على أبواب بيوتهم. (المترجم)

وتبهجنا خطيئة الرجل الشريف، حتى لو كانت طارئة وتافهة جداً، أكثر مما يبهجنا عمل بطولى منزَّه عن الغرض ينهض بأدائه صعلوك، لأننا نرتاح ويملأنا السرور إذ نعتبر خطيئة الرجل الشريف تحقيقًا لقانون ثابت، بينما تزعجنا بطولة الصعلوك، إنها أُعجوبة، تندفع تهدد بالخطر فكرتنا المسلَّم بها عن الإنسان.

ونحن، بلا خلاف، نخفى فرحنا بخطيئة الرجل الشريف وراء عبارات أسف مرائية، كما نبتهج لبطولة الصعلوك مرائين، ويعترينا منها خوف خفى. فإذا كان الصعاليك، اللعنة عليهم، ليصبحوا شرفاء - فماذا علينا أن نفعل نحن، إذن؟

لقد كان عدلاً ما قيل من أن معظمنا «لا يبالون بالخير والشر إلى حد مخزٍ»، وأننا نرغب فى مواصلة الحياة على ما نحن عليه إلى آخر أيامنا، ومن ثم فالخير والشر فى الحقيقة يعكران صفونا، وكلما تحقق أىّ منهما بقوة أعظم، صارت نفوسنا أكثر انزعاجًا.

إن قلق الفقراء الروحى، الذى يثير الرثاء، يصيبنا نحن أيضًا. وبوسعنا أن نلاحظه فى موقفنا من النساء، ففى الأدب، كما فى الحياة، نصيح مزهوِّين: «المرأة الروسية أحسن النساء فى العالم».

وهذه الصيحة تذكرنى دائمًا بالباعة المتجولين وهم ينادون على الجمبرى: «جمبرى. كلها حية - أوه. جمبرى كبير».

ونلقى بالجمبرى حيًا فى الماء المغلى، ونضيف إليه الملح، والفلفل، وورق الغار، ونغليه حتى يحمرّ لونه. وثمة ما يشبه هذه العملية فى تناولنا لمسألة «أحسن» امرأة فى أوروبا.

ولكننا بعد اعترافنا بأن المرأة الروسية هى «أحسن النساء»، نبدو كأنا قد أصبنا بالفزع، فماذا إذا اتضح أنها أحسن منا؟ فكلما واتتنا الفرصة، نغرق نساءنا فى إناء غفلتنا الدهنية، الذى يغلى، ولا ننسى أبداً، للمناسبة أن نضيف إلى المرقة اثنتين أو ثلاثة من أوراق الغار. ومن المعروف جداً أنه كلما امتازت امرأة، ازددنا إصراراً على رغبتنا فى أن نجعلها تحمر خجلاً.

إن العفاريت فى الجحيم قد تتحول خضراء من الحسد إذا رأت الشطارة الاحتيالية التى نستطيع بها أن نلطِّخ بعضنا البعض.

إن الإنسان لا يصبح بعد موته أحسن مما كان، ولا أردأ مما كان، ولكنه يكفُّ عن التدخل فى شئوننا، فنضفى نحن عليه من جحودنا ومن امتناننا فى نفس الوقت.. نكافئه على ذلك بأن نسلمه فى الحال للنسيان، وهو بلا شك أحسن ما يمكن أن نصنعه لهؤلاء الذين يرهقوننا بالهموم، من غير لزوم إطلاقًا، بتلهفهم على إصلاح حال الناس، وجعْل الحياة أكثر إنسانية - أحسن شىء نصنعه لهؤلاء هو أن ننساهم.

ولكن هذه العادة الحسنة: نسيان الموتى، تنقضها أحقادنا الوضعية غالبًا، وشر هنا التعس لأن ننتقم، ورياء قانوننا الأخلاقى؛ والموقف الذى اتُّخذ من المرحومة صوفيا أندرييڤنا مثل صارخ على هذا.

أعتقد أنى أستطيع أن أتحدث عنها بنزاهة مطلقة، إذ إنى لم أحبها أبدًا، ولم أحظ برعايتها، ولم تكن تخفى مشاعرها عنى، إذ إنها كانت صريحة جدًا. كان فى موقفها الخيالى شىء مسىء لى دائمًا. ولكنى لم أغضب منها لمعرفتى أنها كانت تعتبر معظم المحيطين بالشهيد العظيم الذى كان زوجها، ذبابًا، بعوضًا، هم باختصار - طفيليات.

ويحتمل أن غيْرتها كانت تكدر ليو تولستوى، وأن من المازحين من لن يفوته أن يذكر فى هذا الصدد حكاية الدبة التى أشفقت على الرجل الراقد تحت الشجرة لينام، ورأت أن تطرد الذباب الذى يطن حوله، فهوت بمخلبها الثقيل بضربة قتلت النائم[1]. ولكن هؤلاء يصبحون أكثر لباقة وحكمة أن يتذكروا كثافة وحجم سحابة الذباب التى كانت تطن حول الكاتب العظيم، والإزعاج الذى أحدثته هذه الطفيليات التى كانت تتغذى على روحه. وكانت كل حشرة تجتهد أن تترك أثرها فى حياة وذاكرة تولستوى، وبينهم من ثابر على ذلك إلى حد أنه كان ليثير كراهية القديس فرانسيس أسيسى[2] نفسه. فالعداء الذى كانت تكنُّه لهم

---

(١) هذه القصة استخدمها الشاعر المشهور كريلوف فى قصة شعرية له؛ وهى محبوبة جدًا فى روسيا، حتى إن عبارة «أن يصنع المرء للآخر خدمة الدب» أصبحت بعضًا من الحديث اليومى بشكل أكثر ذيوعًا من العبارة الإنجليزية «أن يتفضل المرء بنعمة مشكوك فى نتائجها». (إيفى)

(٢) مؤسس طوائف الفرنسيسكان، وكان يحب الحيوانات حبا عظيمًا. (المترجم)

امرأة مثل صوفيا أندرييفنا كان طبيعيًا جدًا. وقد كان ليو تولستوى نفسه، مثل الفنانين العظام، لطيفًا مع بنى جنسه. وكانت له مقاييسه الخاصة التى يزن بها الآخرين. وهى مقاييس ذاتية جدًا، وتقصُر غالبًا عن أن تتمشى مع القيم الأخلاقية المتواضع عليها. ففى مذكراته لسنة ١٨٨٢م كتب عن أحد معارفه:

«لولا حبه للكلاب لكان وغدًا زنيمًا».

ومنذ زمن يرجع إلى الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر، كانت زوجته قد اقتنعت بأن مودة بعض قطيع المعجبين و«التلاميذ» لم تجلب عليه غير الانقباض والكدر. وكانت تعرف بالطبع كل شىء عن المهازل الشائنة والمحزنة التى تجرى فى المستعمرات «التولستوية»، ومنها على سبيل المثال، تلك المهزلة التى وقعت فى مستعمرة سيمبيرك (التابعة لآرخانجيلسكى)، والتى انتهت بانتحار بنت فلاحة، ثم سرعان ما تردد صداها فى القصة الفاضحة التى كتبها «كارونين» بعنوان «مستعمرة بورسكايا».

وكانت تعلم عن عمليات «التشهير برياء الكونت تولستوى» العلنية المقرفة، التى كانت تقدَّم تحت رعاية التولستويين المرتدين، مثل «إلين» مؤلفة «يوميات التولستويين»، وهو كتاب ينم عن خبث هستيرى، وقد قرأت مقالات نوفوسيولوف، تلميذ ليو تولستوى السابق، ومؤسس إحدى المستعمرات؛ وهى مقالات نشرت فى «المجلة الأرثوذكسية»، لسان حال مجاهدى الكنيسة – مجلة متزمتة كقسم البوليس.

وربما كانت تعلم أيضًا عن المحاضرة التى ألقاها البروفيسير چوسيف من أكاديمية قازان الإكليريكية، وكان واحداً من أكثر المثابرين على عرض «هرطقات افتتان الكونت تولستوى بنفسه». وقد أعلن البروفيسير فى محاضرته، ضمن أشياء أخرى، أنه استقى معلوماته عن الحياة العائلية «لحكيم ياسنايا بوليانا الكاذب» من أشخاص كانت قد يهرهنهم هرطقاته المضطرية.

ورأت منشيكوف بين المعجبين المتحمسين لتعاليم زوجها، وقد حشا كتابه «عن الحب» بأفكار لتولستوى، ثم سرعان ما أصبح شكسًا متعصبًا، وشرع يكتب لصحيفة «العصر الحديث»، وكان واحدًا من أبرز المُبغضين للبشر، الذين يبذلون مواهبهم بصخب شديد فى هذه الصحيفة الفاسدة.

لقد رأت كثيرين من هذا الصنف، وضمنهم الشاعر العصامى بولجا كوف، الذى كان تولستوى يحتفى به، ونشر له أشعاره الفجة فى مجلة «الفكر الروسى»، فما كان من الشويعر شبه الأميّ، المريض، ذى الحساسية السوداوية، إلا أن أبدى عرفانه بالجميل بكتابة مقال وسخ عنوانه: «فى بيت تولستوى. خطاب مفتوح إلى ليونيكولاييڤتش». وكان المقال ركيكًا وكاذبًا، وأميّا إلى حد أنه لم يستطع أن يعثر على أحد ينشره له، وأعيد له المخطوط من مكتب تحرير «أخبار موسكو»، وعلى هامشه تعليق يقول: «مرفوض بسبب فظاظته المفرطة». فأرسل بولجا كوف بنفسه المخطوط وعليه التعليق إلى تولستوى، يطلب منه

العمل على نشره، إذ إنه يجب على تولستوى أن ينشر «الحقيقة عن نفسه!».

ولا شك أن حادث التولستوى سيئ السمعة، بولانجر قد سبب لصوفيا أندرييڤنا ألمًا غير قليل. وكل هذه الحوادث، طبعًا، لم تستنفد الغلظة، والرياء، والنفعية التى كانت تراها فى هؤلاء المقول بأنهم أتباع ليو تولستوى.

ومن ثم، فريبتها الشديدة فى المعجبين وأتباع زوجها يمكن فهمها تمامًا. والحقائق تبرر تمامًا جهدها الذى بذلته لطرد الطفيليات عن رجل كان عملاقًا خلاقًا، وقد برحت به صنوف الصراع الروحى التى كانت تشهدها بنفسها، وتفهمها. ولا ريب أن تولستوى بفضلها قد نجى من كثير من رفسات الحمير، ولم يصل إليه كثير من الطين والبصاق.

وينبغى ألا تنسى أن كل متبطل تقريبًا ممن يعرفون القراءة والكتابة – خلال الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر – كان يعتبر نفسه مكلفًا بفضح الأغلاط الدينية والفلسفية والاجتماعية وغيرها التى وقع فيها العبقرى العالمى العظيم. وكانت صنوف التشهير هذه تلقى قبولاً حتى عند ذوى القلوب الساذجة – ومن ذا يستطيع أن ينسى السيدة العجوز العزيزة التى أضافت وقوداً للنار المشتعلة تحت الشهيد چان هوز؟

وأستطيع أن أرى مالومير كوف الحلوانى، كأن ذلك حدث بالأمس فقط، وهو واقف أمام إناء كبير يغلى به سائل الكراملة، وأستطيع

أن أسمع بوضوح كلمات صانع الحلوى والكعك هذا، وهو يقول متأملاً:

«إذا كنت فقط أستطيع أن أسلق هذا الثعبان السأمان الهرطيق تولستوى...».

وكتب حلاق من تساريتسين مقالاً تحت عنوان: «الكونت تولستوى، والأنبياء المقدسين»، ما لم أكن مخطئًا. وكتب قسيس محلى بخط منمق وبحبر بنفسجى على الصفحة الأولى من مقال الحلاق الخطى هذه الكلمات:

«أوافق كلية على هذا المقال مع تخليص بعض العبارات الفظة من الحنق الذى فيها، وهو حنق ليس فيه أى تجنى على كل حال».

وقد حصل صديقى عامل التلغراف يورين، وكان أحدب ذكيًا، على المخطوط من مؤلفه لنقرأه، وذهلت أنا للحقد الوحشى الذى يكنه الحلاق للرجل الذى ألف «بوليكوشكا» و«القوازق» و«معتقداتى» و«حكاية الإخوة الثلاثة» أيضًا - وهى الكتب التى كنت فرغت لفورى من قراءتها لأول مرة على ما أظن. وكان عجوز أعرج، قوزاقى من «لوج» يجوب إقليم «ستانيتساس» فى ريف نهر الدون، ومحطات جريازى - تساريتسين، وسكك حديد الدون - الفولجا، معلنًا أن «الكونت تولستوى يثير ثورة فى منطقة موسكو ضد الدين وضد القيصر، وأنه انتزع الأرض من بعض الفلاحين ليعطيها بعض موظفى البريد من أقاربه».

ولا بد أن إصداء هذه الصيحات الجاهلة، التى ما أثارها إلا الصوت المرتفع لروح العبقرى المضطربة، قد وصلت إلى ياسنايا بوليانا. ولكن هذا لم يكن الشىء الوحيد الذى جعل من الحلقة التاسعة للقرن التاسع عشر أقصى حقبة فى حياة صوفيا أندرييڤنا. وإنى لأعتبر الدور الذى قامت به خلال هذه الفترة يقصُر قليلاً عن أن يكون بطوليًا. لا شك أنها كانت تملك قدرًا عظيمًا من قوة الروح واليقظة حتى تستطيع أن تحمى ليو تولستوى من فيض الشرور والتفاهة، ومن قدر عظيم مما ينبغى ألا يعرفه هو، وألا يعرفه أى شخص آخر، فربما كانت معرفته بكل هذا تؤثر فى موقفه من الآخرين.

إن أحسن وسيلة لقتل النميمة والشر هى السكوت.

إذا نحن لاحظنا حياة المدرِّسين بعين غير متحيزة، لرأينا أنهم ليسوا وحدهم الذين يفسدون تلاميذهم، كما يعتقد الناس بشكل عام، ولكن التلاميذ أنفسهم أيضًا يعرضون مكانة معلميهم للهوان – بعضهم يفعل ذلك من بلادته، وبعضهم على سبيل التباهى، والبعض يستوعبون تعاليم معلميهم بطريقة هزلية. ولم يكن ليو تولستوى أبدًا بالرجل غير المبالى بآيات التقدير التى تخلع على حياته وعمله.

وأخيرًا، فإن زوجته بلا شك لم تنس أبدًا أن تولستوى مقيم فى بلاد يمكن أن يقع فيها أى شىء، فالحكومة تستطيع أن تسجن رعاياها بلا محاكمة وتبقيهم فى السجن عشرين عامًا. وقد حدث بالفعل

أن قضى القسيس الهرطيق زولوتنتسكى ثلاثين عامًا فى سجن دير سوزدال، حتى وهنت قواه، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن فقد عقله تمامًا.

* * *

الفنان لا يبحث عن الحقيقة، بل يخلقها.

لا أعتقد أن ليو تولستوى كانت تكفيه الحقيقة التى يعظ بها الناس. لقد كان يسكن فى نفسه نمطان أساسيان للعقل، فى صراع مضنى، ربما – عقل الفنان الخالق، والعقل الشكاك للمحقق. وقد يكون مؤلف «الحرب والسلام» استقر به التفكير، وقدم للعالم عقائده الدينية لمجرد أن يمنع الناس من التدخل فى عمله كفنان، وهو عمل يقتضى الدقة وبذل الجهد. ويمكن جداً أن يكون تولستوى الفنان اللماح يرقب تولستوى الواعظ مبتسمًا له ابتسامة سمحة متغاضية، ويعتبره ضعيف العقل بشكل يدعو للسخرية. ففى «يوميات شبابه» إشارات صريحة لموقفه العدائى من الفكر التحليلى. وفى مدخل يومية ٢٢ مارس سنة ١٨٥٢ كتب:

«يمكن لعدد كبير جداً من الأفكار أن يوجد فى ذات الوقت، خاصة إذا كان الرأس فارغًا».

فالواضح أن «الأفكار»، حتى فى هذه السن المبكرة، كانت تقف فى طريق الخلق الفنى الذى كان يهتف به قلبه وعقله. وفى ثورة الأفكار

هذه ضد صبابته اللاشعورية بالفن، في هذا الصراع من أجل السلطان بين هاتين القوتين العنصريتين فيه، نستطيع أن نتلمس تفسيراً للكلمات الآتية:

«الوعى هو أعظم الشرور التى ابتلى بها الإنسان».

وقد كتب فى خطاب إلى أرسينييفا:

«الذكاء، إذا زاد عن الحد، كان شنيعًا».

ولكن الأفكار تفوَّقت عليه، وأرغمته على أن يجمعها، ويصل بينها بشكل من أشكال المنهج الفلسفى. واجتهد خلال ثلاثين عامًا، لينجز ذلك. وقد رأينا كيف أن هذا الجهد قاد الفنان العظيم إلى أن ينكر الفن نفسه، رغم أن الفن كان بلا شك هو العمود الفقرى لروحه.

وكتب قبل موته بأيام قليلة:

«قد أحسست إحساسًا صاخبًا بخطيئة وإغواء فن الكتابة - وأدنت الآخرين بها، وطبقت الإدانة، عادلاً، على نفسى».

لم يكن فى تاريخ الإنسان حالة محزنة كهذه أبدًا. وإنى على الأقل لا أذكر فنانًا عظيمًا آخر انتهى إلى الاقتناع بأن الفن، أجلَّ ما صنع الإنسان، خطيئة.

بالاختصار: كان ليو تولستوى أعقد عظماء الناس تركيبًا فى القرن التاسع عشر. وكان دور صديقته المقرَّبة، زوجته، وأم أبنائه الكثيرين،

وسيدة بيته، شاقا وثقيلاً بالمسئولية معًا من غير شك. يكاد يكون من المستحيل إنكار أن صوفيا أندرييڤنا رأت وشعرت، فى عمق، أكثر من أى شخص آخر، بالعناء الذى يلاقيه رجل عبقرى وهو يتنفس جو الحياة العادية اللاصق به، المتشنج، وحين يتصل بأشخاص ذوى تفكير ضحل. وهى فى نفس الوقت، على أية حال، لم تكن تقصر عن أن ترى وتفهم أن الفنان العظيم يكون عظيمًا بحق حين يستطيع أن يشتغل بمهارة إلهية وفى خفية، شغلة روحه، فى حين يفقد أعصابه حين يلعب لعبة المفاضلة - ويحتار - مثل كل الناس، بل ويستسلم أحيانًا لغضب غير معقول، فينسب أخطاءه لشريكته، تمامًا كما يفعل الناس العاديين، وكما تفعل هى، لا شك.

ولم تكن صوفيا أندرييڤنا هى الشخص الوحيد الذى لا يفهم لماذا ينبغى للروائى العظيم أن يحرث الأرض، ويبنى أفرانًا، ويصنع أحذية. فقد فشل كثيرون من معاصرى تولستوى أيضًا فى فهم هذا، ولكنهم كانوا يستمتعون، ليس إلا، بهذه العجيبة من العجائب، بينما أقحمت هذه الأعمال عواطف أخرى على نفس صوفيا. وهى بلا شك كانت تذكر أن روسيا من المروجين للعدمية، هو مؤلف الكتاب المسلى «أبولون فى تيانا»، أعلن أن:

«الأحذية أعظم من شكسبير».

ولا بد أن حزنًا لا حد له كان يملأ قلبها، أكثر مما يملأ أى قلب آخر، حين تلحظ هذا الاشتراك فى الرأى، الذى لم يكن فى الحسبان، بين مؤلف «الحرب والسلام» ونبىٍّ العدمية.

ولا يقدر كل شخص على فهم وعلى تقدير ألوان القلق التى تضطرب بها الحياة مع مؤلف يصرّ على كتابة المسودة سبع مرات، وعلى أن يكتب الكتاب كله من الأول كلما قرأه من جديد، وهو نفسه معذَّب، يعذِّب الآخرين بالحياة معه.. مع خالق عالم كامل وسيع أوْجده بنفسه.

لا يعرف أحد ما كانت تقوله زوجة ليو تولستوى له، ولا كيف تعبِّر عن ذات نفسها حين تنفرد به وتنصت للمرة الأولى للفصول التى فرغ من كتابتها حديثًا. إنى لا أنسى للحظة واحدة، حدة ذهن الرجل العبقرى غير العادية، غير أنى لا يسعنى إلا الظن بأنها اقترحت عليه ملامح معينة للشخصيات النسائية فى روايته الرائعة، فهى ملامح لا يمكن أن تعرفها إلا امرأة.

وربما ما ولدنا جميعًا وكل منا معلّم للآخر، إلا بقصد أن يصبح نسيج الحياة المعقد أكثر تعقيدًا. ولا يزال أمامى، حتى اليوم، أن أقابل رجلاً واحدًا منزّهًا تمامًا عن الرغبة الفضولية فى أن يعلّم جاره. ورغم ما قيل لى من أن هذه الرذيلة لازمة لغايات التطور الاجتماعى، فإنى أظن مخلصًا أن التطور الاجتماعى سيجرى فى سرعة أعظم، وعلى أسس أكثر إنسانية، وأن الناس ستصبح أقل محافظة بكثير، إذا اقتصدوا فى التعليم وأقبلوا على التعلم.

كانت «الأفكار» التحليلية تحكم قبضتها على القلب العظيم للفنان ليو تولستوى، وترغمه آخر الأمر على أن يقوم بالدور الباهظ العاق، دور «معلم الحياة». وقد أشرت مراراً إلى التأثير الوبيل الذى كان هذا الدور يرزأ به عمل الفنان. وفى رأيى أن «الفلسفة» كانت لترجح الفن فى رواية تولستوى التاريخية العظيمة لولا التأثير النسوى الذى يمكن الشعور به خلال الرواية كلها.

وربما كان إيحاء من امرأة هو الذى جعل القسم الفلسفى فى «الحرب والسلام» يقتصر على نهاية الرواية، فالنهاية لا سبيل إلى التأثير فيها على أى شىء أو أى شخص.

يجب علينا أن نحمد النساء لأنهن حين يلدن الفلاسفة لا تعنيهن الفلسفة أبداً. إن الفن نفسه يستوعب قدراً كبيراً من الفسلفة. ومَلَكة الفنان تيسّر له أن يضع الفكر العارى فى صور جميلة، ويخفى فى مهارة عجز الفلاسفة المثير للرثاء حين تجابههم أُحجية من أحاجى الحياة. وإنا لنعطى الأطفال الحبات المريرة دائمًا فى لفائف جميلة - وهذا مصدره العقل والرحمة معًا.

«السبب فى أن الرب قد خلق العالم خلقًا رديئًا، هو أنه كان أعزب».

إن هذه العبارة ليست مجرد تهكم رجل ملحد؛ هذه الكلمات تعبر عن اقتناع لا يتزعزع بأهمية المرأة كباعث على الفن ومنسّقة للحياة. إن أسطورة سقوط آدم لا تزال تحتفظ بمعنى عميق - معناها أن العالم

يدين بكل سعادة لفضول المرأة الحماسى. فى حين أن سبب الشقاء فى العالم هو الحماقة الجماعية للبشر، بما فيهم النساء.

«الحب والجوع يحكمان العالم» - هذه أكثر الشعارات نصيبًا من الحقيقة والتناسب، كشعار للتاريخ اللانهائى لشقاء الإنسان. ولكن حيث يحكم الحب، فنحن، الذين لبثنا إلى عهد قريب حيوانات متوحشة، نتخذ الثقافة، والفن، وكل ما هو عظيم ومثار فخرنا بحق. وحيث يحكم الجوع أفعالنا نقيم المدنيّة وكل ما يتبعها من صنوف الشقاء، وكل القيود والأعباء اللازمة جداً لكبح مخلوقات كانت إلى عهد قريب حيوانات متوحشة.

وإن أفظع وجه للغباوة هو الجشع - خصلة حيوانية. فلو أن الناس لم تكن بهذا الجشع، ما أصبحوا على مثل هذا الجوع، ولأصبحوا أكثر حكمة. وليس فى هذا تناقض. فالواضح جداً، رغم كل شىء، أننا - إذا ما تعلمنا أن نتقاسم فضلتنا، التى لا تزيد حياتنا إلا أعباء، فسيصبح العالم أسعد حالا، وسكانه أكثر حصافة. ولكن ما من أحد غير الفنانين يهب العالم كل كنوز روحه، وهو مثل الآخرين يتغذى عليه الدود بعد الموت. ويتغذى عليه أثناء حياته النقاد ودعاة الأخلاق، إذ يلتصقون بجلده التصاق الطفيليات بلحاء شجرة الفاكهة.

إن دور الحية فى جنة عدن قام بتمثيله الشبق الذى خضع له ليو تولستوى عن طيب خاطر، بل وقام على خدمته فى جد. أنا لم أنس

أنه ألَّف «سوناتا كرويتزر»، ولكنى أتذكر أيضًا ما قاله ا. ب. بولشاكوف التاجر فى نيچينى - نوفجورود، والذى يبلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة، قال وهو يرقب التلميذات فى الشارع من شباكه، ويتنهد:

«أوه، لماذا أهرم هكذا مبكرًا؟ انظر إلى كل هؤلاء البنات الصغيرات، أنهن لا يصلحن لى، ولا يثرن فىَّ سوى العبوس والحسد؟».

أنا على ثقة بأنى لن ألوث الصورة الحية للكاتب العظيم، إذا قلت إن المرء لا يملك إلا أن يشعر بمثل هذا الحنق الطبيعى والمشروع فى قصة «سوناتا كرويتزر». لقد كان ليوتولستوى نفسه يشكو من سخرية الطبيعة التى لا تخجل من نفسها - تستلب قوانا، وتترك لنا مع ذلك شهواتنا.

ولا بد أن يضع المرء فى اعتباره أنه رغم طبيعة هذا الفنان العاطفية المشبوبة، فلم تكن غير صوفيا أندرييڤنا امرأة فى حياته لخمسين عامًا تقريبًا. كانت صديقته المقربة، المخلصة، والصديقة الحقيقية الوحيدة فيما أظن.

وكان تولستوى، من كرم روحه العظيم، يدعو كثيرًا من الناس بأصدقائه، ولكنهم كانوا فى الحق مجرد عاطفين على أفكاره. ولعلك توافقنى على أنه من الصعب أن نظن بأحد أنه جدير بصداقة تولستوى.

إن مجرد رفقتها الطويلة الوثيقة وغير المنقطعة، مع ليوتولستوى كفل لصوفيا أندرييڤنا احترام كل المعجبين بأدب الرجل العبقرى

وبذكراه، الصادقين منهم والمرائين. ولهذا السبب فحسب يجب على هؤلاء المحترمين الذين يحققون «تراچيديا تولستوى العائلية»، أن يلزموا الصمت ويكبحوا جماح ألسنتهم الخبيثة، وأن ينسوا مشاعرهم الشخصية الضيقة بالغضب ورغبة الانتقام، وأن يكفُّوا عن هذه «الأبحاث السيكولوچية» التي يقومون بها، وهى أشبه بالعمل القذر الذى يقوم به رجال البوليس السرى، وأن يوفروا جهودهم الماكرة الوقحة التى يقصدون بها المساس بحياة الكاتب العظيم، حتى ولو بأطراف أصابعهم. وفى مذكراتى عن الأيام السعيدة، التى تشرفت فيها أعظم الشرف بمعرفة ليوتولستوى، تعمَّدت ألا أكتب شيئًا عن صوفيا أندرييڤنا. إننى لم أكن أحبها أبدًا. وقد أحسست أن بنفسها رغبة غيورة مجهدة متوترة توترًا مؤلمًا، فى أن تؤكد دورها فى حياة زوجها، وهو دور عظيم من غير شك. وكانت تذكرنى على نحو ما برجل يعرض على الناس أسدًا عجوزًا فى سيرك ريفى، ويُفزع الجمهور عامدًا بأن يعرض عليهم قوة الوحش، حتى يبرهن لهم على أنه، وهو المروّض، هو الشخص الوحيد فى العالم الذى يحظى بحب الأسد وطاعته. وفى ظنى أن صوفيا أندرييڤنا لم تكن بحاجة للبرهنة على ذلك. وكانت براهينها التى تتخذ شكل المظاهرات مضحكة أحيانًا، بل وماسة بهيبتها. وفضلاً عن ذلك، فهى لم تكن بحاجة إلى أن تؤكد دورها، إذ لم يكن بين كل الذين يحيطون بليوتولستوى فى ذلك الوقت من يضاهيها فى ذكائها وحيويتها.

والآن، وقد رأيت وتحققت من موقف الكثيرين - من أمثال تشيرتكوف - منها، أعتبر حتى أن غيرتها من الغرباء، ورغبتها الواضحة فى أن تحول بينهم وبين زوجها، وبعض تصرفاتها الأخرى غير المهذبة - كان مبعثها كلها، بل ويبررها، أسلوب تناولهم لمسألة «زوجة تولستوى» أثناء حياة الرجل وبعد موته.

وقد راقبت صوفيا أندرييڤنا عدة شهور فى جاسبرا بالقرم حين كان تولستوى يعانى المرض وفى حالة الخطر. وكانت الحكومة، تتوقع موته يومًا بعد يوم، فأرسلت موثقًا من سيمفيريبول، وأقام الموظف فى يالتا استعداداً لمصادرة أوراق الكاتب، كما قيل. وكان رجال البوليس السرى يحيطون بضيعة الكونتس س. بانينا، حيث كانت تقيم أسرة تولستوى، ويتمشون فى الحديقة، إلى أن طردهم ليوبولد سولر زتسكى كما تطرد الخنازير من حقل خضروات. وكانت بعض مخطوطات تولستوى قد نقلت سراً إلى يالتا. وأخفاها سولر زتسكى هناك.

وكانت أسرة تولستوى مجتمعة كلها فى جاسبرا، إذا لم أكن مخطئًا - أبناؤه وأزواج بناته وزوجات أبنائه. وقد انتابنى شعور عند ذلك، كالشعور الذى يثيره فى المرء عدد عظيم من المرضى والعاجزين. وكنت أرى بوضوح أن صوفيا أندرييڤنا قد أُخذت فى وسط دوامة، واستغرقتها «طاحونة الحياة اليومية»، بينما كانت تحاول أن تحفظ للمريض هدوءه ومخطوطاته، وأن تطمئن على راحة الأولاد، وتتقى فضول الزوار «المشفقين بإخلاص»، والمتفرجين المحترفين، وتطمئن

على أن كل من فى البيت قد تناول طعامه. ثم كان عليها بعد ذلك أن تلطّف من غيرة الأطباء، وكل منهم مقتنع بأن شفاء المريض خدمة عظمى، ومن حقه أن يمتاز بأدائها وحده.

وبلا أدنى مبالغة، يمكن القول إنه كان ثمة فى تلك الأيام الحزينة، كما يوجد دائمًا فى كل أيام الشقاء، قدر وافر من الزبالة - مشاحنات وضيعة وتفاهات تقلق النفس، تهب فى البيت مع ريح السوقية الصفراء. ولم يكن ليوتولستوى غنيا جداً كما يفترضون، لقد كان كاتبًا يعول بما يكسبه جمعًا غفيراً من الأبناء والأحفاد، وكان بعضهم يبلغون سن الرشد، ولكنهم كانوا غير أكفاء للعمل. وكانت صوفيا أندرييڤنا تناضل من الصباح إلى المساء فى تراب هذه الشئون الحقيرة الذى يكاد يعمى البصر، وهى تكزّ على أسنانها وتضيق عينيها الذكيتين، وتدهش كل شخص بمقدرتها على إنجاز كل شىء فى حينه، وعلى أن تطيّب خاطر كل شخص، وتوقف تباكى ذوى الأفق الضيق، المتنافرين.

وكانت زوجة أندريه تولستوى مصابة بالأنيميا، وتمشى دائخة - كانت حاملاً وتعثرت فخافت أن تجهض. وزوج تاتيانا تولستايا ضعيف القلب يلهث وصدرهُ يصدر صريراً. وسيرچى تولستوى، وهو فى الأربعين، وغير مؤذٍ ولا لون له، يبحث عن رفيق يلاعبه الورق. كان قد حاول أن يكون مؤلفًا للموسيقى، وعزف مرة أغنية من تلحينه ومن كلمات تيوتشيف أمام عازف البيانو ا. جولدنوايزر - والأغنية تقول: «لأى سبب تئن ياريح الليل؟»، ولا أذكر ماذا كان رأى جولدنوايزر فى موسيقاه،

ولكن الدكتور ا. ن ألكسين. وقد تلقى تعليمًا موسيقيا، وجد فى موسيقى سيرچى ملامح لا شك فيها من تأثره بالأغانى الفرنسية.

أكرر أنه قد سيطرت علىَّ الفكرة الغريبة - ولعلها فكرة غير صحيحة - أن كل أفراد أسرة تولستوى مرضى، ولا يحب أحدهم الآخر، ويعانون السأم جميعًا. وقد أصيبت ألكسندرا تولستايا - حقا - بالدوسنتاريا بعد شفاء أبيها. وكان على صوفيا أندرييڤنا أن تعنى بهم جميعًا، وأن تحول دون أن يقع شىء قد يؤثر تأثيرًا غير سار، أو تأثيرًا ضارًا على الكاتب العظيم الذى يتجهز فى هدوء ليفارق الحياة.

أتذكر المشقة التى لاقتها صوفيا أندرييڤنا لتحجز عددًا من مجلة «نوفوى فريميا»، حتى لا يقع فى يدى زوجها، وكانت به قصة بقلم ليوتولستوى الابن، ومقال نقدى عنه بقلم ف. ب. بورينين.

وكان ليولفوفتش قد نشر بعض القصص فى هذه الصحيفة، وثابر بورينين السليط على السخرية منه فيها، وتلقيبه بالنمر ابن النمر والجرو - المخنث [1]. وكانت سخرية بورينين ثقيلة الظل، ويذهب فيها إلى حد الزعم أن عنوان المؤلف المسكين: مستشفى المجاذيب، وكان ليوتولستوى الابن يتدرب تدريبًا شاقا حتى لا يشتبه أحد فى أنه يقلد أباه العظيم، ويظهر أنه لكى يبعد عن نفسه هذه الشبهة، نشر رواية

---

(١) كان اسمه ليوليفوفتش، ومعناها فى الروسية الأسد ابن الأسد. (المترجم)

مثيرة «ضد التولستويين» عن منافع معدن البزموت، وعن أذى الزرنيخ، فى مجلة باسينسكى «كتابات شهرية». أنا أتكلم بجد تمامًا – فهذا كان غرض الرواية. وفى نفس العدد من المجلة نشر باسينسكى عرضًا بذيئًا لقصة تولستوى الكبير «البعث»، ورأى الكاتب أن يعلق أيضًا على الفصول التى منع نشرها فى الطبعة الروسية، ولم تنشر إلا فى طبعة يدلين الألمانية التى صدرت قبل صدور الرواية بالروسية. وقد وصفت صوفيا أندرييڤنا هذا العرض بأنه تشهير، وهو وصف مضبوط.

أذكر كل هذا رغمًا عنى، ولا لشىء إلا لأنى أعتبر من الضرورى أن أشير مرة أخرى إلى التعقيد الشاذ الذى كانت تتصف به الظروف التى عاشت فى ظلها صوفيا أندرييڤنا، وإلى الذكاء والمهارة التى كانت تتطلبها منها هذه الظروف. لقد كان ليوتولستوى يعيش كسائر العظماء علانية، وكان كل عابر سبيل يعتبر من حقه بلا نزاع أن يعقد نوعًا من الصلة بهذا الرجل العجيب، غريب الأطوار. ولا شك أن صوفيا أندرييڤنا قد أزاحت بعيدًا عنه أيدٍ كثيرة شرهة وملوثة بالطين، ونفضت عنه أصابع كثيرة فضولية قاسية، مرادها أن تسبر أغوار الجراح التى ثخنت روح الرجل المتمرد فى خشونة، وكم كان هذا الرجل عزيزًا على زوجته.

اعتبر الناس دائمًا أن مسلك صوفيا أندرييڤنا خلال أيام الثورة الزراعية (١٩٠٥ – ١٩٠٦) كان مسلكًا يستحق اللوم بنوع خاص. فقد

ثبت أنها خلال تلك الأيام قامت بنفس ما قام به مئات ملاك الأرض الروسيين الآخرين، الذين استأجروا عصابات من رجال العنف الجهلة «لحماية الزراعة الروسية من المتوحشين». ويظهر أنها استأجرت بعضًا من سكان جبال القوقاز للدفاع عن ياسنايا بوليانا.

وقد أشار الكثيرون إلى أن زوجة ليوتولستوى، الذى كان ينكر حق الملكية، ما كان ينبغى لها أن تمنع الفلاحين من أن يسلبوا المزرعة. ولكنها حملت على عاتقها أن تحرس حياة تولستوى وهدوءه أثناء إقامته فى ياسنايا بوليانا نفسها، وهو المكان الذى كان يكفل له الهدوء، وكم كانت روحه بحاجة للهدوء. كان الهدوء ألزم ما يلزمه، فقد كان شرع يقبل على نهاية العافية، ويتجهّز للرحيل عن الحياة. وقد غادر ياسنايا بوليانا بعد خمس سنوات من الثورة، لا أكثر.

ولمعرفتى أن الناس قد تجد فى كلماتى تلميحًا واضحًا بأن ليوتولستوى الثائر، الفوضوى، كان لزامًا عليه أن يرحل عن ضيعته، أو كان الأحسن له أن يفعل ذلك أثناء ثورة ١٩٠٥، أُعلن أنى لا أقصد طبعًا أن ألمح هذا التلميح - وأنى أقول دائمًا ما أريد أن أقوله بصيغة صريحة.

فى رأيى أن ليونيكولاييفتش تولستوى ما كان ينبغى عليه أبدًا أن يغادر ضيعته، وأن هؤلاء الذين عاونوه فى الرحيل كانوا ليصبحوا أكثر تعقلا لو أنهم منعوه فالحقيقة التى لا نزاع عليها هى أن «رحيل»

تولستوى فى أواخر أيامه قد عجّل بموته. وكم كانت كل دقيقة من حياته ثمينة. قيل إن زوجة تولستوى، مريضة العقل، طردته من بيته. ولكنى أحب أن أعرف: أى الناس الذين كانوا يحيطون بتولستوى فى تلك الأيام كان عاقلا تماماً؟ ولا أستطيع أن أفهم: إذا كانوا قد اعتبروا زوجته مجنونة، فلماذا لم يفكر العقلاء منهم فى أن يدبروا لها العناية اللازمة، ويعزلوها عنه.

لقد كان ليوبولد سولر زتسكي الشريف لا يحب صوفيا أندرييڤنا، وهو المبغض الأصيل للملْكية، والفوضوى بطبيعته، لا بمقتضى التعاليم. ومع ذلك فهكذا وصف سلوكها خلال سنتى (١٩٠٥ و ١٩٠٦م):

«لم تكن أسرة تولستوى لتستمتع بمشهد الفلاحين، وهم يتملكون بوضع اليد وبالتدريج ضيعة ياسنايا بوليانا ويسقطون أجمة التبولا التى زرعها تولستوى بنفسه. بل إنى أظن أنه كان مشفقًا على الأجمة، ويخشى أن تصاب بسوء. وقد حفز هذا الإشفاق والحزن الطبيعى صوفيا أندرييڤنا على أن تفعل ما تعرف أنها ستلام عليه، دون أن تتحدث عما ستفعل. لقد كانت أذكى من أن تجهل أن لومًا سيقع عليها، ووضعت هذا فى اعتبارها. ولكن كل شخص كان حزينًا، وما من أحد خاطر بالمقاومة، فقاومت هى. وإنى لأحترمها من أجل هذا. وسأذهب إلى ياسنايا بوليانا ذات يوم أقول لها: «أنا أحترمك». بل إنى أعتقد أنها اضطرت فى صمت إلى أن تفعل ذلك. ولكن لا يهم، ما دام تولستوى نفسه بخير».

وتؤكد لى معرفتى بالطبيعة البشرية أن حدس سولر زتسكى كان صادقًا فما من أحد سيجرؤ على الزعم بأن ليوتولستوى لم يكن صادقًا فى إنكاره لحق الملْكية. ولكنى مقتنع مع ذلك بأنه كان حقيقة مشفقًا على الأجمة. لقد زرعها بيديه، كانت عمله بالذات. وهنا يشب صراع خفيف بين غرائز عميقة الجذور، رغم عدائه لها، وعقله.

وأضيف إلى ذلك: أننا نعيش فى سنوات ذات مجال لم يسبق له مثيل، حيث تجرى تجربة جريئة لتحطيم الملكية الفردية للأرض ولأدوات العمل، وكما سنرى الآن، ويا لسخرية القدر، تنمو تلك الغريزة المنحطة الملعونة، وتزداد قوة لتفسد حق الشرفاء، وتجعل منهم مجرمين.

لقد كان ليوتولستوى رجلاً عظيمًا، ولا تلوث صورته اللامعة، بأى حال من الأحوال، هذه الحقيقة: إنه لم تكن أى نزعة إنسانية بالغريبة عليه. ولا ينخفض به هذا إلى مستوانا نحن. فإنه لمن الطبيعى للغاية من الناحية السيكولوجية أن يكون الفنانون العظام أعظم فى آثامهم من الآثمين العاديين. فى بعض الأحوال نرى نحن أن هذا صحيح.

وبعد كل شىء – علام كل هذا؟

... مجرد امرأة، بعد خمسين سنة شاقة عاشتها مع فنان عظيم، إنسان شاذ وقلق، امرأة كانت هى صديقه الحقيقى الوحيد طوال حياته كلها، وتساعده مساعدة فعالة فى عمله، ثم غلبها على أمرها إرهاق شنيع – تلك حقيقة ممكنة الفهم تمامًا.

وفى ذات الوقت تدرك هذه المرأة، وقد هرمت ورأت أن ذلك الرجل الهائل، زوجها، لن يلبث طويلا فى هذا العالم - تدرك وهى مُغضبة أنها وحيدة ومنسيّة.

وفى غضبتها - إذ وجدت نفسها طردت من مركزها الذى شغلته خمسين عامًا - قيل إن صوفيا أندرييڤنا لم تُبد فى مسلكها الاحترام اللائق للقيود الخلقية التى يقيمها ذوو الأفق الضيق والجهلة.

وبمرور الزمن اتسم غضبها بخصال تشبه الجنون.

وبعد ذلك أيضًا ماتت، وقد هجرها كل الناس، ميتة متوحشة، وإذا كان شخص قد تذكرها، فهو لم يفعل إلا بقصد أن يسبّها.

هذا كل شىء..

فى الجزء الرابع من «الأرشيف الأحمر» مقالة ممتعة للغاية عنوانها: «الأيام الأخيرة فى حياة ليوتولستوى». وتحتوى هذه المقالة، ضمن أشياء أخرى، على تقرير من چنرال البوليس «لڤوڤ» جاء فيه:

«أعلن أندريه تولستوى خلال نقاش مع الكابتن ساڤتسكى أن عزل تولستوى عن أسرته، وعن زوجته بخاصة، قد نُفِّذ نتيجة لضغط تشيرتكوف على الأطباء وعلى ابنته ألكسندرا».

وبعد ذلك:

«فى وسعى أن أستنتج من كلمات أسقطت هنا وهناك أن أفراد أسرة تولستوى لم يسمح لهم بالدخول إلى مخدعه وهو مريض، لسبب لا صلة له بحالته الصحية».

أنطون تشيكوف

دعانى مرة إلى بيته فى قرية كوتشوك - كوى، حيث كان يملك قطعة أرض صغيرة، وبيتًا أبيض من طابقين. واصطحبنى لأشاهد ضيعته، وهو يتحدث طيلة الوقت فى حيوية:

«لو أننى أملك مالاً كثيراً، كنت بنيت مصحة هنا لمعلِّمى القرية المرضى. بناء ملىء بالنور، لو تعرف، مضىء جداً، بشبابيك كبيرة وأسقف عالية. وكنت أقيم مكتبة فخمة، وأجمع كل أنواع الآلات الموسيقية، وأبنى خلية نحل، وأزرع بستان خضروات، وكرزة. كنت أنظم محاضرات عن الهندسة الزراعية، وعلم الظواهر الجوية، وهكذا - فالمعلمون ينبغى لهم أن يعرفوا كل شىء، يا عجوز - كل شىء».

وتوقف عن الكلام فجأة، وسعل، ورمانى بنظرة زائغة، وابتسامته الرقيقة على وجهه، وهى ابتسامة لها سحر لا يقاوم، تُرغم المرء على أن يتابع كلماته بانتباه شديد.

«هل يعتريك الملل من إصغائك لأحلامى؟ أنا أحب الكلام فى هذا الموضوع. لو أنك تعرف فقط حاجة الروس الماسة لمعلمين طيبين أذكياء

متعلمين! فى روسيا لا بد من أن نخلق ظروفًا استثنائية للمعلمين، وفى أقصر وقت ممكن، ما دمنا ندرك أنه ما لم تحظ الناس بتعليم شامل، ستنهار الدولة كما ينهار منزل قد بنى بطوب لم يستوف كفايته من الحرق. ولا بد للمعلم من أن يكون ممثِّلاً، فنانًا، وأن يحب عمله حبا مشبوبًا. ومعلمونا عمال حفر، أنصاف متعلمين، يرحلون إلى القرية يعلمون الأطفال فى غير إقبال وكأنهم راحلون إلى المنفى. إنهم يتضورون، تدوسهم الأقدام، ويعيشون فى خوف دائم من أن يفقدوا عيشهم. يجب أن يكون المعلم هو الرجل الأول فى القرية، وقادراً على الإجابة عن الأسئلة التى يوجهها إليه الفلاحون، حتى يبث فى قلوب الفلاحين مشاعر الاحترام لقوته. وينبغى أن يكون أهلاً للرعاية والاحترام، فلا يجرؤ أى كان على أن يصيح فى وجهه... ليحطم كبرياءه، كما يفعل كل شخص فى ريفنا - شرطى القرية، وصاحب الدكان الثرى، والقسيس وناظر المدرسة، وزميله الأكبر، وذلك الموظف الذى يسمونه مفتش المدرسة، ورغم ذلك لا يشغل نفسه بتحسين أحوال التعليم، ولكن يصرف همه لتنفيذ المنشورات الدورية للمنطقة بحرفيتها فقط لا غير. ومن الحمق أن ندفع راتبًا زهيداً شحيحًا لرجل تقع عليه تبعة تعليم الناس - تعليم الناس، تصورا شىء لا يطاق أن يمشى رجل كهذا فى أسمال، ويرتعد فى مدرسة رطبة خربة، ويسممه دخان أفران رديئة التهوية، ويقع دائمًا ضحية الإصابة بالبرد، وحول سن الثلاثين يصبح مستنقع أمراض - التهاب الحنجرة، والروماتيزم، والسل؟

عار علينا يعيش معلمونا تسعة شهور أو عشرة عيشة النساك، لا أحد يتحدثون معه، وتدركهم البلادة من الوحدة وهم بلا كتب، وبلا تسليات. وإذا خاطروا بدعوة أصدقائهم لزيارتهم، يقع فى ظن الناس أنهم «ساخطون على النظام». هذه الكلمة البلهاء التى يخيف الماكرون بها الحمقى.. كل هذا مقرف.. لون من السخرية ببشر يقومون بعمل عظيم وخطير. أقول لك إنى حين ألتقى بمعلم، أشعر بمنتهى الحرج أمامه – لتهيّبه ورثاثته. أشعر كأنى أنا نفسى مسئول على نحو ما عن حال المعلم التعسة – صدقنى، أشعر بهذا!».

وسكت لحظة وطوّح بذراعه وقال فى ليونة:

«أى بلد سخيف أخرق، وطننا روسيا؟».

واعتمت عينيه الجميلتين سحابة أسف عميق، ونتأت فى أركانهما شبكة أنيقة من التجاعيد، فعمّقت نظرته. ونظر حواليه وشرع يسخر بنفسه:

«هاك – لقد أولت لك مقالة افتتاحية كاملة تنفع لصحيفة حرة. هيا بنا، سأعطيك فنجان شاى مكافأة لك على صبرك..».

كان هذا أسلوبه غالبًا. يتحدث لحظة فى حرارة، وفى جد وإخلاص، ثم يضحك من نفسه ومن كلماته فى اللحظة التالية. ووراء ضحكته الرقيقة الآسية تستطيع أن تحس بالشك الذكى لرجل يعرف قيمة الكلمات وقيمة الأحلام. وكان فى ضحكته، فضلاً عن ذلك، ظل من تواضعه الجذاب ومن رقة وجدانه أيضًا.

مشينا راجعين إلى المنزل فى سكون. وكان اليوم مشرقًا دافئًا، وصوت الأمواج، التى تتلألأ فى أشعة الشمس البارقة مسموع. وكان فى الوادى كلب ينبح مبتهجًا لأمر ما. فأخذنى تشيكوف من ذراعى، وقال ببطء، والسعال يقطع عليه حديثه:

«إن ذلك شائن ومحزن جداً، ولكنه حقيقى - هناك ناس كثيرون يحسدون الكلاب...».

ثم أضاف وهو يضحك:

«كل شىء أقوله اليوم فيه رنة الشيخوخة - لا بد أنى أشيخ».

وأعود فاسمع منه مرة ثانية، وثالثة:

«اسمع، لقد وصل معلم الآن.. إنه مريض، وله زوجة، ألا تستطيع أن تصنع شيئًا له، هل تستطيع؟ لقد رتبت أنا أمره فى الوقت الحاضر...».

أو يقول:

«اسمع يا جوركى! يريد معلم أن يقابلك. إنه طريح الفراش، مريض. هلا ذهبت تزوره؟».

أو يقول:

«تريد مدرِّسة أن نرسل لها كتبًا...».

وكنت أحيانًا ألقى هذا «المعلم» فى منزله - دائمًا معلم، وجهه أحمر بالخجل من شعوره بالارتباك، وهو قاعد على حرف الكرسى، يعرق ويتخيَّر الكلمات، يحاول أن يتحدث فى نعومة وبأسلوب «المتعلمين» بقدر ما يستطيع، أو بالألفة الزائدة لرجل حي حياء سوداويًا، تستغرقه تمامًا رغبته فى ألا يبدو مغفلاً فى عيني تشيكوف. ويمطر أنطون بافلوفتش بأسئلة ربما خطرت فى التوِّ بباله.

وينصت أنطون بافلوفتش إلى حديثه المضطرب فى انتباه، وتضىء عينيه الحزينتين ابتسامة، تلعب فيها تجاعيد صدغيه. وقد يشرع فى الكلام بصوته الهامس الرقيق العميق، فيستخدم كلمات بسيطة وواضحة، كلمات قريبة من الحياة تجعل ضيفه يأخذ راحته على الفور، ولا يعود يحاول أن يظهر بمظهر الأذكياء، ويصبح بذلك أكثر ذكاء وإمتاعًا.

أتذكر واحدًا من هؤلاء المعلمين - طويلاً، محنيًا، ووجهه أصفر هزيل، وأنفه طويل معقوف يتدلى نحو ذقنه بشكل يثير الرثاء - كان جالسًا قبالة أنطون بافلوفتش، يحملق بعينيه السوداوين فى وجهه بثبات، ويأز بصوت غليظ مكتئب قائلاً:

«انطباعات من هذا النوع، مجموعة من الظروف الحية خلال فترة الموسم الدراسى، تحتشد فى مجمِّع نفسى، فتلغى تمامًا أدنى احتمال لموقف موضوعى من العالم المحيط. فالعالم بالطبع ليس إلا إدراكنا له..».

وهو هنا واقف فوق أرض فلسفية، ينزلق عليها كما ينزلق رجل سكران فوق الثلج.

فسأله تشيكوف فى هدوء وفى طيبة:

«قل لى من ذلك الذى يضرب الأطفال فى منطقتك؟».

فقفز المعلم من فوق مقعده، وأخذ يلوح بذراعيه فى حنق:

«ماذا؟ أنا؟ أبدًا! أضربهم؟».

وزفر من أنفه فى استياء.

ابتسم أنطون بافلوفتش ليهدِّئه واستأنف يقول:

«لا تضطرب، هل قلت إنك أنت؟ ولكنى أذكر أنى قرأت فى الصحيفة أن هناك من يضرب التلاميذ فى منطقتك..».

فقعد المعلم ثانية، وقطب تقاطيع وجهه التى تنضح بالعرق؛ وتنهد مرتاحًا وقال بصوته الغليظ العميق:

«مضبوط. كان هناك حالة. إن الرجل هو ماكاروف. ولا عجب! شىء عجيب، ولكنه مفهوم، فهو متزوج، وله أربعة أطفال، وزوجته مريضة، وهو الآخر - مسلول - ومرتبه عشرون روبلا... المدرسة كالقبو، وبها غرفة واحدة للمعلمين. فى مثل هذه الظروف يصفع المرء ملاكًا من السماء لأتفه إساءة فى السلوك، والتلاميذ أبعد ما يكونون عن الملائكة، صدقنى!».

وهذا الرجل، الذى كان يحاول منذ لحظة أن يبهر تشيكوف بمخزونه من الكلمات الرنانة، اهتز أنفه المعقوف على نحو منذر، وأطلق كلمات كالحجارة بسيطة وثقيلة، كلمات ألقت ضوءاً لامعًا على الحقيقة الملعونة المشئومة عن الأحوال الجارية فى القرية الروسية...

وعندما استأذن المعلم من مضيفه لينصرف، ضغط بيديه الاثنتين على يد تشيكوف الصغيرة الجافة بأصابعها النحيلة. وقال:

«لقد جئت أزورك وكأنى ذاهب للقاء أحد رؤسائى، أرتعش فى داخل ملابسى. وقد انتفخت كالديك الرومى، وحزمت أمرى على أن أريك أنى أساوى شيئًا، أنا أيضًا. وأنا منصرف الآن وكأنى أفارق صديقًا طيبًا عزيزًا يفهم كل شىء. أى شىء عظيم أن تفهم كل شىء! أشكرك! أنا ذاهب. وأحمل معى فكرة جيدة وثمينة: هى أن العظماء أبسط من سائر الناس، وأكثر فهمًا، وهم أقرب إلينا نحن المساكين الفانون من أسماك البسارية التى نعيش بينها. الوداع، لن أنساك أبداً».

وارتعشت أنفه، وارتخت شفتاه فى ابتسامة عذبة، وأضاف على غير توقع منا:

«الأشرار تعساء، أيضًا – اللعنة عليهم!».

ولما رحل ابتسم أنطون بافلوفتش وهو يتابعه بعينيه، وقال: «فتى طيب. لن يستمر طويلا فى التعليم، مع ذلك».

«لِمَ لا؟».

«سيطاردونه كالكلاب... ويتخلصون منه».

وسكت فترة، ثم أضاف بنبرات خفيفة رقيقة:

«الرجل الشريف فى روسيا أشبه بمنظِّفى المداخن فى أعين المربيات، مجرد شىء يُخفن به الأطفال...».

يخيل لى أن كل امرئ كان يشعر فى مجلس تشيكوف برغبة غير واعية فى أن يكون أبسط، وأصدق، وعلى سجيته. لقد سنحت لى فرص كثيرة لاحظت فيها كيف كان الناس ينضون عن أنفسهم زى العبارات الكتْبية الرنانة، والعبارات التى تجرى مجرى المودة، وسائر الترهات الرخيصة التى يزين بها الروسيون أنفسهم، من شغفهم بأن يظهروا بمظهر الأوروبيين، كما يزين المتوحشون أنفسهم بالأصداف وأسنان السمك. ولم يكن أنطون بافلوفتش يحب أسنان السمك وريش الديكة؛ وكان يضيق بكل بهرجة وجلجلة يتشح بها الإنسان ليصبح ذا «مظهر مؤثر». ولاحظت أنه ما قابل واحداً من هؤلاء «المتهرجين» إلا وأحس بحافز غلاب لأن يخلصه من زخارفه الثقيلة المتطفلة، التى تشوه وجهه الحقيقى وروحه الحية. وقد عاش أنطون بافلوفتش طيلة عمره حياة روحية، وكان دائماً على سجيته، حراً من الباطن، لا يأبه بما كان يتوقع منه البعض، أو بما كان يطلبه منه آخرون – أغلظ حساً. ولم يكن يحب الحديث عن الموضوعات «العالية»، بل يحب الأحاديث التى يتسلى بها

الروسيون من قلوبهم البسيطة، ناسين أنها ضرب من العبث، ولا تتحلى بأى حذق؛ فهم يتحدثون عن كسوة المستقبل البنفسجية، بينما لا يملكون حتى بنطلونًا لائقًا فى الحاضر.

كان تشيكوف نفسه مصنوعًا فى بساطة جميلة، فكان يحب كل ما هو بسيط، وحقيقى، وصادق. وكانت له طريقته الخاصة فى أن يجعل الآخرين بسطاء.

زارته ثلاث نساء مغاليات فى ملابسهن، ذات مرة، وملأن غرفته بحفيف الجونلات الحريرية، وعطر الرؤوس، وجلسن متباهيات أمام مضيفهن، يدَّعين الاهتمام الفائق بالسياسة، وشرعن يلقين عليه الأسئلة:

«كيف ستنتهى الحرب فيما تظن، أنطون بافلوفتش؟».

فسعل أنطون بافلوفتش، وسكت مفكرًا. ثم أجاب بصوته الطيب الجاد الطرى:

«ستنتهى بالسلم لا شك».

«هذا، طبعًا. ولكن من سيكسب؟ اليونانيون أم الترك؟».

«يلوح لى أن الجانب الأقوى هو الذى سيكسب».

فسألن فى وقت واحد:

«وأى الجانبين تعتبر أنه الأقوى».

«الجانب الذى يتغذى أحسن من الآخر، والأعلى تعليماً».

فصاحت إحداهن:

«أليس لبقًا؟».

وسألته أخرى:

«وأيهما تفضل - اليونانيون أم الترك؟».

فنظر إليها أنطون بافلوفتش فى رقة، وأجاب بابتسامته المجاملة الوديعة:

«أنا أحب باستيليا الفواكه - أتحبينها أنت؟».

«أوه، نعم».

هكذا صاحت السيدة فى اندفاع، وأيدتها الأخرى فى جد:

«إن لها طعماً لذيذاً جداً».

وبدأن ثلاثتهن حديثًا نضراً عن باستيليا الفواكه، يبدين دراية رائعة، ومعرفة دقيقة بالموضوع. وبان فى وضوح أنهن ابتهجن إذ لم يعد عليهن أن يبهظن أذهانهن بادعائهن الاهتمام الجدى بالترك واليونانيين الذين ما فكّرن فيهن أبداً قبل تلك اللحظة.

وعند انصرافهن وعدن أنطون بافلوفتش فى مرح:

«سنرسل لك صندوقًا من باستيليا الفواكه».

وعندما ذهبن، أبديت له ملاحظتى:

«كان حديثًا طريفًا».

فضحك أنطون بافلوفتش فى نعومة:

«على كل امرئ أن يتكلم بلغته».

وفى مرة أخرى لقيت فى غرفته شابًا وسيمًا يشتغل مأمورًا قضائيًا. كان واقفًا أمام تشيكوف، يدفع رأسه ذات الشعر المجعد للوراء، ويقول وفى نبراته اعتداد:

«فى قصتك (اللئيم) أنت تواجهنى بمسألة معقدة للغاية يا أنطون بافلوفتش. فإذا أنا سلَّمت بالإرادة وقصد الشر فى شخصية دينيس جريجورييف، فواجبى أن أحكم على دينيس بالسجن دون تردد، ما دامت مصلحة المجتمع تتطلب ذلك. ولكنه متوحش، وغير واع بالجرم فيما ارتكبه، فأنا أشعر بالأسف من أجله. فإذا نظرت إليه باعتباره شخصًا يسلك بلا تعقل، واستسلمت لمشاعر الشفقة، فكيف يكون بوسعى أن أضمن للمجتمع ألا ينزع دينيس المسامير مرة ثانية، فيخرج القطار عن قضبانه؟ هذا هو السؤال! ماذا علينا أن نفعل؟».

وسكت، وألقى بنفسه للوراء فى مقعده، وقد ثبَّت نظرة باحثة على وجه أنطون بافلوفتش. وكان على ردائه الرسمى علامات الجدَّة، والأزرار فى أسفل مقدمة تلتمع بالاعتداد والبلادة التى تلتمع بهما عيناه، فى تقاطيع وجهه الغيور الشاب، المغسول حديثًا.

قال أنطون بافلوفتش فى رزانة:

«لو أننى القاضى، لبرأت دينيس».

«بناء على أية أسباب؟».

«كنت أقول له: أنت لم تصبح بعد نموذج المجرم الواعى بجرمه يا دينيس، اذهب واجعل من نفسك هذا النموذج».

فضحك المحامى، ولكنه استعاد وقاره المهول على الفور، واستأنف يقول:

«لا، فالمسألة التى أثرتها باعتبارك أنطون بافلوفتش، لا يمكن أن تُحل إلا بما فيه مصلحة المجتمع، والحياة، والمِلْكية التى تقع علىّ تبعة حمايتها. دينيس متوحش، هذا صحيح، ولكنه مجرم، وهنا تكمن الحقيقة».

فسأله أنطون بافلوفتش فجأة:

«هل تحب الاستماع للجراموفون؟».

فأسرع الشاب مجيباً:

«أوه، نعم! جداً. إنه اختراع مدهش».

واعترف أنطون بافلوفتش فى أسف:

«أما أنا فلا أطيق الجراموفون».

«لِمَ؟».

«أوه، حسن. إنه يتحدث، ويغنى من غير إحساس. وكل الأصوات الصادرة عنه فارغة جداً وفاقدة الحياة. هل تذهب للسينما؟».

واتضح أن المحامى معجب بالسينما متحمس لها. فقد بدأ على الفور يتحدث عنها فى حرارة، ولم يعد يعير موضوع الجراموفون أدنى اهتمام، على الرغم من حبه لهذا «الاختراع المدهش»، وهو ما لا حظه تشيكوف بحذقه ودقته الرائعة. ورأيت المحامى المتزيى «بزىّ المحامين» هو الآخر يتدفق حيوية، وغير عاطل عن الأمتاع، رأيته رجلاً لا يزال يافعًا فى دروب الحياة، كجرو قد أخذ للصيد.

وبعد أن أودع أنطون بافلوفتش الشاب، قال مكتئبًا:

«بثرات من هذا الصنف فى كواليس العدالة يتصرفون فى مصائر الناس».

وسكت لحظة، ثم أضاف: «رجال النيابة مولعون دائمًا بالصيد. وبخاصة صيد البلطى».

كان يتقن فن هتك الأقنعة عن وجه السوقية فى كل مكان، وهو فن لا يتفوَّق فيه غير رجل مطالبه من الحياة رفيعة؛ فن ينبع من رغبته الملحَّة فى أن يرى البساطة والجمال والاتساق فى الإنسان.

لقد كان قاضياً ذا قسوة، وعديم الرحمة بالسوقية والابتذال.

قال أحدهم فى مجلسه إن محرر مجلة منتشرة، وهو رجل لا ينقطع يتحدث عن ضرورة حب الناس والعطف عليهم، أهان أحد غفراء السكة الحديدية بلا أدنى مبرر، وأنه يعامل مرؤوسيه عادة فى غلظة.

فقال أنطون بافلوفتش وهو يضحك ضحكة متجهمة:

«طبيعى، فهو أرستقراطى، رجل مهذب... تعلم فى مدرسة اللاهوت. وكان أبوه يرتدى أحذية مبطَّنة، ولكنه هو يرتدى أحذية من الجلد اللميع».

وكانت النبرة التى نطق بها هذه الكلمات تمجّ «الأرستقراطى» على أنه قاصر العقل وسخيف.

قال عن أحد الصحفيين إنه «شخص موهوب جداً. كتابته دائمًا رفيعة جداً، وإنسانية جداً.. مسكَّرة. يقول لزوجته يا حمقاء أمام الناس، وخدمه ينامون فى غرفة رطبة، وهم جميعًا مصابون بالروماتيزم...».

«هل يعجبك فلان يا أنطون بافلوفتش؟».

فيجيب تشيكوف وهو يسعل:

«أوه، نعم. رجل ظريف، ويعرف كل شىء. يقرأ كثيراً. لقد استعار منى ثلاث كتب لم يردها على الإطلاق. شارد الذهن قليلاً؛ يقول لك يومًا إنك فتى طيب، وفى اليوم التالى يقول لشخص آخر إنك سرقت جورباً أسود حريرياً بشرائط زرقاء من زوج خليلتك».

وسمعنا شخصًا يشكو أمامه من أن المقالات «الجادَّة» فى المجلات «الثقيلة» صعبة ومملة.

فنصحه أنطون بافلوفتش فى اقتناع تام:

«لا تقرأ هذه المقالات. إنها من الأدب التعاونى... الأدب الذى يكتبه السادة كرازنوف وتشيرنوف وبيلوف، (يعنى الأحمر والأسود والأبيض). فواحد يكتب مقالاً، وينقدها الآخر، ويوفِّق الثالث بين القضايا غير المنطقية التى طرحها الأولين. وهذا يشبه لعب الورق مع دمية. ولكن أحدًا من الثلاثة لا يسأل نفسه: ما حاجة القارئ لكل هذا».

وزارته مرة سيدة سمينة، صحتها جيدة، وسيمة وأنيقة، وبدأت لفورها تتحدث بأسلوب تشيكوف:

«الحياة مملة، أنطون بافلوفتش. وكل شىء كاب جدًا - الناس، والسماء، والبحر، وحتى الزهور تبدو كابية فى نظرى. ليس للمرء ما يتمناه - قلبى موجع. وأحس بشىء كالمرض...».

فقال أنطون بافلوفتش بحيوية:

«إنه مرض، هذا بالضبط ما أنت مصابة به. واسمه باللاتينية morbus sham - itis [1]».

---

(١) اخترع تشيكوف هذا الاسم للسخرية بها. معناه سوداوية الاصطناع. (المترجم)

ومن حظها الحسن أنها لم تكن تفهم اللاتينية، أو لعلها تظاهرت بأنها لا تفهمها.

قال مرة وهو يضحك ضحكة حصيفة:

«النقاد كذباب الخيل الذى يعوقها عن حرث الأرض. إن عضلات الحصان مشدودة كأوتار الكمان، وتحط الذبابة فجأة على كفل الحصان، وتأزّ وتلدغ. فيرتعش جلد الحصان، ويهز ذيله، فعلام تأز الذبابة؟ ربما لا تعرف هى أن لها طبيعة قلقة وتريد أن تجعل الآخرين يحسّون وجودها - ويُخيل لى أنها تقول: (أنا حية أيضًا، أترى! أنظر، وأعرف كيف أزنّ. وما من شىء إلا وأستطيع أن أزن فوقه!). لقد ظللت أقرأ مقالات عن قصصى طوال خمسة وعشرين سنة، ولا أستطيع أن أتذكر نقطة واحدة مفيدة فى أى من هذه المقالات، أو نصيحة على أدنى قدر من الفائدة. الكاتب الوحيد الذى أثر فىّ هو شابتشيفسكى الذى تنبأ بأنى سأموت سكرانًا فى قاع حفرة...».

كان التهكم الحاذق يكاد يبرق رقيقًا دائمًا فى عينيه الحزينتين الرماديتين - ولكن هاتين العينين تتحولان من حين لآخر باردتين قاسيتين وحادتين، وتتسلل فى مثل تلك اللحظات إلى نبرات صوته الناعمة الودودة نغمة جافية. وكنت حينذاك أشعر أن هذا الرجل الطيب المتواضع فى وسعه أن يقف ضد أية قوة عدوانية، يجابهها فى حزم فلا يذعن لها.

وكان يلوح لى فى بعض الأحيان أن فى موقفه من الناس ظلاً من فقدان الرجاء، شيء قريب من اليأس البارد الساكن.

قال ذات مرة: «إن الإنسان الروسى كائن غريب. هو كالغربال، لا يستطيع أن يحتفظ بشيء طويلاً، ففى شبابه يقبل على حشو نفسه بكل شيء يصادفه فى طريقه، وحين يبلغ الثلاثين لا يبقى فى نفسه من كل هذا غير كومة من الزبالة لا لون لها. وإذا كان أحد يريد أن يحيا حياة فاضلة، حياة إنسانية، فعليه أن يشتغل، يشتغل فى حب وفى إيمان. ونحن فى بلادنا لا نعرف كيف نفعل هذا. فالمهندس بعد أن يبنى منزلين جيدين أو ثلاثة، يقعد يلعب الورق بقية حياته، أو يتسكع فى كواليس أحد المسارح، وحالما يحصل طبيب على التمرس اللائق، لا يعود يلازم العلم، ولا يعود يقرأ شيئًا سوى «نوفوستى تيرابى» (أخبار فن العلاج). وعندما يبلغ الأربعين يرسخ اقتناعه بأن كل الأمراض تتضاعف عن البرد. ولم أقابل أنا أبداً موظفًا فى ذهنه أدنى فكرة عن دلالة عمله، فالموظفون عادة يدفنون أنفسهم فى العاصمة، أو فى إحدى مدن الأقاليم ويلفِّقون أوراقًا يرسلونها على جناح السرعة إلى زمييف وسمورجون لإنجازها. ولا يهم الموظف أن يعرف مَن مِن الناس فى زمييف أو فى سمورجون سيفقد حريته من جرَّاء هذه الوثائق، مثلما لا تهم للحد عذابات الجحيم. وبعد أن تنعقد الشهرة لاسم أحد المحامين بعد دفاع ناجح، لا يعود يهتم بالدفاع عن الحقيقة، ولا يعود يدافع إلا عن حقوق المُلكية، ويراهن على الخيل، ويلتهم المحار، ويدَّعى

لنفسـه الخبـرة بكل الفنون. وبعد أن يؤدى الممثل دوريـن أو ثلاثة أدوار بنجاح ملحوظ لا يعود يحفظ أدواره. بل يرتدى قبعة عالية ويعتبر نفسه مـن العبـقـريين. إن روسـيـا بلد الكسـالى الشـرهـين. الناس هنا تأكل وتشرب كميات وافرة من الطعام والشراب، ويلذ لها النوم فى النهار، وتشخّر فى نومها. وهم يتزوجون لكفالة النظام فى بيوتهم، ويتخذون الخليلات ليضمنوا لأنفسهم المركز الاجتماعى. بنيانهم النفسى كالبنيان النفسى للكلاب. اضربهم، ينبحون فى وداعة ويتدحلبون إلى مأواهم. ربّت عليهم، يرقدون على ظهورهم ويرفعون أقدامهم، ويبصبصون بآذانهم».

إن وراء هذه الكلمات احتقار بارد وأسيف. ولكن تشيكوف حين يحتقر، ففى وسعه أن يشفق. وإذا شُتم أحد أمام أنطون بافلوفتش، فسيدافع أنطون عنه بالتأكيد.

«هيا الآن! إنه رجل عجوز، إنه فى السبعين...».

أو يقول:

«إنه لا يزال صغيراً، لم يفعل ذلك إلا من غفلته...».

وإذا ما تحدث هكذا لم أكن ألمح شيئًا من الاشمئزاز على وجهه.

يُخيل للمرء فى شبابه أن السوقية مجرد شىء مُسلٍّ ولا معنى له، ولكنها تحوطه بمرور الزمن، ويتسلل ضبابها الرمادى إلى ذهنه ودمه

كما يتسلل السم الذى فى دخان الفحم المحترق، حتى يصبح هو آخر الأمر كلافتة حانة قديمة أكلها الصدأ - تبدو كأن ثمة شيء مصوّر عليها، ولكن ما هو - من المستحيل أن تميِّزه.

وقد كان أنطون بافلوفتش يحاول منذ البداية أن يكشف، فى محيط السوقية الرمادى، عن ملامحها التراجيدية المعتمة. وليس عليك إلا أن تقرأ قصصه «الفَكِهة» باعتناء، لتدرك أى قدر من القسوة كان تشيكوف يراه، فيخبئه، من خجله، فى السرد وفى المواقف الهزلية.

وقد كان متواضعًا تواضع عذراء، ولم يكن فى طاقته أن يحتشد ليتحدى الناس بصوت عالٍ وصريح، ويصيح بهم: «كونوا أكثر تهذيبًا - ألا تستطيعون»!. وعبثًا يثق فى أنهم سيدركون بأنفسهم الضرورة العاجلة التى تدعوهم لأن يصبحوا أكثر تهذيبًا. وهو يحتقر كل ما هو سوقىّ وغير نظيف، ويصف الوجه الآخر للحياة بلغة شاعر رفيعة، وبابتسامة رجل مازح رقيقة، وبتأنيبٍ مرير مخفًّى تحت السطح الملمَّع لقصصه.. فلا يكاد يلحظه أحد.

يضحك الجمهور الموقَّر حين يقرأ «ابنة ألبيون»، وقد لا يستطيع أن يرى فى هذه القصة صنوف الاستهزاء والاحتقار التى يصبها سيد جيد التغذية على شخص يعانى الوحشة، غريبًا عن كل شىء، وعن كل شخص. ويُخيل لى أنى أسمع، فى كل قصص تشيكوف الفَكِهة، زفرة عميقة رقيقة من قلبٍ نقى وإنسانى حقًا، زفرة شفقة يائسة بالبشر

العاجزين عن أن يرتقوا إلى مرتبة احترام أنفسهم، بل يستسلمون للقوة الوحشية بلا نضال، ويعيشون كالعبيد، لا يؤمنون بشيء غير ضرورة ابتلاع أكبر قدر ممكن من شوربة الكرنب المائية كل يوم، ولا يحسون شيئًا سوى الخوف من أن يؤذيهم الأقوياء والوقحاء.

وما من أحد أبداً فهم الطبيعة التراجيدية لترهات الحياة، في وضوح ونقاء بصيرة، مثلما فهمها تشيكوف. وما من كاتب سبقه أبداً استطاع أن يرفع للبشر صورة صادقة تستدرُّ الحنان لكل ما هو مخز ومثير للرثاء في الفراغ الأغبر لحياة الطبقة الوسطى.

كانت السوقية عدواً له. وقد حاربها طوال حياته، وعرَّضها للاحتقار، وصورها بقلم ماهر غير منحاز، ورفع النقاب عن لحمها النافر حتى في المواضع التي كان كل شيء فيها يبدو للنظرة الأولى وكأنه على أحسن نظام، ومريح جداً، بل وبرَّاق. وقد رجعت عليه السوقية بحيلة قبيحة حين وضعت جثته - جثة شاعر - في عربة سكة حديدية مخصصة لنقل المحار.

إن هذه العربة الخضراء المغبَّرة تصدمني بأنها ابتسامة واسعة ظافرة افترت عنها السوقية في وجه خصمها المنهوك، وفي ذكرياتي العديدة عن الصحافة الصفراء - والحزن المرائي الذي أبدته حينذاك، أنني قد انتابني شعور بأن في طوايا هذا الحزن، نَفَس السوقية البارد النتن ذاته، الذي تردد في ابتهاج مستور بموت عدوها.

إن قراءة أدب تشيكوف يثير فى النفس تلك المشاعر التى يثيرها أحد أيام الخريف المتأخرة الحزينة، بهوائها الشفاف، حيث تقف الأشجار عارية مرتاحة فى جسارة أمام السماء، والبيوت متراكمة معًا، والناس معتمون مكتئبون. كل شىء هناك غريب جداً، وحيد جداً، لا حراك، فاقد القوة. والمسافات السحيقة زرقاء فارغة، وغائصة فى السماء الشاحبة، تتنفس الوحشة والبرد فوق الوحل نصف المتجمد. ولكن عقل المؤلف كسطوع الشمس فى الخريف، ينير الدروب المطروقة، والشوارع الملتوية، والبيوت القذرة المتشنجة، التى يلهث تحت سقوفها الناس «الصغار» المساكين، ويزفرون حياتهم فى سأم وكسل، مفعِمين بيوتهم بلغطٍ كسلان لا معنى له. هناك تعيش «الحبيبة» وهى عصبية كفأر رمادى صغير، امرأة حلوة بسيطة تحب بلا حدود، وفى عبودية. اضربها ضربة فى خدها، ولن تجرؤ، وهى الجارية الوديعة، حتى على أن تبكى. وفى جوارها تقف أولجا المكتئبة، إحدى «الأخوات الثلاثة»؛ إنها أيضًا قادرة على الحب بلا حدود، وتخضع فى صبر لنزوات زوجة أخيها الكسول الفظ السافل؛ وحياة أخواتها تتحطم حولها، وهى لا تفعل إلا أن تبكى، غير قادر على أن تصنع شيئًا، بينما لا تتألَّف فى نفسها كلمة حية قوية واحدة لتعترض بها على السوقية.

وهكذا تعيش «رانيفسكايا» دامعة العينين، وبقية المُلاَّك السابقين «لبستان الكرز» - أنانيون كأطفال، ولهم رخاوة الشيوخ. وهم، الذين كان ينبغى أن يموتوا منذ زمن طويل، يعولون ويجهشون بالبكاء،

عميان عما يجرى حولهم، غير فاهمين شيئًا، طفْليين، وعاجزين عن أن يثبِّتوا من جديد بزازاتهم فى زجاجة اللبن، معين الحياة. ويعلن الطالب التافه «تروميڤوف» بفصاحة أن ثمة حاجة للعمل، وهو يبدد وقته، ويسلى نفسه بتعيير ڤاريا فى غير لباقة، وڤاريا تشتغل شغلاً متواصلاً من أجل رفاهية الكسالى.

ويحلم ڤيرشينين بطل «الأخوات الثلاثة» بالحياة الفاضلة التى ستأتى بعد ثلاثمائة، بينما لا يرى أن كل شىء حوله يتقوَّض ويسقط، وأن سوليونى أمام عينيه على استعداد لأن يقتل البارون توزنباخ المسكين، من سأمه وبلادته.

ويمر أمام عينى القارئ موكب طويل من عبيد الحب، متجهين إلى بلادتهم وكسلهم، وإلى اشتهائهم الشره لنعَم الأرض. وهنا عبيد للخوف المظلم من الحياة، يتحركون فى قلق غامض ويملأون الهواء بهذيان، غير مفصح، عن المستقبل، شاعرين بأن لا مكان لهم فى الحاضر.

وأحيانًا يدوِّى طلق نارى بين الجمهرة الرمادية - فهذا «إيڤانوف» أو «تريبليڤ» قد اكتشف فجأة الشىء الوحيد الذى عليه أن يفعله، فطلق أطياف أفكاره.

وينغمس كثير منهم فى أحلام جميلة عن الحياة المجيدة الآتية بعد مائتى سنة، وليس فيهم من يخطر بباله أن يسأل السؤال البسيط:

«من ذا الذى عليه أن يصنع مجد تلك الأيام، إذا كنا نحن لا نفعل شيئًا غير أن نحلم؟».

ويمر الآن رجل عظيم حكيم بهذا الجمع المعتم الموحش من المخلوقات فاقدة الفعالية، ويرمى عليهم نظرة يقظة - هذا الجمع - الكئيب الذى يسكن وطنه، ويقول بابتسامته الحزينة، وبنبرات تأنيب رقيق، إلا أنه عميق، وعلى وجهه وفى قلبه حزن يائس - يقول بصوت مخلص إلى أقصى حدود الإخلاص:

«أى حياة معتمة تعيشونها أيها السادة؟».

خمسة أيام أعانى الحمى، ولا رغبة لى فى الراحة. ومطر الريح الفنلندى الرمادى يجعل الأرض تتلألأ بالتراب المبلل. وترعد مدافع قلعة إينو بلا انقطاع. وفى الليل يلمس السحب لسان المصباح الكشاف الطويل - مشهد تعافه النفس، لأنه يذكر المرء دائمًا بذلك المرض الشيطانى - الحرب.

كنت أقرأ تشيكوف، لو أنه لم يمت منذ عشر سنوات، فلعل الحرب كانت قتلته الآن، بعد أن تسممه أول الأمر بكراهية الناس. وتذكرت جنازته.

أتى نعش الكاتب، الذى كانت موسكو تحبه حبًا جنونيًا، فى عربة خضراء منقوش على بابها كلمة «محار» بحروف كبيرة. وانفصل البعض عن الجمهور الذى تجمَّع فى المحطة ليستقبل جسد الكاتب،

وتبعوا نعش الجنرال كيلر الذى وصل لتوه من منشوريا، وهم يتعجبون ويتساءلون: لماذا تشيِّع تشيكوف إلى مقبرته فرقة الموسيقى العسكرية. وعندما اكتشفوا خطأهم شرع بعض الظرفاء يضحكون ويهزأون. وتبع نعش تشيكوف حوالى مائة شخص، لا أكثر. من بينهم محاميان لبثا شاخصين فى ذاكرتى، كلاهما كان يرتدى حذاء جديداً ورباط عنق مودرن بهيجًا وكأنهما عريسان. وإذ أنا ماشٍ خلفهما سمعت أحدهما، وهو ف. ا. ماكلاكوف يتحدث عن ذكاء الكلاب، والآخر، ولم أكن أعرفه، يتباهى بوسائل الراحة فى ڤيلته الصيفية، وبجمال الطبيعة فى نواحى الڤيلا. وكانت سيدة، ممسكة بمظلة مزركشة بالدانتلا ومرتدية ثوبًا قرمزيًا، تؤكد لسيد مكتهل، على عينيه نظارة إطارها عاجى:

«أوه، كم كان حبيبًا، وسريع الخاطر جداً..».

وسعل السيد الكهل غير مصدِّق. وكان اليوم حارًا متربًا، والموكب يتقدمه ضابط بوليس بدين. وكل هذا، وما هو أكثر من هذا، كان سوقيا مبتذلاً بشكل يثير الاشمئزاز، وبعيداً جداً عن أن يليق بذكرى الفنان الرقيق العظيم.

كتب تشيكوف فى خطاب إلى العجوز ا. س. سوڤورين:

«لا شىء أكثر قتامة وبعداً عن الشاعرية من الصراع المبتذل من أجل البقاء؛ إنه يدمر بهجة الحياة، ويصنع البلادة».

هذه الكلمات تعبر عن مزاج روسى إلى أقصى حد، وفى رأيى أنها لا تناسب أنطون بافلوفتش مطلقًا. ففى روسيا، حيث كل شىء وفير، ولكن الناس لا تحب العمل، يعتنق الروسيون هذا الاعتقاد. الحيوية تعجبهم، ولكنهم لا يؤمنون بها فى الحقيقة. ومن المستحيل أن تنجب روسيا كاتبًا مثل جاك لندن الذى يمثِّل المزاج الإيجابى الفعال، مثلاً. إن كتب جاك لندن منتشرة فى روسيا جداً، ولكنى لم ألحظ أنها تثير حميَّة الروسيين للعمل، إنها تثير خيالهم فحسب. ولكن تشيكوف لم يكن روسيًا صرفًا بهذا المعنى للكلمة. فمنذ شبابه الباكر كان لا بد له من أن يشترك فى «الصراع من أجل البقاء»، فى شكل الاهتمامات اليومية الحقيرة بكسرة الخبز التى لا لون لها ولا بهجة فيها، وقد كان بحاجة إلى كسرة كبيرة من الخبز للآخرين، فضلاً عن نفسه. وكان لا يرى فى الحياة إلا الجهاد المضنى من أجل الكفاية من الطعام، ومن أجل السكينة. وكانت قصص الحياة ومآسيها العظيمة يخفيها عن بصره حائط سميك من الشئون العادية. وبعد أن لم يعد يحمل همَّ كسب الخبز للآخرين، استطاع أن يلقى نظرة نافذة على الحقيقة فى تلك القصص والمآسى.

لم ألتق برجل أبداً يحس بأهمية العمل كأساس للثقافة، مثلما يحس تشيكوف بذلك إحساسًا عميقًا وشاملاً. وإحساسه هذا كان يتبدَّى فى كل المظاهر الصغيرة لحياته البيْتية، فى اختيار الأشياء للبيت، فى حبه للأشياء فى حد ذاتها؛ ومع أنه كان منزَّهًا عن شهوة

الاقتناء، لم يكن ينى أبداً عن الإعجاب بالأشياء كنتاج للروح الخلاقة فى الإنسان. كان يحب البناء، وزراعة الحديقة، وتزيين الأرض، ويحس بشاعرية العمل. بأى اهتمام مؤثر كان يرقب نمو أشجار الفواكه والأعشاب المزهرة التى زرعها بنفسه! وفى وسط الهموم العديدة التى يثيرها بناء بيته في أوتكا، كان يقول:

«إذا كان كل امرئ فى العالم يصنع ما فى طاقته أن يصنعه فوق قطعة الأرض التى يملكها، فأى عالم جميل يصبح عالمنا!».

وكنت حينذاك فى فترة العناء الشديد الذى يسبق ولادة مسرحيتى «ڤاسيلى بوسلاييف». وقرأت له كلمات فاسيلى المزهوًّ:

«إذا كنت فقط أملك قوة أعظم!

إذن لأذبت الثلوج حولى بنَفَسى الحار،

ولجبت العالم وحرثت أراضيه،

وأسست بلداناً ومدائن جليلة،

وبنيت كنائس وزرعت بساتين،

حتى يبدو العالم كبنت حلوة؛

وكنت أحتضنها فى ذراعى، كالعروس،

وأضم الأرض إلى صدرى،

وأرفعها وأحملها إلى اللّـه:

انظر يا إلهى وسيدى، انظر إلى العالم من تحتك،

انظر كم جعلتُه جميلاً الآن!

لقد رميتَه أنت كحجر من السماء،

وجعلتُه أنا كجوهرة ثمينة،

انظر إليه وليفرح به قلبك!

انظر كيف يسطع مخضراً تحت شمسك.

إنى كنت لأهبك إياه عن طيب خاطر،

ولكنى لا أستطيع - فهو أعز عندى من أن أفرط فيه».

* * *

وقد أحب تشيكوف هذه الكلمات وقال لى وللدكتور ا. ن ألكسين وهو يسعل بعصبية:

«جيد... جيد جداً... صادق، إنسانى. ذلك بالدقة هو الموضوع الذى ينحصر فيه معنى كل فلسفة. فالإنسان قد سكن العالم، ولسوف يجعله مكاناً طيباً للسكنى».

* * *

وأطرق برأسه وكرر فى جزم: «سيفعل!».

وطلب إلىّ أن أقر أقاسيلى مرة أخرى، وأنصت وهو ناظر من النافذة:

«البيتان الأخيران لا يناسبان القصيدة، ففيهما تحدٍّ زائدين».

لم يكن يتحدث عن عمله الأدبى إلا نادراً، وعلى رغمه، كنت على وشك أن أقول إنه كان يتحدث عن أدبه بنفس التحفظ العذرى الذى يصبغ حديثه عن تولستوى. وفى أحيان قليلة جداً، وإذا كان يشعر بانبساط، يروى لنا أحداث قصة له، وهو يضحك - دائماً قصة ساخرة:

«اسمع، أنا مقبل على كتابة قصة عن مدرِّسة، ملحدة - إنها تعبد داروين، ومقتنعة بضرورة محاربة صنوف التعصب والخرافات بين الناس؛ ومع ذلك فهى نفسها تذهب إلى حمام عام فى منتصف الليل لتسْلق قطة سوداء وتنزع من جسدها عظمة الترقوة لتجتذب رجلا وتثير حبه لها - هناك عظمة بهذا الاسم، تعرف...».

وكان يقول دائماً عن مسرحياته إنها «مسلية»، ويبدو عليه حقيقة أنه مقتنع اقتناعاً مخلصاً بأنه كتب «مسرحيات مسلية». ولا شك أن سافاموروزوف كان يردد نفس كلمات تشيكوف حين أصرَّ فى عناد على زعمه أن: «مسرحيات تشيكوف ينبغى أن تُخرج بأسلوب الكوميديا الغنائية».

ولكنه كان يخص الأدب بوجه عام بأعظم العناية، وبخاصة فيما يمس قضية «الناشئين». وقد قرأ النسخ الخطية المطولة التى كتبها

«ب. لازاريفسكى»، و «ن. أوليجر»، وكثيرون غيرهم، فى صبر مثير للإعجاب.

وكان يقول: نحن بحاجة لكتاب أكثر، فالأدب لا يزال شيئًا جديدًا فى حياتنا اليومية، حتى بالنسبة «للخاصة». فى النرويج كاتب لكل مائتين وستة وعشرين مواطنًا، وهنا كاتب واحد لكل مليون نسمة.

كان داؤه يثير فيه أحيانًا الوهم بالمرض، بل يثير فيه حتى مزاج المُبغض للناس. وفى مثل هذه الأحيان يصبح تشيكوف نقادًا متطرفًا، ويصعب جدًا أن تسايره.

كان يرقد على الأريكة ذات يوم، ويسعل سعلات جافة، ويعبث بالترمومتر. وقال:

«ليس من المسلى بأية حال أن تعيش ولا غاية لك إلا أن تموت. ولكن لئن تعيش وأنت عارف أنك ستموت قبل الأوان، فهذا فى الحقيقة من قبيل العته...».

وكان مرة أخرى جالسًا بجوار الشباك المفتوح يحملق فى الفضاء نحو البحر، فقال فجأة وهو متبرم:

«لقد اعتدنا أن نعيش ومعقد آمالنا: جو حسن، حصاد جيد، مغامرة غرامية عذبة، أملنا أن نصبح أثرياء، أو أن نتولى وظيفة رئيس البوليس، ولكنى لم أر أحدًا يأمل أن يصبح أكثر حكمة. ونقول

لأنفسنا: ستتحسن الأحوال فى عهد قيصر جديد، وفى خلال مائة (مائتى عام) ستصبح أحوالنا أحسن، ولا أحد يحاول أن يجعل هذا العهد السعيد يقبل غداً، على العموم، الحياة تصبح أكثر تعقّداً يوماً بعد يوم، وتطّرد كل يوم على هواها، والناس يصبحون أكثر حمقاً، وأكثر عزلة عن الحياة».

وسكت لحظة، ثم أضاف وجبهته تتجعد:

«كالشحاذين الكسيحين فى موكب دينى».

لقد كان طبيباً، ومرض الطبيب دائماً أسوأ من أمراض مرضاه. فالمرضى يشعرون فحسب، ولكن الطبيب فضلاً عن أنه يشعر، ففى ذهنه فكرة واضحة جداً عن تأثير المرض، وتخريبه لبنيته. هذا هو الظرف الذى تُدنى فيه المعرفة ساعةَ الهلاك.

كانت عيناه جميلتين حين يضحك، وتلوح فيهما حينذاك رقة أنثوية، ولمحة طرية لطيفة. وكان لضحكته، التى لا صخب فيها، جاذبية خاصة. ويلوح لى أنه كان حقيقة يستمتع بالضحك. إنى لم أعرف أبداً شخصاً يستطيع أن يضحك «بروحه» مثل تشيكوف، إذا صح هذا التعبير.

ولم تكن القصص المكشوفة تضحكه أبداً.

قال لى ذات مرة، بابتسامة طيبة مبتهجة:

«هل تعرف سبب تقلّب أطوار تولستوى معك؟ إنه يغار، ويخاف أن يحبك سولر زتسكى أكثر مما يحبه. إنه يغار حقًّا! لقد قال لى أمس: لا أعرف كيف أعلل أنى، على نحو ما، لا أستطيع أن أتمالك نفسى وجوركى فى صحبتى. ولا أحب لسولر أن يصحبه، فذلك سوف يؤذيه. إن جوركى شرير. إنه كطالب لاهوت أُرغم على أن يقسم قسم الرهبان، وله مظلمة ضد العالم كله. إن له روح الرسول، وقد أقبل من مكان ما إلى أرض كنعان، وهى أرض غريبة عليه، فلبث ينظر حواليه، ويلحظ كل شىء، ليكتب تقريراً عن هذا كله يرفعه إلى إله ما يدين له. وإلهه مسخ هائل، عفريت خشبى، أو هو جن مائى كهذه الكائنات التى تخافها نساء الريف».

وضحك تشيكوف حتى دمعت عيناه، وهو يقول ذلك لى، واسترسل يتكلم وهو يمسح دموعه:

«قلت له: جوركى فنى طيب؛ ولكنه قال: لا، لا، لا تقل هذا! إن له أنفًا كمنقار البطة؛ التعساء وذوو الخلق الضيق وحدهم لهم أنوف كتلك. النساء لا يحببنه، والنساء كالكلاب يتعرفن دائمًا على الرجل الطيب. وسولر، كما تعرف، له موهبة الحب النزيه التى لا تقدر بثمن. وهو من هذه الناحية عبقرى. إن كان فى وسعك أن تحب، ففى وسعك أن تفعل أى شىء...».

وسكت تشيكوف لحظة، ثم استطرد يقول:

«نعم، فالرجل العجوز يغار... أليس رجلاً عجيباً؟».

وعندما كان يتحدث عن تولستوى، كانت تسبح فى عينيه ابتسامة لا تكاد تلحظ، رقيقة وخجولة معًا، وكان يخفض صوته كأنه يتحدث عن شىء قابل للكسر، وغامض، شىء ينبغى أن يتناوله المرء فى حرص، وفي حب.

كان يبدى أسفه دائمًا من أن أحداً لا يلازم تولستوى ليدوِّن ما يتفوه به الرجل الحكيم من أقوال متناقضة غالبًا، ماهرة، غير متوقعة.

وقد ألح على سولر قائلا: «ينبغى أن تفعل ذلك أنت، فتولستوى مولع بك جداً، وهو كثيراً ما يتحدث إليك، ويقول أشياء رائعة جداً».

وقال لى تشيكوف عن سولر نفسه:

«إنه طفل عاقل»!

قول محكم جداً.

سمعت تولستوى مرة يمتدح قصة لتشيكوف، أظنها «الحبيبة»، قال:

«إنها كالدانتلا التى تنسجها عذراء فاضلة. كان من المألوف قديمًا أن تجد بنات ينسجن الدانتلا. وكن طوال حياتهن ينسجن أحلامهن بالسعادة فى القماشة. كن ينسجن أعذب أحلامهن، وكانت الدانتلا التى ينسجنها تتشرب بتلهفهن الغامض الصافى، على الحب». قال تولستوى هذا فى عاطفة صادقة، والدموع فى عينيه.

ولكن تشيكوف في ذلك اليوم كانت حرارته مرتفعة، وهو جالس ورأسه مثنية، وعلى خديه بقع ملونة نضرة، وهو يمسح نظارته بعناية. سكت بعض الوقت، وأخيرًا تنهَّد، وقال في ليونة وارتباك: «في القصة أخطاء مطبعية».

في الإمكان أن تكتب الكثير عن تشيكوف. ولكن هذا يحتاج إلى رواية دقيقة أمينة، وهو ما لا أُحسنه أنا. ينبغي أن تتخذ الكتابة عنه نفس الأسلوب الذي كتب هو به «الاستبس»، وهي قصة روسية صرف، معطرة، طلقة كالهواء، وفيها تفكير عميق. قصة كُتبت للنفس.

يطيب للمرء أنه يتذكر رجلاً كهذا، فكأن المرء بانبعاث هذه الذكرى يزور الحبور نفسه زيارة مفاجئة، زيارة تضفي على الحياة مرة أخرى، معنى واضحًا.

إن الإنسان محور الكون.

ورذائله – أنت تسألني – وأوجه قصوره؟

كلنا نسغب لحب بني جنسنا، وحين يسغب المرء، فحتى الرغيف غير المخبور جيدًا يصبح حلو المذاق!

* * *

فلاديمير كورولنكو، وَعصْره

غادرت تساريتسين فى فجر يوم معتم عاصف، فى شهر مايو، قاصداً الوصول إلى نيچينى - نوفجورود حوالى سبتمبر.

وقد ركبت لبعض الطريق مع غفراء السكك الحديدية فى قطارات البضائع، فوق الصدادات، وقطعت معظم الطريق على قدمى، أكسب خبزى بالعمل فى القرى، وفى الأديرة. وعبرت إقليم الدون إلى ولايتى تامبوث وريازان. ومن ريازان مشيت بحذاء نهر أوكا، وانحرفت تجاه موسكو، ثم ذهبت إلى منطقة خاموڤنيكى لأزور تولستوى. وأخبرتنى صوفيا أندرييڤنا أنه رحل إلى دير تروتيسكو - سيرچيڤسكايا. وقد قابلتها فى الفناء على باب حظيرة تكدست فيها حزم الكتب، فقادتنى إلى المطبخ، وقدّمت لى من طيبة قلبها كوبة قهوة ورغيفًا أبيض، وأخبرتنى بالمناسبة أن كثيرين جداً من «الصيّاع المريبين» قد عرفوا الطريق إلى ليوتولستوى، وأن فى روسيا وفرة زائدة فى عدد الكسالى. وكنت قد رأيت ذلك بنفسى، وأستطيع أن أعترف دون أدنى شك فى إخلاصى: أن ملاحظة تلك المرأة الذكية كانت حقيقية تمامًا!

كان سبتمبر يقترب من نهايته، وأمطار الخريف تسقط على الأرض بشدة، والريح باردة تقلب أعشاب الحقول، والغابات فى أزهى ألوانها أنه فصل جميل جداً، ولكنه ليس مريحًا جداً للمسافر على قدميه؛ وبخاصة إذا كان فى حذائيه ثقوب.

وعند تحويلة سكة حديد موسكو رجوت الغفير أن يسمح لى بدخول عربة البهائم، وكانت بها ثمانية ثيران جركسية مرحَّلة إلى مذبح نيچينى نوفجورود، وقد كانت خمسة منها حسنة السلوك للغاية، ولكن بقيتها، لسبب ما، لم تلقَنى فى كرم، وَجعَلت طول الطريق تبذل غاية جهدها لتوقع بى كل صنوف المضايقة. وكلما نجحت فى مضايقتى، كانت تنفخ من أنوفها وتخور فى رضى.

وألزمنى الغفير، وهو سكير مقوس الساقين، وله شارب مهلهل، بواجب إطعام رفاق سفرى. وكان كلما توقف القطار، رمى بحزمة التين من باب العربة، وصاح بى:

«قدم لهم!».

وقضيت أربعة وثلاثين ساعة فى رفقة الثيران، معتقداً بجد أنى لن ألقى حيوانات أرذل منها فى حياتى.

وكانت معى كراسة مليئة بالأشعار فى جيب قميصى، وقصيدة نثرية رائعة عنوانها «أغنية السنديانة العجوز».

لم أكن فى حياتى أبداً أميل إلى تأكيد ذاتى، وكنت فى ذلك الوقت لا أزال شبه أمي. ولكنى كنت أعتقد مخلصاً أنى قد كتبت قصيدة مدهشة. وكنت وضعت فيها كل ما تمعّنت فيه خلال عشر سنوات من حياة نشطة وبعيدة عن أن تكون سهلة. كنت مقتنعاً بأنه إذا قرأ شخص متعلم قصيدتى فسيدهش من جدة كل ما وضعته أمام عينيه، وبأن صدق ملحمتى سيذهل كل سكان الأرض، حتى لأبدأ فى الحال حياة شريفة، صافية، خالصة من الهموم - وهذا كل ما كنت أريده.

وفى نيچينى - نوفجورود قابلت ن. ى. كارونين، وزرته مراراً دون أن أخاطر، على أية حال، بأن أريه قصيدتى الفلسفية. وقد أثار نيكولاى كارونين المريض فى نفسى شعوراً حادا بالشفقة، وأحسست بجماع نفسى أن هنا رجلاً يتأمل، فى عناد وفى ألم، شيئًا هاما ما.

إنه ليقول: «ربما كان الأمر على هذا النحو»، ثم ينفث سحباً كثيفة من دخان السيجارة من منخريه، ويغترف منها نفساً عميقًا ثانيًا، وبعد أن يفرغ من ذلك يضحك ويقول:

«وربما لم يكن الأمر على هذا النحو».

وكان حديثه يدهشنى جداً، ولم يكن فى وسعى إلا أن أحس بأن كيانه المعذب يستأهل، وينبغى أن يصدر عنه، حديثًا مغايراً، وأكثر تحديداً. وهذا بالإضافة إلى عطفى عليه، جعلنى حذراً بعض الشىء فى معاملتى له، كأنما كنت أخاف أن أجرحه، أو أن أسبب له ألماً.

وكنت قد رأيته فى قازان حيث أقام بضعة أيام فى طريق عودته من المنفى. وقد ترك فىّ أثراً لا يمحى؛ كما يتأثر المرء برجل لبث طوال حياته يعيش فى مكان لا يريد أن يعيش فيه.

«والآن، أى شيء على وجه الأرض جعلنى آتى هنا».

كانت هذه هى الكلمات التى لقيتنى داخلا فى الغرفة المعتمة، فى الملحق ذى الطابق الواحد القائم فى الفناء القذر لحانة العربجية.

وفى وسط الغرفة كان يقف رجل طويل منحدر الكتفين، ينظر متأملاً فى ميناء ساعة كبيرة الحجم، وفى أصابع يده سيجارة يتصاعد منها الدخان. وبدأ يذرع أرض الغرفة بساقيه الطويلتين ويجيب إجابات مقتضبة على أسئلة س. ج. سوموف، وهو أحد ملاك الأرض.

كانت عيناه قصيرتى مدى النظر، صافيتين، تشبهان عيون الأطفال، وتبدوان منهكتين ومضطربتين. وكان خداه وذقنه مغطاة بخصلات شعر خشن أشقر، أطوالها غير مستوية. وفوق جمجمته كان ينمو شعر كشعر القسس، مستقيم وقديم العهد بالغسل. دفع يده اليسرى فى جيب بنطلونه غير المكوى، وشخشخ بعض النقود النحاسية فيه، ويده اليمنى ممسكة بسيجارة يلوِّح بها كعصا المايسترو. واغترف نفَساً من السيجارة، وظل يسعل سعلات جافة، وعيناه لا تتحولان عن الساعة، وهو يصدر من شفتيه أصواتًا موحشة، مثل قراق الدجاج. وكانت حركة جسده، القائم على هيكل عظمى غير متناسب، تدل

على أنه رجل يعانى تعبًا مميتًا. وكانت الغرفة تمتلئ رويداً ببضعة تلاميذ مدارس، وطلبة، وخباز، ذوى مظهر كالح.

روى لهم كارونين مغامراته فى المنفى بنبرات مسلول جوفاء، وأنبأهم بالمزاج الذى يسود بين المنفيين السياسيين. وكان يتحدث فلا ينظر إلى أى منهم، كأنه يحدِّث نفسه، ويسكت مراراً لحظات قصيرة. ويدير عينيه فيما حوله فى عجز، بينما هو جالس على حافة النافذة، وفوق رأسه شباك زجاجى مفتوح، تدخل منه هبة هواء بارد، مشربة برائحة روث الخيل وفضلاتها. وكان شعر رأس كارونين يتهوش، فيسويه بأصابعه الطويلة بادية العظام، ويجيب على الأسئلة:

«مستحيل، ولكنى لست متأكداً من أن الأمور تجرى على هذا المنوال. لا أعرف. لا أستطيع أن أحدد».

ولم يكن الشبان يحبون كارونين. فقد اعتادوا الإصغاء إلى ناس يعرفون كل شىء ويحسنون الحديث. وكان مجرد حرصه وهو يروى القصة، ينتزع من أفواههم التعليق التهكمى: «الأرنب المذعور».

ولكن الرفيق أناتولى الزّجاج، كان يعتبر نظرة كارونين المتأملة، الأمينة، كنظرة الطفل، وترديده عبارة «لا أعرف»، مما يمكن تفسيره على أنه نوع آخر من الخوف. إنه رجل يعرف الحياة جيداً، ويخاف أن يضلل قطيعه البرىء بأن يروى لهم أكثر مما هو واثق منه بصدق. والناس الذين عانوا تجربة مباشرة فى الحياة، مثل أناتولى ومثلى،

يميلون إلى الاستـرابة فى الكتـبين. ولقـد كنا نعـرف تلامـيـذ المدارس جـيـداً. ونسـتطيـع أن نرى أنهـم، فى تلك اللحظـات، يغـالون فـى التظاهـر بالجدية.

وحوالى منتصف الليل توقف كارونين عن الكلام فجأة، وخطا إلى وسط الغرفة. ووقف هناك فى سحابة من الدخان، يدعك وجهه براحة يده فى عصبية، كأنما يغسله بماء خفى، ثم أخرج ساعة من تحت حزامه، وأمسك بها فوق أنفه مباشرة وقال مستعجلا:

«حسـن جداً إذن، يجب أن أذهب الآن، فابنتى مريضة «جداً». إلى اللقاء».

وضغط بأصابعه فى حزم على الأيدى الممدودة إليه. وغادر الغرفة مبتهجاً يترنح، وبدأنا نحن نقاشاً سخناً - وهو النتيجة الحتمية لمثل هذه الأحاديث.

وأقام كارونين يراقب فى اهتمام الحركة التولستوية بين مثقفى نيچينى - نوفجورود، وساعد فى تشييد مستعمرة فى ولاية سيمبرسك. وقد وصف الانهيار السريع لهذه الخطط فى قصته «مستعمرة بورسكايا».

نصحنى بقوله: «حاول أن تعود إلى الفلاحة، فربما يناسبك ذلك». ولكنى لم تكن تبهرنى التجارب الانتحارية لتعذيب النفس. وفوق ذلك فقد رأيت م. نوفوسيولوف فى موسكو، وهو واحد من المؤسسين

الرئيسيين لنظريات التولستويين، وأنشأ مستعمرتي تڤير وسمولنسك، ثم أصبح فيما بعد كاتبًا فى «مجلة الكنيسة الأرثوذكسية»، وعدو تولستوى اللدود.

كان رجلاً طويلاً، يملك قوة بدنية لا بأس بها، مزهوا ببدانته؛ ولست أقول بفظاظة فكره ومسلكه. وقد استطعت أن ألمح خلف هذه الفظاظة ضغينة الطموح، غير مخبأة جيداً. وقد كان يرفض «الثقافة» بخشونة، على نحو ساعنى منه - فقد كانت الثقافة فى نظرى مجالاً أُحرز فيه تقدمًا شاقا، وتعوقنى فيه عقبات لا حصر لها.

وقد تعرفت عليه فى بيت نيكاييفست أورلوف، الذى ترجم ليوباردى وفلوبير. وهو أحد مؤسسى سلسلة «البانثيون الأدبى» الرائعة. وقد ظل الرجل العجوز الذكى المثقف ثقافة عالية يعرض التولستوية طيلة المساء على أنها سخافة مخرِّبة، وكنت فى ذلك الحين شديد الاهتمام بعقيدة التولستوية التى لم أكن أعتبرها، على أية حال، إلا فرصة للاعتزال المؤقت إلى ركن هادئ حيث أستريح وأتأمل كل ما قد عانياه.

وكنت أعرف بالطبع أن ف. ج كورولنكو يقيم فى نيچينى - نوفجورود، وقد قرأت له «حلم مقار»، وهى قصة لم أهتم لها على نحو ما.

وفى يوم مطير كنت أتمشى مع صديق لى، فالتفت هذا جانبًا وقال:

«كورولنكو!».

ورأيته رجلاً متين البنيان عريض الكتفين، يرتدي معطفًا أشعث، ويمشى بخطوات واسعة فى عزم على الرصيف، ومن تحت المظلة التى كانت تسقط منها قطرات المطر، رأيت أن له لحية مجعدة. وقد ذكرنى حينذاك بتجار البهائم «التامبوفيين»، وهم قبيلة من الناس كرهتها لأسباب قوية؛ فلم أشعر بأدنى رغبة فى أن أتعرف إليه. ولم تُثِر فىّ مثل هذه الرغبة نصيحة جنرال البوليس لى - فقد نصحنى الجنرال بأن أزور كورولنكو، وهذا مثل للمقالب الطريفة التى تدبرها الحياة فى روسيا.

فقد قبض علىَّ، وأودعت أحد الأبراج الأربعة لسجن نيچينى - نوفجورود، ولم يكن فى زنزانتى الدائرية شيء هام إلا نقش محفور على الباب الموثق بالحديد يقول:

«كل الحياة تنبثق من خلية».

وقد حيَّرنى معنى هذه الكلمات وقتًا طويلاً، لم أكن أعرف أن هذه الكلمات تؤلف «بديهية بيولوجية»، فانتهيت إلى الظن بأنها كلمات صدرت عن رجل يمزح.

وأُخذت إلى الجنرال بوزنانسكى للتحقيق. فخبط الجنرال بيده السمينة القرمزية على الأوراق التى أُنزعت منى، وقال ضمن الأصوات التى صدرت عن فمه:

«إن لك هنا بعض الأشعار الجيدة، وجميعها... استمر فى الكتابة. شعر جيد - يسر القارئ...».

وقد سرنى أنا أيضًا أن أعرف أن الجنرال يسهل عليه قبول حقائق معينة. ولم أكن أعتبر كلمة «جيد» صفة دقيقة لشعرى. وفى ذلك الوقت لم يكن سوى القليلين جدًا من المثقفين، من يوافقون الجنرال فى تقديره للشعر.

إن ا. ا. سفيدنتسوف، مثلاً، وهو الكاتب، وضابط الحرس الذى نُفى ذات مرة، وكتب قصصًا حزينة فى المجلات الرصينة، كان يتحدث فى حرارة عن أعضاء جمعية «إرادة الشعب»، وبخاصة عن فيرا فيجنر، ولكنى عندما قرأت عليه أبيات فوفانوف:

لم أسمع ما قلت،

ولكنى أظنك قلت شيئًا رقيقًا.

نفخ بأنفه وهو مغضب:

«ثرثرة بلهاء. ربما لم تكن قد سألته إلا عن الساعة، فابتهج هو. الغبى!».

كان الجنرال رجلاً مكتنزًا يرتدى قميصًا رماديًا بعض زرايره ضائعة، وبنطلونًا مهردلا، وكانت عيناه الندبتان الداكنتان تحملقان محزونتين متعبتين، ووجهه منتفخ بشعر أشيب مهدّب، وبشبكة من العروق القرمزية. وأحسست أنه رجل عاطفى ومهمَل، ولكنه ليس بغيضًا؛ وذكرنى بكلب أصيل، هرم ومنهوك حتى إنه لا يستطيع النباح.

وقد عرفت مأساة حياة الجنرال من مجموعة أحاديث ا. ف. كوني. عرفت أن ابنته كانت عازفة بيانو موهوبة، وأنه هو كان مدمن أفيون. وكان مؤسساً ورئيساً «للجمعية التكنيكية» في نيچيني - نوفجورود، وأنه بينما كان في اجتماعات الجمعية يحقِّر من شأن الصناعات اليدوية، كان مفتتحاً دكاناً في الشارع الرئيسي للبلدة لبيع سلع مصنوعة يدوياً في الولاية. وكان يرسل إلى بطرسبرج بلاغات ضد مواطنيه كورولنكو، والمحافظ بارانوف الذي كان هو الآخر مدمناً على كتبة الشكاوى.

وكل شيء حول الجنرال كان يدل على الإهمال، فرش السرير مكوَّماً وملقى على الأريكة الجلدية، ومن تحتها يطل حذاء قذر وكتلة من المصيص لا بد أن وزنها يبلغ بضع عشرات الأرطال. وكانت الطيور المغردة من حسون ودقانش تنط في أقفاص معلقة أمام الشباك. وكانت هناك منضدة في ركن المكتب فوقها أجهزة علمية مبعثرة، وعلى المنضدة التي أمامي كتاب فرنسي سميك عنوانه «نظرية الكهرباء»، ومجلد شيشينوف «الانعكاسات العصبية للكتلة المخية».

ولبث الرجل الهرم يجذب أنفاس سجائره الغليظة القصيرة بلا انقطاع، وسُحب الدخان المنبعثة منها تثير أعصابي، وتلحُّ على ظني بفكرة سخيفة، هي أن الطباق ممزوج بالمورفين.

قال في تهيج: «أي صنف من الثوريين أنت؟ أنت لست يهودياً، ولا بولندياً. وتكتب - حسن، أي بأس في ذلك؟ اسمع، عندما أطلق

سراحك، اجعل كورولنكو يرى مخطوطاتك - تعرفه؟ لا تعرفه. إنه كاتب جاد، كاتب جيد مثل تورجنيف...».

وكانت ترف حول الجنرال رائحة ثقيلة خانقة، وهو يتحدث كأنه عازف عن الحديث، وينتزع الكلمة بعد الأخرى فى جهد واضح. وكان ذلك مملا للغاية. وأمعنت النظر فى صندوق صغير بجوار المنضدة، كانت به صفوف من الأقراص المعدنية.

وحين لاحظ الجنرال اتجاه نظرتى، مال إلى أعلى فى حركة ثقيلة:

«ألك اهتمام بها؟».

وأزاح كرسيه قريبًا من الصندوق، وفتحه وهو يقول:

«إنها ميداليات ضُربت فى ذكرى أحداث تاريخية وأشخاص. هذه واحدة صنعت إحياء لذكرى سقوط الباستيل، وهذه لذكرى انتصار نلسن فى أبو قير - هل تعرف تاريخ فرنسا؟ وهذه لذكرى قيام الاتحاد السويسرى، وها هو جالڤانى المشهور - انظر أى صنعة جميلة!. وهذا كوڤيير، ليست متقنة كالأخرى».

وارتعشت نظارته فوق أنفه القرمزى، ونشطت عيناه النديتان، وأمسك بالميداليات بين أصابعه الغليظة فى حرص، كأنما هى من الزجاج لا من البرونز. وهمهم:

«صنعة فنية جميلة!».

وزم شفتيه على نحو مضحك، ونفخ التراب من فوق الميداليات.

وقد أُعجبت في إخلاص بجمال الأقراص المعدنية، وأدركت أن الجنرال العجوز يحبها في حنان.

وبعد أن أغلق غطاء الصندوق وهو يتنهد، سألني عما إذا كنت أحب الطيور المفردة. وكان هذا مجالاً ألفته بالتأكيد أكثر مما يألفه الجنرال؛ فاسترسلنا في محادثة حية عن الطيور.

وحتى بعد أن دعا الرجل العجوز شرطيا ليعيدني للسجن، وبعد أن أتى الشرطي ووقف وقفة الانتباه على الباب، كان الجنرال لا يزال يتحدث ولسانه يقرق كالدجاج. ويقول برنة أسف:

«لم أستطع للأسف أن أحصل على واحد من طيور الغطاس. إنه طير جميل. كلها. الطيور كلها كائنات رائعة، أليس كذلك؟ حسن، انصرف، أوه، نعم»، وأضاف كمن يتذكر شيئًا فجأة: «ينبغي أن تتعلم الكتابة، لو تعرف، لا كل هذا...».

وبعد بضعة أيام كنت جالسًا للمرة الثانية قبالة الجنرال، وهو يهمهم مغضباً:

«أنت تعرف طبعًا أين ذهب سوموف، كان يجب عليك أن تقول لي، فأطلق سراحك في الحال. وما كان يليق أن تضحك من الضابط الذي فتش غرفتك، و... على الإطلاق...».

ولكنه مال نحوى فجأة، وسألنى فى بشاشة:

«إذن فأنت لم تعد تصيد الطيور بالفخاخ؟».

وبعد عشر سنوات من معرفتى المتعة بالجنرال، قبض علىّ؛ ولقيت نفسى فى مركز بوليس نيچينى - نوفجورود أنتظر التحقيق. فأقبل علىّ ياور الضابط، وهو شاب، وسألنى:

«هل تذكر الجنرال بوزنانسكى؟ لقد كان أبى. مات فى تومسك. كان شديد الاهتمام بمصيرك، ويتابع نجاحك الأدبى، وقال مراراً إنه كان أول من اعترف بموهبتك. وقبل موته بقليل طلب إلىَّ أن أعطيك تلك الميداليات التى أعجبتك - هذا، إذا كنت تريد أن تقبلها...».

ولم أتمالك نفسى من التأثر. وعندما غادرت السجن قبلت الميداليات وأهديتها إلى متحف نيچينى - نوفجورود.

... لم يقبلنى الجيش، فالطبيب السمين الطروب الذى كان أشبه بالجزار، ويُجهز على العساكر كأنها ثيران جاءت للذبح، قال وهو يفحصنى:

«فى رئتك ثقب، وفى ساقك شريان متورم، أيضاً، غير صالح!» وقد غاظنى هذا جداً.

فقبل استدعائى بوقت قصير، كنت قد تعرفت بطوبوغرافى عسكرى، اسمه باسخين أو باسخالوف، أو نحو ذلك.

وكان ذلك الرجل قد اشترك فى معركة كوشكا؛ ووصف لى الحياة على حدود أفغانستان وصفًا أثار شغفى، وكان يتوقع أن يبعث به فى الربيع إلى صحراء بامير، ليمسح أرض الحدود الروسية.

كان طويلاً نحيلاً، ولكنه شديد العضل، مشدود القامة. وكان يرسم لوحات زيتية صغيرة ماهرة تصوِّر الحياة العسكرية بأسلوب فيدوتوف، ومسلية جدًا، وقد شعرت بشىء ناشز فى نفسه، صراع ما، هذا الشىء المجهول الذى نسميه «بغير العادى». وقد حاول أن يغرينى باللحاق بوحدة مساحة.

قال: «سآخذك إلى صحراء بامير. وسترى أجمل منظر فى الدنيا – الصحراء. إن الجبال شىء مشوش، أما الصحراء فشىء متسق».

وضيَّق عينيه الكبيرتين الرماديتين، الجوابتين على نحو غريب، وخفض صوته الناعم المهدهد إلى حد الهمس، وهمهم فى غموض بكلمات عن جمال الصحراء. فأصغيت له بإعجاب، وقد ألجمنى الذهول. كيف يمكن لأى من الناس أن يتحدث – وهو مسلوب هكذا – عن الفراغ، عن رمال بلا نهاية، وسكون لا ينقطع، وحرٍّ لافح، وعذاب الظمأ؟

ولمَّا علم أنى لم أُقبل فى الجيش قال: «لا يهمك. اكتب تبليغًا بأنك تريد أن تتطوع فى وحدة ومن وحدات المساحة، وتتعهد بأن تجرى عليك الاختبارات اللازمة؛ وسأدبر لك كل شىء».

وكتبت التبليغ وسلمته، وانتظرت النتيجة واجف القلب. وبعد بضعة أيام قال لى باسخالوف وهو مرتبك:

«يبدو أنهم لا يستطيعون التعويل عليك سياسيًا، وعلى ذلك فما من شىء يمكننى أن أصنعه».

وخفض عينيه، وأضاف برقة:

«يؤسفنى إنك أخفيت عنى هذه الحقيقة».

فقلت له إن هذه «الحقيقة» خبر جديد علىَّ أنا أيضًا، ولكنى لا أظن أنه صدقنى. وبعد مغادرته للبلدة مباشرة، فى عيد الميلاد، قرأت فى صحيفة تصدر فى موسكو أنه ذبح نفسه بموسى فى الحمامات العامة.

واطَّردت حياتى، معذبة وشاقة، اشتغلت فى مستودع للبيرة، أدحرج البراميل إلى قبو رطب، وأغسل الزجاجات وأثبت سداداتها. وكانت هذه الشغلة تستغرق يومى بطوله. ثم التحقت بمكتب للتقطير، ولكن هاجمنى فى يومى الأول كلب سلوقى تملكه زوجة مدير المصنع، فقتلته بضربة من قبضتى على جمجمته الطويلة، ففُصلت لذلك فى الحال.

ومرة، ذات يوم جوه ردىء، حزمت أمرى على أن أطلِع ف. ج. كورولنكو على قصيدتى. وكانت عاصفة جليدية قد لبثت تزمجر منذ ثلاثة أيام، وقد تراكمت فى الشوارع أكوام الجليد، ولاحت أسطح

البيوت كأنها ترتدى قبعات ريش أبيض، كأنها أعشاش طيور ذات غطيان فضية، وكأن زجاج النوافذ مغطى بقراطيس ثلجية، بينما تلتمع الشمس الباردة فى السماء الساحبة، فتخطف الأبصار، مثابِرة.

كان فلاديمير جالاكتيونوفتش كورولنكو يقيم فى أطراف البلدة، فى الطابق الثانى من بيت خشبى. ورأيت على الرصيف أمام سقيفة البيت رجلاً متين البنيان، يرتدى غطاء رأس من الفرو عجيب الشكل، وتلفيعةً للأذنين، وسترة من جلد الغنم غير متقنة، وتبلغ ركبتيه طولاً، وحذاء مكسواً باللباد من طراز ڤياتكا، وهو يشتغل فى مهارة بجاروف ثقيل.

وتعثرت وأنا أخوض فى كومة جليد متجهًا نحو السقيفة.

«من تريد؟».

«كورولنكو».

«أنا كورولنكو».

ونظرت إلىّ عينان طيبتان بنيتان، تطلان من وجه تحوطه لحية كثة مجعدة، وقد غطاها الجليد. لم أتعرف عليه، إذ إنى لم أكن قد رأيت وجهه ساعة قابلته فى الشارع، واتكأ كورولنكو على ذراع الجاروف، وأنصت لى فى سكون وأنا أشرح له سبب زيارتى، ثم رفع عينيه، وبدا عليه أنه قد تذكر شيئًا.

«أعرف هذا الاسم. ألست أنت الرجل الذى كتب لى عنه من يسمى ميخايلو أنطونوفتش روماس، منذ سنتين؟».

واقترب من السلم، وهو يسأل:

«ألست بردانًا؟ أنت ترتدى ملابس خفيفة جداً».

وأضاف فى نبرات منخفضة، كمن يخاطب نفسه: «رجل عنيد – روماس. أوكرانى شاطر. أين تُراه الآن؟».

وجلسنا فى الغرفة التى تحتل زاوية البيت، وتطل على الحديقة، وهى مزدحمة بالأثاث – فيها مكتبان، وخزانات كتب، وثلاثة مقاعد. وقال وهو يجفف لحيته المبللة بمنديل، ويقلب صفحات كراستى السميكة:

«سأقرؤها، كم خطك عجيب! يبدو بسيطًا جداً وواضحًا، وهو مع ذلك عسير فى القراءة».

كانت الكراسة على ركبتيه، ينظر فى صفحاتها حينًا بركنى عينيه، وحينًا ينظر إلىّ، حتى لقد أحرجنى كثيراً. «أرى هنا كلمة (معترج)، لا بد أنها زلة قلم، فإنى لا أعرف كلمة بهذه الصورة، لا بد أنها (متعرج)».

وفهمت من سكتته القصيرة قبل أن ينطق كلمة «زلة» أن ف. ج. كورولنكو يعرف كيف يصون كبرياء جاره.

«كتب لى روماس أن الفلاحين حاولوا أن ينسفوه بالبارود، ثم أشعلوا فيه النار – صحيح؟».

وكان يقلب صفحات الكراسة وهو يتكلم:

«ينبغى ألا تستخدم الكلمات الأجنبية إلا فى حالة الضرورة القصوى، ويجب تجنبها كقاعدة. اللغة الروسية ثرية ثراءً كافيًا، وتشتمل على أدوات التعبير عن أدق الانفعالات، وعن ظلال المعنى».

قال ذلك عرَضًا، فى خلال سؤاله عن روماس والريف:

«كم وجهك صارم!».

قالها فجأة، ثم أضاف مبتسمًا: «هل حياتك شاقة جدًا؟».

ولم يكن فى حديثه الرقيق شىء من لهجة الفولجا الخشنة مطلقًا، ولكنى رأيت فى سماته شبهًا غريبًا بملاّحى الفولجا - ولا يرجع ذلك لبدانته، وجسده عريض الصدر، ونظرته الحادة فحسب، بل يرجع أيضًا لرصانته واعتدال مزاجه معًا، وهما من خواصّ أولئك الذين يرون أن الحياة هى الحركة فوق حوض النهر المتعرج، بين الضفاف الرملية والصخور المستترة.

«أنت تستخدم كلمات خشنة أحيانًا - أظن أنك تحسبها قوية، الناس تظن ذلك دائمًا».

قلت له إنى أعرف أن بى ميلا للخشونة، ولكنى لم أحظ أبدًا بالوقت الكافى لاكتساب الكلمات والمشاعر الرقيقة، ولا أُتيح لى المكان الذى يمكننى فيه أن أكتسبها».

فألقى نظرة فاحصة علىّ، واستمر يتحدث فى طيبة:

«أنت تكتب: (لقد جئت العالم لأعترض! وحيث إن الأمر كذلك...) (حيث إن) لا تنفع، فهى قالب تعبيرى قبيح - (حيث إن ذلك كذلك)، ألا تحس بهذا أنت؟».

وكل ذلك كان جديداً على، ولكنى شعرت على الفور بصدق ملاحظاته.

وفى قصيدتى، بعد ذلك، أن شخصًا يجلس «كالنسر» فوق خرائب معبد.

فقال كورولنكو مبتسماً:

«ليس مكانًا مناسبًا جدا لمثل هذه الجلسة، فالمقابلة ليست جليلة بقدر ما هى معيبة».

ثم جعل يعثر «بزلة» إثر أخرى. وقد تبلبلت لكثرة «الزلات»، ولا شك أن وجنتىّ توهجتا كالفحم الملتهب.

وإذ لاحظ كورولنكو حالتى، روى لى ضاحكًا بعض الأخطاء التى وقع فيها جليب أوسبنسكى - شهامة منه، ولكنى كنت عاجزاً عن سماع أو فهم أى شىء بعد، وكل ما كنت أتوق له هو الفرار، من خجلى الذى تملَّكنى. ومن المعروف جدا أن للكتاب والممثلين حساسية كحساسية الكلاب صغيرة الحجم.

وقد رحلت عنه، لأقضى أيامًا فى غم واكتئاب.

شعرت بأن هذا الكاتب يختلف عن سواه. فهو لم يكن يشبه بحال من الأحوال كارونين المهشم الجذاب، وهو بعيد الشبه جداً بستاروستين ذى الأطوار الغريبة، ولا كان يشبه من أى وجه سفيدنتسوف - إيڤانوڤتش المغتمّ، الذى قال لى مرة:

«القصة ينبغى أن تضرب القارئ حتى تنفذ إلى روحه، يجب أن تكون القصة كالعصا، حتى يشعر القارئ أى حيوان هو».

وكان فى تلك الكلمات شىء قريب إلى مزاجى. ولكن كورولنكو كان أول من حدثنى بكلمات إنسانية لها وزنها عن معنى الشكل، وجمال العبارة. وقد أذهلتنى الحقيقة البسيطة الواضحة التى تتضمنها هذه الكلمات، وشعرت، وفى الحلق غصة، أن الكتابة ليست أمراً يسيراً. وقد لبثت عنده أكثر من ساعتين، وتحدث إلىَّ بأشياء كثيرة، ولكنه لم يقل كلمة واحدة عن جوهر ومضمون قصيدتى. وكنت قد أدركت أنى لن أسمع أى ثناء عليها.

وبعد ذلك بأسبوعين أعاد لى ن. ا. درياچين كراستى. وهو رجل عاقل ومثير للبهجة، وشعره أحمر. وقال لى:

«يظن كورولنكو أنه أفزعك. وهو يقول إنك موهوب، ولكن على المرء أن يكتب عن الواقع، بلا تفلسف. ويقول إن ذلك روح فكهة، فكاهة خشنة قليلاً، وهذا شىء حسن. ويقول إن أشعارك هاذية».

وعلى غلاف الكراسة كان مكتوبًا بالقلم الرصاص فى حروف مائلة:

«من الصعب أن أحكم على مقدرتك من أغنيتك، ولكنى أظنك تملك بعض المقدرة. اكتب عن شىء خبرته بنفسك، وأرنى إياه. أنا لست كفئًا للحكم على الشعر، ويصعب علىّ فهم شعرك، رغم أن بالقصيدة أبياتًا مفردة قوية وحية. ق. ك.».

أما عن مضمون الكراسة – فلا كلمة. ما الذى وجده الرجل العجيب فيها؟

وسقطت ورقتان من الكراسة. فى إحداهما قصيدة عنوانها «صوت من الجبل إلى من يتسلقه»، والأخرى «ما قاله الشيطان للعجلة». ولا أذكر الآن ما الذى كانت تناقشه العجلة مع الشيطان بالضبط، أو ما الذى كان يقوله صوت الجبل. وقد مزقت القصيدتين والكراسة، ورميت بها فى الموقد، وجلست على الأرض أمعن النظر فى معنى أن أكتب «عن الأشياء التى خبرتها بنفسى».

لقد خبرت كل شىء مكتوب فى قصيدتى.

وتلك الأشعار! لقد كانت فى الكراسة بمحض الصدفة. كانت بعض أسرارى الخاصة، ولم أُطلع أحدًا عليها أبدًا، وكنت أنا نفسى لا أكاد أفهمها. وكانت كتب فرانسوا كوبيه، وچان ريشيبين، وتوماس هود وأمثالهم من الشعراء، وهى كتب مجلدة بجلد فاخر، وقد ترجمها باريكوڤا وليخاتشوف – كانت مثل تلك الكتب تعتبر بين أصدقائى أعظم

وزنًا من شعر بوشكين، ناهيك بغنائيات فوفانوف. وكان نكراسوف ملكًا للشعر. وكان الشبان يضفون على نادسون إعجابهم، ولكن الأجيال المتقدمة سنًا كانت تنظر حتى إلى نادسون من عالٍ.

وكان رجال محترمون أوقرهم فى إخلاص، يعتبروننى شخصًا جادًا، ويتناقشون معى مرتين فى الأسبوع حول أهمية الصناعات الوطنية، وحول «حاجتنا للمثقفين، وواجباتهم»، وعدوى الرأسمالية الفاسدة التى لن - لن! - تجد لها مستقرًا فى روسيا الاشتراكية، روسيا الفلاحين. والآن سيعرف الجميع أنى قد كتبت قصائد خيالية. وقد انتابنى حينذاك شعور بالإشفاق من أن يضطر الناس لتغيير موقفهم الجاد الطيب منى.

وحزمت أمرى على ألا أكتب شعرًا ولا نثرًا ثانية. ولم أكتب فعلاً سطرًا واحدًا طوال مدة إقامتى فى نيچينى - نوفجورود، وهى تبلغ حوالى السنتين. وقد كنت أحس أحيانًا برغبة ملحّة فى الكتابة.

وفى أسف بالغ كنت أضحى بحكمتى من أجل اللهب الذى سيغسل كل شىء.

كان ف. ج. كورولنكو معتزلاً جماعة المثقفين المتطرفين، الذين كنت أشعر بينهم كما يشعر العصفور بين أسرة غربان حصيفة.

وكان ن. ن. زلاتوفراتسكى هو الكاتب الذى يحظى بأعظم إعجاب هؤلاء المثقفين. وكانوا يقولون عنه: «زلاتوفراتسكى يطهِّر الروح ويسمو بها».

وقد أثنى عليه أحد معلمى الشباب بقوله:

«اقرأوا زلاتوفراتسكى، فإنى أعرفه شخصياً، وهو رجل شريف».

وكانوا يقرأون جليب أوسبنسكى مشغوفين، رغم أنهم كانوا يشتبهون فى أنه شكاك، وموقف الشك حيال الريف لا يغتفر. وكانوا يقرأون كارونين، وماتشت، وزازودمسكى، وينظرون فى كتابات بوتابنكو، فيقولون: «لا بأس به فيما يبدو..».

وكانوا راضين عن مامين - سيبيرياك، رغم ما قيل من إن «ميوله» «غامضة».

وكان تورجنيف وديستويفسكى وتولستوى خارجين عن هذه الدائرة. وكانوا يلخصون أعمال تولستوى، النبى الدينى، بقولهم: «إنه يقوم بدور الأحمق».

ولم يكن أصدقائى يعرفون بماذا يصفون كورولنكو. لقد كان فى المنفى، وكتب «حلم مقار»، وهذان الأمران بالطبع يزكيانه جداً. ولكن قصصه كان فيها شيء مريب، شيء لم يكن هؤلاء المستغرقون فى الأدب عن الريف والفلاحين قد اعتادوه.

قالوا عن كورولنكو: «إنه يكتب من رأسه، ونحن لا نفهم الناس إلا من أرواحها».

وكانوا لا يحبون قصته «فى الليل» على وجه خاص، فقد وقعوا فيها على ميل المؤلف للميتافيزيقا - جريمة فظيعة.

وكتب أحد أعضاء حلقة ف. ج. كورولنكو - أظنه ا. بوجدانوڤتش - عن تلك القصة موضوعًا جديا في صيغة هزلية مازحة، بل وخبيثة خبثًا واضحًا.

أما س. ج. سوموڤ. وهو رجل به شذوذ طفيف، ولسانه متعثر، ومع ذلك فقد كان ذا تأثير على الشباب - فقد قال:

«زبالة! و - و - وصف حالة الولادة سيكولوچيا ليس بموضوع للقصص - ولا محل لجرجرة الخنافس السوداء. إنه يقلـ - لـ - لد تولستوى. كو - كو - كورولنكو يقلد تولستوى».

ولكن اسم كورولنكو كان في ذلك الحين ذائعًا في كل حلقات البلدة. وأصبح شخصية مشهورة في الحياة الثقافية، وكالمغناطيس اجتذب الانتباه، والتأييد، والعداء.

«إنه يسعى في سبيل الشهرة» - هكذا كان يقول أولئك الذين لم يكن في وسعهم أن يجدوا شيئًا أفضل فيقولونه.

وفي ذلك الوقت انكشفت سرقات خطيرة من البنك المحلي. وكانت لهذا الحادث العادي جدًا نتائج دراماتيكية جدًا؛ فقد مات الفاعل الأصلي في السجن، وكان «دون جوان الإقليم، ومحطم القلوب فيه»، وشربت زوجته محلول النحاس في حامض الهيدروكلوريد. وفور انتهاء جنازتها، أطلق رجل كان يعشقها الرصاص على نفسه فوق مقبرتها، ومات شخصان آخران كانت لهما علاقة بالقضية، الواحد تلو الآخر، وقد أشيع أنهما انتحرا.

وكتب كورولنكو مقالات فى «ڤولجا ڤستنيك» عن حادث البنك نشرت فى الفترة التى وقعت فيها كل تلك المآسى. وأخذ ذوو الحساسية يقولون إن كورولنكو «قتل آدميين بمقالات صحفية»، ولكن ا. ا. لانين، الذى كنت أشتغل عنده ناقشهم بحرارة فى أنه ما من ظاهرة أرضية ليست من شأن الفنان.

إن كل شخص يعرف أن ليس أسهل عليه من التشهير بالآخرين، ولذلك فقد أمطر ذوو العقول التافهة كورولنكو بكل صنوف التشهير فى كرم بالغ.

ودارت عجلة الحياة ببطء، خلال هذه السنين الكسلانة، يصعّدها لولب خفى إلى مقصدها الخفى، وخلال دورانها كان يتضح قوام الرجل المكتنز الذى يشبه الملاحين. وعندما عرضت قضية سكوبتسكى [1] على المحكمة، كان ڤ. ج. كورولنكو فى مقاعد الجمهور يرسم فى كراسته اسكتشات لوجوه المتهمين. وكانت أشبه بوجوه الموتى. وكنت أشاهده فى قاعة مجلس زمستڤو، وفى المواكب الدينية، فما من حدث على أصغر قدر من الأهمية إلا وأثار انتباهه الهادئ.

وقد التف حوله عدد متوسط من الناس، كانوا نابهين فى مجالات متنوعة جداً - ن. ف. أنينسكى، وهو رجل له ذهن حاد ويقظ،

---

(١) طائفة دينية. (المترجم)

و س. ى. يلباتييڤسكى، الطبيب الكاتب، وهو مرح وبشوش، ومحب للإنسانية فى دأب، وأنجيل ا. بوجدانوفتش، وهى مولعة بالفكر وسليطة، وچنتلمان الثورة ا. ا. إيڤانشين - بيزاريف، و ا. ا. ساڤليڤ، رئيس مجلس إدارة زمستڤو، وأبولون كاريلين، مؤلف أقصر وأفصح نداء قرأته فى حياتى - من كلمتين: «اطلبوا دستورًا»، طبع على منشورات وألصقت على حوائط مبانى نيچينى - نوفجورود بعد أول مارس سنة ١٨٨١م.

وكانت الناس تسمى حلقة كورولنكو، على سبيل المزاح، «بجمعية الفلاسفة الراشدين». وقد ألقى أعضاؤها محاضرات شيقة. أذكر منها محاضرة بارعة ألقاها كاريلين عن سان چوست، ومحاضرة عن «الشعر الجديد» ألقاها يلباتييڤسكى - وكان شعر ڤوفانوڤ، وفراج، وكورينڤسكى، وميدڤدسكى، ومينسكى، وميريچكوفسكى، يعتبر فى ذلك الوقت شعرًا جديدًا. وكان ينتمى إلى الفلاسفة الراشدين رجال الإحصاء بمجلس زمستڤو، أمثال ن. ا. درياجين، وكسلياكوڤ، و م. ا. بلوتنيكوڤ وكونستانتينوڤ، وشميدت، وآخرون لا تقل أبحاثهم عن الريف الروسى عن أبحاث هؤلاء فى جديتها. وكل من هؤلاء الرجال قد ترك أثرًا عميقًا فى دراسات لغز الحياة الريفية. وكان كل منهم مركز حلقة صغيرة تهتم اهتمامًا عميقًا بهذه الحياة الريفية الغامضة. وكان عند كل منهم ما يمكن أن يتعلمه المرء. وقد أفادنى للغاية موقفهم الجاد النزيه بالإطلاق من الحياة فى القرية، واتسع تأثير حلقة كورولنكو

اتساعًا عظيمًا. ونفذ فشمل طوائف من المجتمع لم يكن يصل إليها أى تأثير ثقافى قبل ذلك.

كان لى صديق اسمه بيمن ڤلاسييف يشتغل بوابًا لبيت الوجيه الكوزبكستانى ماركوف، وهو من كبار المشتغلين بصيد السمك وتجارته. وكان صديقى فلاحًا روسيًا عاديًا أفطس الأنف، ويبدو كأن كيانه قد بنى بعضه على البعض على عجل، وبغير إتقان. وذات يوم كان يحكى لى عن نوايا مخدومه غير المشروعة، فقال وهو يخفض صوته فى غموض:

«سيفعلها، أنا متأكد، ولكنه يخاف من كورولنكو. لقد أتى شخص غريب من بطرسبرج اسمه كورولنكو، وهو ابن أخت مَلك أجنبى، استأجروه من الخارج ليراقب كل شىء هنا، فهم لا يثقون فى المحافظ. وقد أثار كورولنكو هذا فى قلوب النبلاء الخوف من اللّه» (١).

وكان بيمن أميًّا وحالما كبيرًا. وكان فرحًا بإيمانه باللّه على نحو غير عادى، وينتظر فى ثقة نهاية «كل الأكاذيب» الآتية فى المستقبل القريب.

---

(١) قرر الكاتب س. يليونسكى فى مقال منشور أن الأسطورة التى تقول إن كورولنكو أمير إنجليزى صدرت عن المثقفين. وقد كتبت له فى ذلك الوقت أصحح له هذه الواقعة، فالأسطورة أتت من نيچينى - نوفجورود. وأعتبر أنا أن بيمن ڤلاسييف هو مؤلفها وقد انتشرت انتشارًا واسعًا فى نيچينى - نوفجورود، حتى إنى سمعتها فى بلاد القوقاز من نجار من «بلاخنا» سنة ١٩٠٣م.

«لا تبال يا صديقي العزيز، فسرعان ما تأتى نهاية الأكاذيب، وستلتهم الواحدة منها الأخرى، وسيغرق بعضها البعض».

وعندما يقول هذا، كانت عيناه الرماديتان البليدتان تتحولان إلى اللون الأزرق على نحو غاية فى الغرابة وتلتهبان، وتلتمعان بفرح عظيم، ويلوح لك أنهما سيفيضان فى الحال بأشعة زرقاء.

وفى أحد أيام السبت صحبنى إلى حمام عام، ثم إلى حانة لنشرب الشاى. وقال بيمن فجأة، وهو يرفع عينيه في ود وينظر فى عينى:

«انتظر دقيقة».

واهتزت يده وهى ممسكة بطبق الشاى. فوضع الطبق على المائدة، ورسم الصليب على صدره، وهو ينصت بشكل واضح لشىء ما .

«ما بالك يا بيمن؟».

«أنت ترى يا صديقى العزيز، أن فكرة سماوية مست روحى الآن، وهذا معناه أن اللّه سرعان ما يدعونى إليه...».

« لا تقل هذا الكلام يا شيخ. إنك فى صحة تامة».

«صه!» وكان يتكلم فى جد وفرح، «ولا كلمة – أنا عارف».

وفى يوم الثلاثاء التالى قتله حصان.

يمكننا أن نسمى السنوات العشرة (١٨٨٦ - ١٨٩٦م) فى نيچينى - نوفجورود بعصر كورولنكو بلا أدنى مبالغة. ولقد كُتِب هذا أكثر من مرة، ونشرته المطبعة.

كان ا. ا. زاروبين صاحب معمل تقطير، وأحد شخصيات البلدة، فصار مفلسًا طائشًا، ثم أصبح فى أيامه الأخيرة تولستويا عميق الاقتناع، وداعية لضبط النفس، وقد قال لى سنة ١٩٠١م:

«فهمت أيام كورولنكو أنى لم أكن أعيش كما ينبغى على أن أعيش».

وكان قد تأخر قليلاً فى البدء بإصلاح حياته، فقد كان سنه فوق الخمسين أيام كورولنكو، ولكنه غيّر حياته رغم ذلك، أو بالأحرى أوقف حياته، على الطريقة الروسية.

قال لى: «كنت أرقد مريضًا، وجاء سيميون ابن أخى يعودنى. الرجل الذى فى المنفى، تعرفه؟ كان طالبًا حينذاك. قال لى: «هل أقرأ لك؟» وكان الكتاب الذى قرأه لى هو: حلم مقار.. وقد جعلنى أبكى، كان جميلاً جداً. إذن فالواحد يملك أن يشفق على غيره. ومن تلك اللحظة تغيرت. واستدعيت أعز صديق لى، وقلت له: خذ يا ابن العاهرة - اقرأ هذا! وقرأه، فقال: إنه كفر، فاستشطت غضبًا، وجابهته برأيى فيه، الوغد، وأصبحنا أعداء ألداء، وكانت تحت يده كمبيالات مستحقة علىّ، فبدأ يدهقنى، ولكنى لم أهتم. وتركت عملى، إذ إن روحى كانت ترفضه وأشهرت إفلاسى، وقضيت حوالى ثلاث

سنوات فى السجن. وفى السجن قلت لنفسى: لقد عشت كفايتى فى التغفيل. ولما أطلقوا سراحى توجهت رأسًا إلى كورولنكو لأطلب إليه أن يعلمنى. ولكنه لم يكن فى البلدة. فذهبت إلى عظيمنا ليو، إلى تولستوى. وقلت له: «هذا ما حصل». فقال لى: «طيب، حسن جدًا». هذا ما حدث لى. وما الذى جعل جورنيوف يفيق؟ كورولنكو أيضًا. أنا أعرف كثيرين ممن يعيشون بروحه. إننا قد نكون تجارًا، ونعيش خلف أسوار عالية، ولكن الحقيقة تصلنا رغم ذلك».

إنى أقدّر مثل هذه الحكايات تقديرًا رفيعًا، فهى ترينا الطرق التى تجتازها روح الثقافة أحيانًا لتصل إلى حياة القبائل البدائية ونظمها الخلقية.

كان زاروبين ثقيلاً، وله لحية رمادية، وعيناه معتمتان صغيرتان تطلان من وجه أحمر سمين. وكان إنسانًا عيناه داكنتان جدًا وناتئتان كالخرزتين. وكان فى تعبير عينيه شىء عنيد. وقد اشتهر بأنه «حامى القانون». فذات مرة انتزع البوليس كوبكان من رجل ما بغير وجه حق، فأرسل زاروبين إلى البوليس شكوى من هذه الفعلة. ورُفضت الشكوى فى محكمتين. فذهب زاروبين العجوز إلى بطرسبرج، وقصد مجلس الشيوخ، وحصل على أمر كتابى يحرم على البوليس أن يأخذ نقودًا من المواطنين، وعاد إلى نيچينى - نوفجورود منتصرًا، وحمل الأمر الكتابى إلى مكتب «المجلة الدورية لنيچينى - نوفجورود». وطلب

إلى المسئولين أن ينشروه. ولكن الرقيب أبعد الأمر من بروفات المجلة، بناء على تعليمات المحافظ. فذهب زاروبين إلى المحافظ، وسأله:

«هلا تعترفون أنتم (وقد كان يخاطب كل شخص بصيغة الجمع)، بالقانون، يا صديق؟».

ونشر الأمر.

وقد كان يذرع شوارع البلدة مرتديًا معطفًا طويلاً أسود، وقبعة شاذة مثنية على خصلات شعره الفضية، وحذاء طويلاً فى أعلاه شريط من القطيفة. وكان يحمل تحت إبطه حقيبة أوراق ضخمة، تحتوى على لوائح «جمعية ضبط النفس»، وحشد من الشكاوى والالتماسات التى يحررها المواطنون، ويحاول أن يحض العربجية على عدم التفوه بالألفاظ القبيحة، ويتدخل فى كل شجار يقع فى الشارع، ويخص بالانتباه مسلك الشرطة، ويسمى نشاطه هذا «بتعقّب الحقيقة».

وقد وصل إلى نيچينى – نوفجورود القسيس إيوان كرونشتادتسكى، وكان مشهوراً حينذاك، فتجمعت جمهرة عظيمة من المعجبين به أمام الكنيسة، وجاء زاروبين، وسأل: «ماذا جرى؟».

«إنهم ينتظرون مشاهدة إيوان كرونشتارستكى وهو خارج».

«الممثل القادم من الكنائس الإمبراطورية؟ حمقى...».

ولم يمسسه أحد. ولكن أحد المؤمنين أمسكه من كمه وجذبه جانبًا وهو يقول له على عجل:

«اذهب بأسرع ما تستطيع، من أجل المسيح، يا ألكسندروفتش».

وكان سكان البلدة العاديون يعاملونه فى فضول واحترام. وفى حين كان هناك من يدعونه «بالأحمق»، كانت الغالبية تعتبره حامياً لها، ويتوقعون منه معجزات من نوع ما، ولا يهمهم من أى صنف تكون، ما دامت هذه المعجزات تسىء السلطات المحلية.

وفى سنة ١٩٠١م أدخلونى السجن، فذهب زاروبين إلى النائب العام أوتين وطلب منه أن يقابلنى، رغم أنه حتى ذلك الحين لم يكن يعرفنى.

فسأله أوتين: «هل أنت من أقرباء السجين؟».

«بل لم أره فى حياتى، وليست فى ذهنى أى فكرة عن شكله».

«إذن ليس لك الحق فى أن تقابله».

«وهل قرأت الإنجيل أنت؟ ماذا يقول الإنجيل؟ كيف تحاكم الناس يا سيدى الطيب، إذا كنت لا تعرف الإنجيل؟».

ولكن النائب العام كان له إنجيله الخاص، الذى رفض على أساسه الطلب الغريب المقدم من العجوز زاروبين.

وكان زاروبين طبعًا واحداً من هؤلاء الروسيين - غير النادرين - الذين يصبحون «محبين للحقيقة» فى نهاية حياة معقدة، حين لا يعود لديهم شىء ليفقدونه، إلا أنهم فى الحقيقة ليسوا إلا أشخاصاً ذوى أهواء متقلبة.

وقد كانت كلمات ن. ا. بوجروف التاجر أعظم دلالة، وأجدى إلى أقصى حد. كان بوجروف مليونيراً، ومحباً للناس، ومؤمناً قديماً، ورجلاً حاذقًا جداً، ويمثل دور أمير الأمراء في نيچيني – نوفجورود. وقد شكا ذات لحظة شاعرة، قال:

«نحن التجار لسنا عقلاء ولا أقوياء، ولا حاذقين. فنحن لم نزعزع النبلاء كما كان ينبغيَ أن نفعل بعد. والآن، يضغط آخرون علينا ضغطاً ثقيلاً: أعضاء مجلس زمستفو أو الرعاة من صنف كورولنكو. وكورولنكو بالأخص، فهو رجل مزعج جداً. إنه يبدو بسيطًا للغاية، ولكنه يعرف كل شيء، فهو يدخل في كل مكان...».

سمعت هذا الرأى في وقت يرجع إلى ربيع سنة ١٨٩٣م، حين عدت إلى نيچيني – نوفجورود بعد سفريات طويلة في روسيا وفى القوقاز. وأثناء هذه الفترة – التى استمرت ثلاث سنوات تقريبًا – كانت أهمية ف. ج. كورولنكو، كشخصية عامة وككاتب لا تزال تعظم. وكان الدور الذى قام به فى مكافحة المجاعة، ومعارضته الناجحة والقوية للحاكم العصبى برانوف، ونفوذه على أوجه نشاط مجلس زمستفو معروفة بشكل واسع جداً. وأظن أن قصته «سنة الجوع» ظهرت فى ذلك الحين.

وأذكر الحكم الذى أصدره أحد سكان نيچيني – نوفجورود على كورولنكو، وكان رجلاً غريبًا جداً:

«فى بلد مثقف كان زعيم المعارضة للسلطات فى الولاية لينظم شيئًا كجيش الخلاص، أو كالصليب الأحمر - شيئًا هاما حقيقة، ودوليا، وثقافيا. ولكن فى الظروف المألوفة للحياة الروسية كان نشاطه ليمتد إلى التفاهات. ومن المؤسف أن كورولنكو موهبة ثمينة، منحها القدر لشحاذين مساكين مثلنا. فهو ظاهرة جديدة للغاية، وأكثر ما تكون أصالة. ولا أستطيع أن أذكر شخصًا مثله، بل شخصًا فى مستواه، فى تاريخنا».

«وما رأيك فى موهبته الأدبية؟».

«أظن أنه ليس على ثقة من مقدرته. وهذا سيِّئ جداً. إنه نموذج للمصلحين فى كل خصال عقله وقلبه. ولكنى أميل إلى الظن أن هذه الخصال تمنعه من أن يقدر مواهبه الأدبية، رغم أن هذه الخصال، لارتباطها بموهبته، ينبغى أن تمنحه ثقة أكبر بنفسه، وجسارة أعظم. أخشى أنه يعتبر نفسه كاتبًا، إلى جانب صفاته الأخرى، لا كاتبًا أولاً وقبل كل شىء...».

قال هذه الكلمات رجل هو النمط الذى رُسمت على صورته إحدى الشخصيات فى كتاب بوبوريكين «التدهور» - وهو رجل حاذق، رفيع الثقافة، وسكير، فاجر. كان كارهًا للبشر، لا يُعرف عنه أنه تحدث بخير، أو حتى بتسامح عن أى شخص، وهذا جعلنى أكثر تقديرًا لرأيه فى كورولنكو.

ولكن فلنعد إلى سنة (١٨٨٩ و ١٨٩٠م).

لم أزر فلاديمير جالاكتيونوفتش كورولنكو، بعد أن حزمت أمرى كما قلت سابقًا، على أن أكف عن محاولة الكتابة. ولكنى كنت ألقاه من حين لآخر، لبرهة يسيرة، فى الشارع أو فى بيوت الأصدقاء، حيث كان يلتزم السكوت، وينصت للنقاش فى هدوء، وكان هدوءه يثير أعصابى. كانت الأرض تبدو كأنها تميد تحت قدمى، وكان يلوح لى أن خميرة ما تختمر حيثما كنت. كان كل شخص ينفعل، ويجادل، فعلى أية أرض كان يقف هذا الرجل؟ لم أستطع أن ألمّ شتات شجاعتى وأذهب إليه، فأسأله: «ما الذى يجعلك بهذا الهدوء؟».

كان أصدقائى يحصلون على كتب جديدة - مجلدات ردكين الضخمة، ومجلدات أكثر ضخامة عن «تاريخ النظم الاشتراكية» لشيجلوف، و«رأس المال» لماركس، وكتاب لوخفتسكى عن الدساتير، والمحاضرات المطبوعة على مطبعة الحجر، التى كتبها، ف. كليوتشيفسكى، وكوركونوف وسيرجييفتش.

وكان المنطق الحديدى عند ماركس يبهر طائفة من الشباب. وقد قرأ معظمهم فى حماس رواية بورچيه «المُريد»، ورواية سنكيفتش «من غير عقيدة»، ورواية ددلوف «ساشنكا»، وقصصاً عن «الإنسان الجديد».

والذى كان جديداً في هؤلاء الناس، هو نزوعهم الصريح نحو الفردية. وكان هذا الاتجاه الجديد شائعًا جداً، الشباب يعجِّلون

بوضعه موضع التنفيذ، فيسخفّون «واجب المثقفين» فى حل المسائل الاجتماعية، وينقدونه بخشونة.

وقد وجد هؤلاء الصغار، الذين لم ينبت ريشهم بعد، سنداً لأنفسهم فى حتمية النظام الماركسى.

وقد قال ا. ڤ. ترويتسكى، وهو مجادل فصيح متحمس، كان طالباً بمدرسة ياروسلاڤل اللاهوتية، ثم مارس الطب بعد ذلك فى فرنسا:

«الضرورة التاريخية لا تقل فى غيبيّتها عن الجبرية التى تُعلمها الكنيسة، ولا تقل فى جورها وسخفها عن الإيمان الشعبى الشائع بالقدر. إن المادية هى إفلاس العقل، الذى لا يستطيع أن يسلم بتنوّع ظواهر الحياة، فيخضعها فى غلظة لأبسط علة واحدة ممكنة. والتبسيط غريب على طبيعة الأشياء ومعاد لها. إن قانون تطور الطبيعة يتدرج من البسيط إلى المركب، والحاجة للتبسيط إن هى إلا مرض طفولتنا، ولا ينم إلا على أن العقل ما يزال عاجزاً، وغير قادر على تنسيق المجموع الكلى، وفوضى الظواهر».

وكان البعض يسرهم أن يجدوا سناداً فى عقيدة آدم سميث عن الأنا، وهى نظرية كانت ترضيهم غاية الرضى، فأصبحوا «ماديين» بالمعنى السوقى العادى للكلمة. وكان معظمهم يحتجّون، بقدر ما من البساطة، بالحجة التالية:

«إذا كانت الضرورة التاريخية، التى تقود الإنسانية فى طريق التقدم، حقيقة واقعة، فإن كل شىء إذن سيتطور بنفسه من غير أن نتدخّل نحن».

ومن ثم كانوا يضعون أيديهم فى جيوبهم فى غير مبالاة، ويدندنون بالألحان. وكانوا يشهدون المعارك الكلامية كمجرد نظارة، كغربان تقف على سور ترقب صراع الديكة الوحشى. وكان الشبان يضحكون فى قحة، وتتزايد ضحكاتهم باطراد من «الأوصياء على الماضى المجيد». وكانت مشاعرى تتجه إلى جانب هؤلاء «الأوصياء» الذين كانوا أنقياء الروح بشكل غير عادى، على رغم أنهم قد يكونون شواذاً. وكنت أعتبرهم أشبه بالقديسين فى حماسهم «للشعب»، وكانوا يتخذون من الشعب موضوعًا لحبهم ورعايتهم، وجهودهم. وكنت أرى النواحى البطولية والنواحى الهزلية فيهم، ولكنى أحببت رومانسيتهم، أو بالأحرى مثاليتهم الاجتماعية. وكان بوسعى أن أرى أنهم قد خلعوا على «الشعب» ألوانًا وردية. وكنت أعرف أن الشعب الذى يتحدثون عنه لا وجود له على الأرض، فالأرض يسكنها فلاحون صابرون ماكرون، قصيروا النظر، أنانيون، وينظرون إلى كل شىء لا يتعلق بمصالحهم الشخصية نظرة شك وعداء؛ ويسكنها أيضًا فريسيّون، غلاظ، خبثاء، يعتنقون خرافات وتعصبات أشد ضراوة من تعصبات الفلاحين؛ ويشتغل فوق هذه الأرض أيضًا التجار، ببنيانهم الوثيق، وشعرهم الكث، يبنون لأنفسهم بالتدريج أركان حياة حيوانية راضية وافرة الطعام.

وفي فوضى الآراء المصطرعة، والمتعادية باطراد، وفي صراع العقل والوجدان، وفي المعارك التي كانت تنبثق منها الحقيقة في حال من التشويه، فيما يبدو لي – في صخب الأفكار هذا، لم أجد شيئًا قريبًا لي أو عزيزًا عليّ.

وإذ كنت أعود إلى بيتي بعد كل هذه العواصف، كنت أخط على الورق بعض الأفكار، والأقوال المأثورة التي أثار انتباهي شكلها أو مضمونها، وأسترجع حركات المتحدثين وأوضاعهم، وتعبير وجوههم، والتماع أعينهم. وكنت طيلة الوقت مبلبلاً إلى حد ما، ويسلّيني أن أرى الابتهاج الذي يشعر به الواحد أو الآخر بعد أن يسدد ضربة نقاش إلى خصمه، و«يمسه في نقطة ضعف». وكان من الغريب أن ترى هؤلاء الذين يتحدثون عن الخير وعن الجمال، عن الإنسانية والعدالة، يتوسلون بحيل التهكم والتحقير في النقاش، ويظهرون في كثير من الأحيان رغبة واضحة في التجريح، كما يظهرون غيظًا غير مكبوح، وضغينة.

ولم أكن أتقن نظامًا للتفكير، أو بالأحرى منهجًا من المناهج التي تلقنها المدرسة؛ وقد جمعت مادة فكرية متراكمة، كانت بحاجة إلى شغل جاد، وكان الشغل لا بد له من فراغ، وهو شيء آخر كان ينقضي. وقد شتتت ذهني صنوف التناقض بين الكتب التي كنت أومن بها إيمانًا راسخًا، وبين الحياة التي كنت أستطيع أن أزعم أني أعرفها معرفة جيدة. وكنت أرى أني أتقدم في طريق الحكمة، فأشعر أن هذا بالضبط ما كان يفسدني. كنت كالسفينة التي عُبئت بإهمال، وبين يدي

قائمة بعبوعتها، خطرة. وكنت قلقًا وأشفق من أن أفسد اتساق غناء المجموعة، رغم أنى كنت أملك صوت تينور بهيج، فبذلت غاية جهدى - كما كان يفعل الكثيرون - لأندمج مع أصحاب صوت «الباس» الكالح. وكان ذلك شاقا على، ويُلزمنى بغير موضعى، بل بموضع رجل يفقد سجيته، من رغبته فى أن يعامل هؤلاء المحيطين به بتقدير وود.

وكانت ملاحظاتى عن المثقفين هنا، كما كانت فى قازان وبوريسوجليبسك وتساريتسين، تملؤنى بالدهشة والقلق. فمعظم المتعلمين كانوا يعيشون حياة ضعة وتضور قاسية، ويبددون طاقة ثمينة فى سبيل الحصول على مجرد الرزق وفى وسط صحراء ثقافية. كنت أرى أن كل هؤلاء الناس، الموهوبين بشتى المواهب، غرباء فى وطنهم، ويعيشون فى محيط يناصبهم العداء، وتحوطهم الريب وصنوف الاحتقار. وكان هذا المحيط العفن الآسن كثيفًا بالترهات البلهاء اللعينة التى تمتلئ بها الحياة.

وكان يحيرنى ثانية هذا السؤال: كيف يتفق أن المثقفين لم يقوموا بمحاولات أنشط لكى يندمجوا فى الجماهير، التى كانت حياتها الخاوية تفاجئنى بأنها عديمة النفع تمامًا، من استغراقها فى الفقر الروحى، والعناء الغريب؛ فضلاً عن بلادة شعورهم بما يقترف كل منهم من ألوان القسوة على الآخر؟!

وكنت ألُم فى مشقة الفتات النادر لأى شىء يمكن اعتباره غير عادى - طيبًا، أو نزيهًا، أو جميلاً - ولا تزال تعاودنى أحيانًا إلى

يومنا هذا ذكريات من هذه المعالم الإنسانية للناس. ولكنى كنت جوعان الروح، ولم أعد أستطيع أن أقنع بالسم الخانق الذى تنطوى عليه الكتب. كنت فى حاجة لعمل معقول، لأعمال بطولة باهرة، للثورة.

وقد تحدثت أثناء هذه الفترة مع كورولنكو حديثًا لا أنساه:

كنت جالسًا ذات ليلة صيف على مقعد فوق جسر أوتكوس على نهر الفولجا، وأمامى ينبسط منظر رائع للمروج المهجورة فى إقليم الفولجا، ويبدو النهر من خلال فروع الأشجار. وعلى حين غرة، دون أن ألحظ أو أسمع شيئًا، بدا لى كورولنكو جالسًا بجوارى على المقعد. ولم أشعر بوجوده إلا حين لكزنى بكتفه وهو يقول:

«لقد كنتَ تفكر تفكيرًا عميقًا! وبدر لى أن أنزع قبعتك من فوق رأسك، ولكنى فكرت أن هذا قد يفزعك».

كان يقطن بعيدًا جدًا، فى الطرف الآخر للبلدة. وكانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحًا. وهو جالس بجانبى، منهك بشكل واضح، ورأسه ذات الشعر المجعّد مكشوفة، وهو يمسح وجهه بمنديل.

قال: «الوقت قد تأخر بك وأنت خارج بيتك».

«وأنت كذلك».

«نعم. كان ينبغى أن أقول: الوقت قد تأخر بنا، ونحن بالخارج كيف حالك، ماذا تفعل؟».

وبعد بضعة ملحوظات عابرة سألنى:

«يقولون إنك انضممت إلى حلقة سكڤورتسوف. أى نوع من الرجال هو؟».

كان ب. ن. سكڤورتسوف جينذاك واحدًا من أحسن الذين يبسطون نظرية ماركس فى وضوح. ولم يكن قد قرأ شيئًا غير «رأس المال»، وكان يتباهى بهذا. وقبل صدور كتاب ب. ب. ستروڤ «مذكرات فى النقد» بسنة أو سنتين، كان سكڤورتسوف قد قرأ مقالاً بقلمه فى غرفة الجلوس ببيت المحامى شيجلوف، يبسط نفس المبادئ الأساسية التى يبسطها كتاب ستروڤ، ولكنى أذكر جيدًا أن مقاله كان يُعبر عن هذه المبادئ تعبيرًا أقوى مما فى الكتاب. وقد وضعت هذه المقالة سكڤورتسوف فى مصاف الهراطقة، وإن كان هذا لم يمنعه من أن يكوِّن حوله حلقة من الشباب. وقد قام الكثيرون من أعضاء هذه الحلقة بعد ذلك بدور هام للغاية فى تكوين الحزب الاشتراكى الديموقراطى. ولم يكن سكڤورتسوف فى الحقيقة «ينتمى لهذا العالم». لقد كان ناسكًا، يمشى صيف شتاء مرتديًا معطفًا خفيفًا وحذاء باليًا، ويعيش على حافة الجوع، ويحاول مع ذلك أن يختصر من مطالبه باطراد، ويعيش أسابيع بطولها لا يتناول غير السكر طعامًا، وكان يلتهم من السكر ستة أوقيات فى اليوم، لا أكثر ولا أقل. وقد قوَّضت بنيانه تجربة «الغذاء المعقول» هذه، وأفضت به إلى أن يصاب فى كليتيه بمرض خطير.

كـان قـصـيـر القـامـة، وتافـه المظـهـر، ولكن كـانت تكمن بعـينيـه الزرقـاوتين الفاتحتين بسمة رجل محظوظ، قد انكشفت له حقيقة معينة باكتمـال لا يتسنى لغيره. وكـان يعامل كل من يخـتلف مـعه باحـتقـار طفيف، مشفـقٍ فلا يُغضب. وكان يدخن سجاير سميكة محشوة بطباق رخيص، ويحشـرهـا في مبسـم خيزرانـي طويل (يبلغ طوله حـوالي ١٦ بوصة)، ويدسّـه حين لا يدخن في حزام بنطلونه، كالخنجر.

وقد راقبت باڤيل نيكولاييفتش سكڤورتسوف، وهـو في وسـط قطيع من الطلبة، وكانوا يقومون بعملية إقبال جماعي على فتاة زائرة، على قدر من الجمـال غير عادي. وكـان سكڤورتسوف يبارى الشـبـان العـايقين، ويحـوّم حـول الفتـاة هو أيضًـا، بمبـسم سيـجارته، وهو رمـادى كله، في سحابة من الدخان الرمادى الخانق، ويبدو سخيفًا على نحو جليل. كان واقـفًـا في ركن من الغـرفـة، لا تبـدو منه غيـر خطوط هيكله الخـارجيـة واضحة أمام أحجار الموقد البيضـاء، ويرسل في هدوء المتفـيْـقه، وفي نبرة المؤمن القديم، سيلاً من كلمات لها وزنها، وينكر أي قيمـة للشـعـر والموسيقي والدراما والرقص، ويحوط الآنسة الجميلة بسحب الدخان.

وكان يحتج في تزمت بحجة سقراط: «قال سقراط، منذ عهد طويل، إن المسليات - ضارة».

وكانت الفتـاة الأنيقة ذات الشـعـر الكسـتنائى، مرتديـة بلوزة بيضـاء من الحـرير الرقيق الهفـهـاف، وتنصت له وهي تهز قـدمـهـا الفـاتنة هزة

مناغشة، وتحملق بأدب مجهود فى الرجل الحكيم، بعينين داكنتين جميلتين – وبنفس النظرة المحملقة، لا شك، التى كانت تطالع بها فاتنات أثينا سقراط ذا الأنف الأفطس. وهذه النظرة كانت تتساءل، بفصاحة خرساء:

«متى تسكت؟ متى تفارقنا؟!».

وقد برهن لها على أن كورولنكو مثالى، وميتافيزيقى خطر، وعلى أن الأدب – الذى لم يقرأه هو أبداً – ليس إلا محاولة لطلاء جثة النارودية [1] التى تتعفن؟ وبعد أن أثبت ذلك بالبرهان الحاسم أخيراً، دفع بمبسه فى حزامه، ورحل منتصراً، تتبعه الفتاة بعينيها، وقد بان عليها الإرهاق، فألقت بنفسها فوق الأريكة، وجأرت بالشكوى:

«يا للسماء – إنه ليس رجلاً، إنه كيوم ملئ بالضباب!».

وضحك كورولنكو، ولكنه استمع لى فى سكون حتى انتهيت من حديثى، وهو يتطلع للنهر وقد ضيّق عينيه، وأخيراً قال بنبرات ناعمة ودية:

«لا تستعجل اختيار عقيدة. أقول لك – اختيار، إذ يلوح لى أن الناس فى هذه الأيام لا يبذلون جهداً ليصلوا إلى العقيدة، ولكنهم

---

(١) النارودية: اتجاه فكرى اجتماعى، كان يعتنقه من يسمون أنفسهم بـ «النارودبين» Narodnik، ومؤداه وجوب الرجوع إلى الشعب. (المترجم)

يختارون أيَّ العقائد، مجرد اختيار. انظر كيف تصبح المادية مودة اليوم، لأن بساطتها مغرية للناس! إنها تستميل على وجه الخصوص أولئك الذين بلغ بهم الكسل، فلا يفكرون لأنفسهم. وكل عايق يقبلها بترحاب، كما يحب أى جديد، سواء أكان يوافق طبيعته، وذوقه، وبغيته، أو لا يوافقها».

كان يتكلم متأملاً، كأنه يخاطب نفسه، ويتوقف من حين لآخر فيصغى لألحان مزمار متعوب فى مكان ما، تحت، على ضفة النهر، ولأصوات صفارات فوق الماء.

وقال إن كل محاولة عقلانية، القصد منها تفسير ظواهر الحياة، هى محاولة جديرة بالانتباه والاحترام، ولكن يجب علينا أن نتذكر أن «الحياة مؤلفة من انحناءات عديدة مشتبكة على نحو غريب»، وأنه من «أصعب الأشياء أن نقحم الحياة فى قالب منطقى قائم الزوايا».

قال وهو يتنهد ويمروِح بقبعته على وجهه:

«يصعب علينا أن نقحم هذه الانحناءات وهذه الخطوط المتقاطعة، التى تمثل أوجه النشاط الإنسانى، والعلاقات الإنسانية فى شبه نظام حتى».

ولقد أحببت بساطة حديثه، ونبرته الرقيقة المتأملة. ولكن ما قاله عن الماركسية لم يكن جديداً علىَّ فى جوهره، وإن كانت الكلمات التى

بسط فيها وجهة نظره جديدة، ولما توقف عن الكلام لحظة، سارعت أسأله عما أكسَبه هذا الهدوء والاتزان:

فارتدى قبعته، ونظر فى وجهى، وأجاب مبتسماً:

«أنا أعرف ما يجب علىّ أن أفعله، ومقتنع بنفع ما أفعله. ولكن – لماذا تسألنى عن هذا؟».

فشرعت حينذاك أطلعه على حيرتى وأوجه قلقى. فتحرك مبتعداً عنى قليلاً، ومال إلى أمام ليستطيع أن يرى وجهى أحسن مما كان يراه، وأنصت لى فى سكون وانتباه. ثم قال فى نعومة:

«إن فيما تقوله قدر عظيم من الحقيقة. أنت قوى الملاحظة جداً». وضحك وهو يضع يده على كتفى.

«لم أكن أظن أبداً أن هذه المسائل تثير همك. فقد أعطونى فكرة مختلفة عنك... الناس تسمِّيك الفتى البشوش الخشن، عدو المثقفين..».

وأخذ يستخدم لغة قوية للغاية، وهو يتحدث عن المثقفين. لقد كان يقول دائماً وفى كل مكان إنهم معزولون عن الشعب، وإنهم معزولون، لأنهم دائماً فى الطليعة، وهذه رسالتهم التاريخية.

«إنهم خميرة كل اختمار شعبى، وحجر الزاوية لكل بنيان جديد. إن سقراط، وجيوردانو برونو، وجاليليو، وروبسبير، والديسمبريين من بنى وطننا أمثال بيروفسكايا، وزليابوف، وكل أولئك الذين يموتون

الآن من الجـوع فى المنفى، وهؤلاء الذين ينحنون فـوق كـتـبـهم الليـلة بالذات، ويعدّون أنفسهم للنضـال من أجل العدالة، ويعدون أنفسـهم أولاً وقـبل كل شىء طبـعًـا، للسـجن – كل هؤلاء يمثلون أنشط قوى الحيـاة، وأرهفَ وأحدّ أسلحتها».

ونهض على قدميه مهتاجاً، ومشى بخطى طويلة جيئة وذهاباً أمام المقعد، قائلاً:

«إن الإنسانية شرعت تصنع تاريخها منذ اللحظة التى ظهر فيها على المسـرح أول مـثـقف. إن أسطورة بروميـثـيوس هـى قـصـة رجل اكتشف طريقة لإنتاج النار، فـبضـربة واحدة ميّـز الإنسـان عن سـائر الحيـوانات. لقـد لاحظتَ، وأنت محق فى ملاحظتك، أغلاط المثقفين – كتبيتهم وانعزالهم عن الحياة – ولكن المسـألة هى: أهـذه أغـلاط؟ فى بعض الأحيان يصبح من الضرورى أن يبتعد المرء عن الأشياء، بدلا من أن يقتـرب منهـا، لكى يراها على حـقـيقـتـهـا. والشىء العظيم – وهذه نصيحة رجل أكبر منـك سنًـا وأكثر خبرة – الشىء العظيم هو أن نولى انـتباهـا أكبر للخصال الطيبة. إن بنا جميعًـا شغفًا باكتشاف الغلط، واكتـشـاف الغلط بسيط للغـاية، وليس عـاريًا عن النفع لكل منـا. ولكن ڤولتـير، رغمـ كل عبقريتـه، كـان رجـلاً رديئًـا، ومع ذلك فـقد قام بعمل عظيم، إذ دافع عـمن اتُّـهـمـوا خطأ. إنى لست أتحـدث عن خـرافـات التطيّـر التى حطمها، ولكنى أتحدث عن دفاعه العنيد عن قضية كانت

تبدو ميئوسًا منها - هاك عمل باهر بين يديك! لقد فهم ڤولتير أن أول واجب على الإنسان هو أن يكون إنسانيا. إن العدالة قيمة جوهرية. وعندما تتجمع الشرارات الصغير فتصبح لهبًا هائلاً، سيطهِّر هذا اللهب الأرض من الأوساخ والأكاذيب، وعندئذ فقط ستُغيِّر الحياة أشكالها المؤسية والجائرة. قدم العدالة فى الحياة، بعناد، وبغض النظر عن نفسك، وعن الآخرين، وعن كل شىء - هذا ما يجب علينا أن نفعله».

كان من الواضح أنه قد تعب، فقد تحدث فترة طويلة - فجلس ثانية وقال، وهو ناظر إلى السماء:

«الوقت متأخر، أو بالأحرى مبكر - انظر، قد نورت الدنيا تمامًا. وأظنها ستمطر. آن أن تذهب للبيت».

كنت أسكن على مقربة، بينما يبعد بيته ميلاً أو ميلين. فعرضت عليه أن أصحبه، ومشينا فى شوارع البلدة الناعسة، تحت سماء قاتمة السحب.

«حسن - هل تكتب شيئًا».

«لا».

«لِمَ لا؟».

«ليس لدى وقت».

«سيِّئ جداً . إنك لتجد الوقت لو أردت ذلك. إنى أعتقد مخلصًا – فيما يخيل لى – أن لك مقدرة فى الكتابة. انت منحرف المزاج، يا سيدى».

واسترسل يتحدث عن جليب أوسبنسكى الذى لا يهدأ له بال، ولكن هطل مطر الصيف الغزير فجأة، فلفَّع البلدة فى شبكة فضية. وآوينا إلى بوابة لبضع دقائق، ولكننا حين رأينا أن المطر لبث يهطل مدة طويلة، رحلنا...

* * *

فلاديمير كورولنكو

حين عدت من تفليس إلى نيچينى - نوڤجورود، كان ڤ. ج. كورولنكو فى بطرسبرج.

ولم أكن أشتغل بأى عمل حينذاك، فكتبت بعض القصص القصيرة وأرسلتها إلى صحيفة رينهارت «فولجسكى - ڤستنيك»، وكانت هى أعظم الصحف نفوذًا فى إقليم الڤولجا، بفضل مقالات كورولنكو.

وكانت قصصى تحمل توقيعى بالحروف الأولى من اسمى: م. ج. أو ج - ى، وقد نشرت بسرعة، وأرسل لى رينهارت خطابًا يوشك أن يتملقنى فيه، وقدرًا كبيرًا من النقود - حوالى ثلاثين روبلا، ولسبب ما، نسيته الآن، كتمت سر تأليفى لهذه القصص كتمان الغيور، حتى عن أصدقاء حميمين لى، مثل ن. ز. ڤاسيلييف و ا. ن. لانين. ولم يخطر لى أبدًا أن تلك القصص ستقرر مصيرى، إذ إنى لم أكن أعلِّق عليها أهمية كبيرة. ولكن رينهارت كشف سرِّى لكورولنكو، وعندما عاد ف. ج. كورولنكو من بطرسبرج، أُبلغت أنه يريد مقابلتى.

وكان لا يزال يقطن ببيته الخشبى الذى بناه المهندس «لمك» فى أطراف البلدة. ولقيته يشرب الشاى فى غرفة صغيرة، تطل على

الشارع، وكان هناك زهور على قاعدة الشباك، وفى كل الأركان، وكتب وصحف فى كل مكان.

كانت زوجته وأطفاله قد فرغوا من شرب الشاى، ويتهيأون للخروج، ليتمشوا. وخيّل لى أن بنيانه ازداد وثاقة بعض الشىء، وأنه أصبح أكثر اعتداداً، وشعره أكثر تجعداً من قبل.

«كنا نقرأ قصتك «الحسون» منذ قليل - حسن، لقد بدأت تنشر - تهانئى! أرى أنك مصمم بعناد على الكتابة المجازية. لا بأس، المجاز يمكن أن يكون جيداً، ككل شىء، إذ كُتب بحذق، والعناد ليس خصلة سيئة جداً».

وقال بضعة كلمات طيبة أخرى، وهو ينظر لى من عينيه المضَيَّقتين. وكانت جبهته وعنقه قد لوحتهما شمس الصيف جداً، ولحيته قد ابيضَّت. كان مرتدياً قميصاً قطنيا أزرق، وحزاماً جلديا، وبنطلوناً أسود مدسوساً فى حذائيه الطويلين، فكان كرجل أقبل من بعيد، وسرعان ما يمضى إلى حال سبيله. أما عيناه فقد كانتا تلتمعان فى ابتهاج داخلى.

قلت له إنى قد كتبت عدة قصص أخرى، وإن إحداها نشرت فى صحيفة «القوقاز».

«أليست معك واحدة من قصصك؟ خسارة! إن أدبك أصيل جداً. وما تكتبه ليس دائماً متساوياً للغاية - غير مستوٍ قليلاً - ولكنه ممتع.

يقـولون إنك مشّـاء عظيم. إنى مشّـاء أيضـًا، وقـد جُبت إقليم الڤولجـا على قدمى، خلال معظم الصيف، وصـعدت مرتفعات القرغير وڤتلوجا. أين كنت أنت؟».

وعندما حدثـته باختصار عن جولاتى، صاح مؤمّـنًا:

«أها! لقد قطعت مسافة عظيمة! هذا هـو ما أنضجك فى السنين الأخيـرة - كم سنـة؟ ثلاثة، ولا بد أنك قد اكتسبت قدرًا عظيـمًا من القـوة أيضًا!».

وكنت قـد قرأت منذ حين قـصتـه «ألعاب النهـر»، وأثارت ابتـهاجى لجمالها وسـردها. وشعرت بامتـنان منفعـل للمؤلف، وأخـذت أتحدث عن القصة فى حماس.

كنت أعتـبـر أن كـورولنـكو - بمهـارة وصـدق فى تحـرِّى الواقع - أعطى فى شـخـصيـة المعـدَّاوى تيـولين نمطًا لشـخـصيـة الفـلاح «البطل لسـاعـة واحـدة». وشـخـص من هـذا القـبـيل فـى مـقـدوره أن يقـوم بعـمل باهر رائع، وبعـد أن يوشك على قتل زوجته، أو علـى تهشيم رأس جاره بسـنـدان مـباشـرة. وبوسـعه أن يـبـهرك ببسـماته الطيـبـة، وبسـيـل من الكلمات الصادرة عن القلب، حية كالزهور، ثم يفاجئك، بلا أدنى سبب بأن يلقـيـك بكلمـة، فكأنه يرفـسـك فى وجـهـك بحـذائه القـذر. إن فى مقدوره أن ينظم حركة شعبية، مثـل كوزماميـنـين، ثم يصبح سكيرًا، ورجلاً مضيعًا.

وأنصت ف. ج. كورولنكو لحديثي المضطرب، دون أن يقاطعني، وهو يحملق فيَّ بثبات، مما أحرجني كثيرًا. وكان من حين لآخر يغمض عينيه ويخبط المائدة بيده، ثم نهض بعد حين من مقعده، ووقف مستندًا إلى الحائط يقول وهو يضحك في مرح:

«أنت تبالغ. دعنا نصفها في اختصار بأنها: قصة جيدة. وهذا كاف جدًا، إني لن أنكر أني أحبها. ولكن فيما يتعلق بشخصية الفلاح بشكل عام، وبشخصية «تيولين»، فإني لا أعرف عنها شيئًا. ومع ذلك فإن حديثك ممتاز، وفي غاية الوضوح والحيوية، ولغتك قوية – هذا كل ما أريد أن أقوله عن تقريظك لقصتي! أنا أشعر أنك قد شاهدت الكثير، وفكرت طويلاً. وإني لأهنئك على ذلك من القلب. من القلب».

ومد إليَّ يدًا مخشنة، لا شك أن المجداف أو الفأس قد أكسبها هذه الصلابة. لقد كان مولعًا بقطع الأخشاب، وبكل صنوف العمل اليدوي.

«هلم الآن – قل لي ماذا رأيت؟».

شرعت أتحدث إليه عن صنوف الباحثين عن الحقيقة الذين صادفتهم في رحلاتي، والذين يهيمون بالمئات مرتحلين من بلدة إلى بلدة، ومن دير إلى دير، في طرق روسيا الزراعية ذات المنحنيات الكثيرة.

وأطل كورولنكو من الشباك نحو الشارع، ثم قال:

«إن معظمهم متبطلين، أبطال فاشلون، ومفتونون بأنفسهم إلى حد مُقرف، هل لاحظت أن جلهم عصبيّون؟ فمعظمهم لا يبحثون بحال

من الأحوال عن «الحقيقة المقدسة»، ولكنهم يبحثون عن كسب سهل وعن فرصة يصبحون بها عالة على غيرهم».

وقد أدهشتنى هذه الكلمات التى ألقاها فى هدوء، وكشفت لى فى الحال عن الحقيقة التى كنت أحس بها بنفسى إحساساً غامضاً.

واستطرد كورولنكو يقول:

«بعضهم يستطيعون نسج أحدوثة جيدة. إنهم يملكون ثروة لغوية، ولحديثهم مظهر الحرير الأملس دائماً».

كان «الباحثون عن الحقيقة» هم الشخصيات التى يميل إليها الناروديون فى كتبهم عن تاريخ حياة الأشخاص. وها هو كورولنكو يسميهم بالمتبطلين، وبالعصبيين أيضاً، فوق البيعة. وهذا القول كان يبدو كالهرطقة، ولكنه فى شفتى كورولنكو يصبح قولاً له وزنه، ومقنع. وقد دعمت هذه الكلمات اعتقادى بأن هذا الرجل، أمامى مستقل روحياً».

«أنت لم تزر ڤولهينيا أو بودوليا؟ بقاع حلوة!».

وعندما أطلعته على المناقشة التى اضطررت لخوضها مع إيوان كرونشتادتسكى، صاح متحمساً:

«ما رأيك فيه؟ أى صنف من الرجال هو؟».

«رجل مؤمن بحق، على طريقة بعض قسيسى القرية البسطاء، من قلبه الطيب الشريف. أظن أن شهرته تفزعه، فهى فوق ما يطيق. إنه ليثير فيك الشعور بأن الأمور تجرى كيفما اتفق فيما يخصه، وبأنه لا يسلك بمحض اختياره. إنه يظل يسأل إلهه: أهذا صواب يا إلهى؟ وهو فى خوف مقيم، يخشى – ألا يكون هذا صوابًا؟».

قال ف. ج. كورولنكو مفكرًا: «غريب ما أسمعه».

ثم استرسل يحدثنى عن محادثاته مع فلاحى لوكويانوف القرغزيين المنشقين، عاملاً على أن يبرز بسخريته الذكية القادرة نسيج أحاديثهم المسلى، الذى تتداخل فيه خيوط الجهل والدهاء معًا، ومنوهًا فى براعة ببداهة الفلاح وريبته فى الغرباء، ريبة المتحرِّر.

«إنى ليبلغ بى الظن أحيانًا إلى أنه ليس فى نحو من أنحاء العالم حياة روحية متباينة المشارب، مثل الحياة هنا فى روسيا. وحتى إذا كان فيما أقول شيء من المغالاة، فإنى أستطيع أن أزعم وأنا مطمئن أن شخصيات أولئك الذين يفكرون ويؤمنون فى وطننا متباينة تباينًا لا نهائيًا، وعلى نحو يبعد بها عن أى توافق أو اتساق».

كان يتحدث بنبرة تنم عن الخطورة حول حاجتنا لدراسة فاحصة عن الحياة الروحية فى الريف، وأعلن:

«هذه الدراسة لن يتمها علماء طبائع الشعوب وأخلاقها. ينبغى علينا نحن أن نعالج الموضوع من زاوية مختلفة تمامًا، وبتدقيق أكبر،

وفى تعمق أعظم. فالقرية - التربة التى ننبثق منها كلنا، تنبت أيضًا كثيراً من الحشائش غير النافعة. ولكى نبذر البذور فى هذه التربة، نحتاج نحن للحذر، بقدر ما نحتاج للعمل. فى هذا الصيف بالذات تحدثت مع شاب لا يمكن أن نصفه بالغفلة، إلا أنه أكّد لى بكل جد أن نمو طبقة الكولاك (أصحاب الملكيات الزراعية المتوسطة) فى القرية علامة من علامات التقدم، لأن الكولاك، بكل تأكيد، يجمعون رؤوس أموال، وروسيا بحاجة لأن تصبح بلداً رأسماليًا. فإذا كان هذا النوع من الدعاية يصل القرى...».

وضحك.

وعندما ودّعنى تمنى لى التوفيق ثانية. فسألته:

«ما رأيك - ألىَ القدرة على الكتابة؟».

فصاح مدهوشًا قليلاً:

«طبعًا لك المقدرة! إيه، أنت تكتب فعلاً، وتنشر ما تكتبه - ماذا تريد أكثر من ذلك؟ إذا كنت تريد النصح، فهات النسخ الخطية لقصصك، وسنناقشها؟».

ورحلت عنه، وأنا شاعر بأنى قد تشددت، وكأنى كنت مجهداً جداً ذات يوم حار وغطست فى المياه الباردة بإحدى قنوات الغابات.

وقد أثار ف. ج. كورولنكو بنفسى مشاعر احترام قوية، ولكنى لسبب ما، لم يخالجنى شعور يجذبنى إليه، وهذا ما كان يثقلنى بالهم.

ولا شك أن ذلك مرجعه أنى كنت حينذاك سئمت المعلمين وسائر من يلقون إلىَّ بتعليماتهم، وكنت مشوقًا لأن أرتاح منهم، ومشوقًا إلى حديث ودى بسيط، مع روح عطوفه حول الأشياء التى كانت تغيظنى. ففى كل مرة أسوق مجموعة من انطباعاتى إلى معلمىَّ، كانوا يشرعون فى تفصيل ما كتبته وحياكته على مودة وتقاليد الشركات الفلسفية – السياسية، التى يشتغلون بها ترزية وخياطين. وكنت أرى أنهم حقيقة غير قادرين على الخياطة والتفصيل بغير طريقتهم، ولكنى وجدت أنهم يفسدون أدبى.

وبعد ذلك بأسبوعين حملت معى لكورولنكو حكايتى الخرافية «الصياد والجنية»، وقصة «عزرائيل العجوز» التى كنت قد فرغت لفورى من كتابتها، ولم يكن كورولنكو فى البيت؛ فتركت النسخ الخطية هناك، وفى اليوم التالى تلقيت منه مذكرة: «احضر فى المساء لأحدثك. فلاديمير كورولنكو».

وقابلنى على عتبة بيته، وكان فى يده فأس، قال وهو يلوح به:

«لا تظن أن هذه أداتى للنقد. لقد كنت أثبت بعض الرفوف فى مخدعى ليس إلا، ولكن فى جعبتى قدراً ما من العقوبات أعددتها لك».

والتمع وجهه بالمرح، وابتسمت عيناه، وكانت تفوح منه رائحة الخبز الطازج، مثل فلاحة روسية ممتلئة بالصحة والعافية.

«لقد ظللت أكتب طول الليل، وغفوت قليلاً بعد الغداء. وانتابنى شعور بأنه يلزمنى أن أجد شيئًا أشتغل فيه».

كان يبدو لى مختلفًا جدًا عن الرجل الذى رأيته منذ أسبوعين. ولم يعد ينتابنى أدنى شعور بأنه معلم، أو بأنه سيلقى إلىَّ بتعليماته. بل كان يقف أمامى شخص لطيف، يبدو فى حالة اهتمام أخوى بالعالم كله.

وأخذ يتكلم، وهو يلتقط قصصى الخطية من فوق المنضدة، ويضرب بها ركبته: «حسن. لقد قرأت حكايتك الخرافية. ولو قد كَتَبَتها فتاة تمضى أكثر وقتها فى قراءة شعر موسيه، وخصوصًا فى ترجمة سيدتنا العجوز العزيزة ميسوڤسكايا، كنت قلت لتلك الفتاة: «لا بأس، ولكن أحسن لك أن تتزوجى، لو تعرفين...»، ولكن أن يكتب رجل شرس متعثر لحركات مثلك، شعراً حنونًا، فذلك مما يشين، أهون ما يوصف به أنه جريمة. متى فعلت ذلك؟».

«عندما كنت فى تفليس».

«هو ذاك إذن! الحكاية كلها يتصاعد منها بخار متشائم، تذكر - إن الموقف المتشائم من الحب ليس إلا رماعًا، وإنه، كنظرية، تنقضها كل ممارسة، أكثر من أى نظرية أخرى. نحن نعرفكم - أنتم المتشائمون، وقد سمعنا عنكم قبلا!».

وغمز لى بعينه فى دهاء وضحك، واستطرد يقول بجد:

«الشيء الوحيد الذى ينبغى أن تصنعه بمرثية كهذه، هو أن تنشر القصائد منفصلة، فهى أصيلة جداً - وسأتولى عنك هذا العمل. أما «عزرائيل العجوز» فهى مريرة بعض الشيء، وأوثق بناء، ولكن هاك - مجاز آخر من مجازاتك! إنها لن تقودك إلى شيء جيد. هل دخلت السجن؟ دخلته؟ حسن، لا بد أنك ستعود إليه ثانية!».

وسكت لحظة، ثم قال وهو يلتفت إلى صفحات القصة:

«عجيب جداً، هذا! هذه هى الرومانتيكية، وقد انتهى عهدها منذ زمن بعيد. وإنى لعظيم الشك فى أن «أليعاذر» يستحق أن ينهض من بين الأموات. أحسُّ كأنك لم تكتب على سجيتك. أنت واقعى لا رومانتيكى - واقعى! هنا موضع واحد بالذات، فى صدد ذلك البولندى، يبدو لى ذاتياً للغاية - ألا توافقنى؟».

«قد تكون على حق».

«أها! إذن فأنت فهمت! اسمع - نحن نعرف بعض شيء عنكم أيها الناس! ويجب عليك أن تتخلص من كل ما هو ذاتى - فذلك لا يطاق. طبعاً أنا أعنى ما هو ذاتى بالمعنى الضيق».

كان يتحدث فى يسر وفى سرور، وعيناه تلتمعان التماعاً بهيجاً، وحملقت فيه مدهوشاً، كأنى لم أره من قبل. وألقى بالقصص الخطية فوق المنضدة، والتفت إلىّ، وقد وضع يده على ركبتى.

«اسمع، هل يمكنني أن أكون صريحًا جدًا معك؟ أنا لا أكاد أعرفك؛ لقد سمعت الكثير عنك، وأستطيع أن أرى القليل بنفسى. أنت لا تحيا كما ينبغى لك. أنت لا تعيش فى المحيط الملائم. أظن أنه يلزمك أن ترحل، أو أن تتزوج بنتًا ذكية لطيفة».

«ولكنى متزوج».

«هذا إذن هو السبب بالضبط».

فقلت له إنى أفضل ألا نناقش هذا الموضوع فقال: «آسف».

وأخذ يمزح، ثم قال فجأة، بنبرات مهمومة:

«أوه. هل تعرف أن روماس قُبض عليه منذ زمن طويل؟ لقد سمعت هذا النبأ بالأمس فقط. فى سمولنسك، ماذا كان يفعل هناك؟».

وكان البوليس قد أغلق مطبعة «حق الشعب»، التى كان يديرها روماس فى بيته.

قال ف. ج. مفكرًا: «فتى لا يهدأ له بال. والآن، سيرحِّلونه ثانية. كيف حاله؟ بخير، لقد كان دائمًا فتى ذا جلد».

وتنهد وهز كتفيه العريضين:

«كل ذلك ليس بالشىء الذى نريد. لا يمكن أن نصنع شيئًا بهذه الطريقة. إن قضية استيرييف درس جيد. إنها تقول لنا: قوموا

بالعمل العادى «المشروع»، من أجل أهداف الثقافة اليومية. إن الأوتوقراطية سنٌ يتآكل، ولكنه لا يزال قويًا، وجذوره عميقة ومنتشرة، وليس على جيلنا أن ينزعه - ينبغى أن نزعزعه أولاً، وهذا وحده يستغرق سنوات من العمل المشروع».

واستمر يتحدث في هذا الصدد مدة طويلة، وكان من الواضح أنه يؤمن بهذا الموضوع إيمانًا حيًا.

ودخلت أڤدوتيا سيميونوڤنا، وارتفع صخب الأولاد، فنهضتُ، ورحلت عنهم وفى قلبى مشاعر طيبة.

من المعروف جداً أن الحيطان فى الأقاليم زجاجية؛ فكل شخص يعرف كل شيء عنك، ويعرف فيمَ كنت تفكر حوالى الساعة الثانية من يوم الأربعاء، وفى يوم السبت قبل صلاة منتصف الليل مباشرة. وكل شخص يعرف أخفى نواياك، ويتضايق جداً إذا قصَّرت فى تنفيذ تنبآته وتخميناته وتوقعاته عنك.

وقد كانت كل البلدة طبعًا تعرف أن كورولنكو يحبنى. وكان لا بد لى من أن أصغى إلى كل صنوف النصائح.. من هذا القبيل:

«خلِّ بالك! سيديرون رأسك - فهم أذكى منك ونصف!».

ويشيرون إلى القصة التى كانت شائعة حينذاك، والتى كتبها ب. د. بوبوريكين بعنوان «الرجل الذى أفاق»، وهى قصة رجل ثورى

اشتغل بالأعمال القانونية فى مجلس زمستفو، وبعدها فقد مظلته، وهجرته زوجته.

«أنت ديموقراطى، ولا حاجة بك لأن تتعلم من الجنرالات - فأنت ابن الشعب».

كانوا يقولون لى ذلك.

لقد لبثت زمنًا طويلاً أحس بأنى من الشعب بمنزلة ابن الزوج، وهو شعور تزايد مع الأيام؛ وكما قلت من قبل، كان الناروديون أنفسهم يبدون مثلى، وكأنهم بمنزلة أولاد الزوج من الشعب. وعندما أشرت إلى هذا، عنفنى الناس.

«أترى - لقد أصابتك العدوى فعلاً».

ودعانى جماعة من الطلبة من أعضاء ندوة ياروسلافل العلمية إلى حفلة، وقرأت لهم شيئًا، وحاولوا خفية عنى أن يصبوا الفودكا فى كأسى المملوءة بالبيرة، وأمنيتهم ألا ألاحظ ذلك منهم. ولكنى رأيتهم متلبسين بمكيدتهم، وفهمت أنهم يريدون أن يسكرونى سكرًا شديدًا جدًا، ولكن الذى لا أفهمه هو: لماذا يريدون ذلك. وقال لى أحدهم مؤكدًا، وهو فتى مفتون ومصدور:

«ليس أعظم من أن تلقى بكل الأفكار وكل المثل وكل هذه الكتابات فى الجحيم. اكتب ببساطة! تسقط الأفكار!».

وقد أثارت كل هذه النصائح غثيانى.

وكان ف. ج. كورولنكو مثل سائر الشخصيات اللامعة، هدفًا لكل ألوان الاعتداءات من قِبل الناس العاديين. وكان البعض يقدرون فيه، مخلصين، موقفه الودى من أولئك الذين دأبوا على أن يحاولوا إشراكه فى مشاحناتهم الشخصية الحقيرة، بينما كان البعض الآخر يحاولون أن يغتابوه اغتيابًا غير جارح. ولم يكن أصدقائى يحبون قصصه حبًا جما.

قالوا لى: «صديقك كورولنكو هذا يؤمن باللّـه فى الواقع!».

ولسبب ما كانوا لا يحبون بالذات قصته «فى أعقاب الأيقونة»، ويعتبرونها مجرد دراسة للعادات الشعبية.

وحتى باڤل ياكوشكين كتب عنها بهذه الروح. وقد كانوا مصرين على أن بطل القصة، صانع الأحذية، شخصية مختلسَة من قصة ج. أوسبنسكى «الأخلاق فى شارع راستيريڤا». وقد ذكرنى هؤلاء النقاد بقسيس ڤورونيچ الذى سمع وصفًا تفصيليًا لرحلات ميكلوخو - ماكلاى، فسأل مغضبًا:

«أنت تقول إنه حمل معه إلى روسيا أحد أهالى بابيوا! ولماذا بابيو؟ ولماذا يحمل واحداً فقط من أهالى بابيوا؟».

ذات صباح باكر، كنت راجعًا للبيت، بعد أن تجولت فى الحقول طول الليل، فصادفت ف. ج. كورولنكو واقفًا تحت سقيفة بيته.

سألني مدهوشًا: «من أين طلعت؟ أنا ذاهب أتمشى، إنه صباح حلو. تعال معى».

وظهر لى أنه هو أيضًا لم ينم ليلته - فعيناه كانت تحيطهما هالتان حمراوتان، وكانتا جافتين، متعبتين، ولحيته معقدة الشعر، وملابسه متهدلة.

«لقد قرأت قصتك «جرانداد آرخيب» في مجلة ڤولجار - لا بأس بها، وهي من صنف الأدب الذى يناسب المجلات. لماذا لم تطلعني عليها قبل نشرها؟ ولماذا انقطعت عن زيارتي؟».

فقلت له: إنى انقطعت عن زيارته بسبب الطريقة التى أعطانى بها سلفة قدرها ثلاثة روبلات، إذ إنه مد يده إلىَّ فى سكون، وظهره جهتي. لقد شعرت بأنى أهنت. إن اقتراض النقود عمل مقبض، ولم أكن ألجأ إلى الاقتراض إلا عندما تضطرنى لذلك حاجة فظيعة. وفكر قليلاً، وقد تجهم وجهه:

«لا أذكر ذلك. ما دمت تقول إن هذا حدث، فلا بد أنه حدث. ولكن يجب أن تغفر لى شيئًا صغيرًا كهذا. أظن أنى كنت فى حالة نفسية سيئة، وقد عاودتنى هذه الحالة مرارًا فى المدة الأخيرة. إنى أغرق فى التفكير فجأة، وأصبح حينذاك كمن وقع فى قاع بئر، فلا أعود أرى شيئًا، وأبذل جهدًا وأنا أحاول أن أسمع».

وأمسك بذراعى، ونظر فى عينىَّ.

«انسَ ما حدث. لا حق لك فى أن تستاء، إنى أكنُّ لك أحسن المشاعر، ولكن غضبك ليس انفعالاً سيئًا أبدًا. إننا لا نستاء بسهولة على الإطلاق، وهذا خطأ كله. هيا، انس ما حدث. عندى شىء أقوله لك: أنت تكتب كثيرًا، وفوق الحد، وفى تسرع، والقارئ يقع دائمًا على مواضع غير كاملة، ومهوشة فى قصصك. وصف المطرفى «آرخيب» ليس مكتوبًا بالشعر، ولا بالنثر الغنائى. وهذا سيِّئ».

وتحدث إلىَّ حديثًا طويلاً ومفصلاً عن قصص أخرى لى، وكان واضحًا أنه قرأ كل شىء صادفه مما كتبت، بإمعان كبير. وقد تأثرت لهذا جدًا، بالطبع.

وقال إجابة على شكرى: «يجب أن يساعد الواحد منا الآخر، فنحن لسنا بالكثيرين، ولكل منا مصاعبه».

وخفض صوته وهو يسألنى:

«هل سمعت؟ أصحيح أن فتاة اسمها إيستومانيا شملها التحقيق فى قضية روماس؟».

كنت أعرف هذه الفتاة، تعرّفت عليها حين انتشلتها من نهر الفولجا، وكانت قد قفزت من مؤخرة قارب وألقت بنفسها فى الماء. وكان انتشالها سهلاً جدًا، فقد ألقت الفتاة بنفسها فى موضع ضحل. كانت مخلوقًا ضيق الأفق، ولا لون لها، وبها ميل هستيرى، وولع مريض، بالكذب. وأظنها اشتغلت فيما بعد مربية عند أسرة فى

ساراتوف، ثم قُتلت بين من قتلتهم القنبلة التى ألقاها أحد الماكسيماليين. فنسف القصر الريفى للوزير بجزيرة أبتيكارسكى.

وبعد أن سمع ف. ج. ما كان لا بد أن أقوله له، قال وهو غاضب تقريبًا:

«إن إقحام الأطفال فى عملية خطرة كهذه، جريمة. لقد قابلت هذه الفتاة منذ أربع سنوات، أو أكثر ربما. ورأيى فيها يختلف عن رأيك. مجرد بنت حلوة، تتألم من ظلم الحياة الواضح، وكان يمكن أن تصبح معلمة قرية طيبة. يقولون إنها اعترفت بأشياء فى التحقيق. ولكن ماذا كان بوسعها أن تعرفه؟ لا أجد أى تبرير للتضحية بالأطفال على مذبح السياسة».

وأسرع فى مشيته، وتعثرت أنا، وقدمىَّ ملتهبتين، وتأخرت قليلاً:

«مالك؟».

«الروماتيزم».

«فى شبابك! فى رأيى أنك كنت مخطئًا تمامًا فيما قلت عن الفتاة. ولكن، على العموم، أنت تحكى بطريقة جيدة. اسمع - حاول أن تكتب شيئًا أطول، للمجلة. آن الأوان لذلك. سينشرونه. وأرجو أن تبدأ فى أن تأخذ نفسك مأخذ الجد».

ولا أذكر أنه حدثني بعد ذلك مثل هذا الحديث الساحر الذى دار بيننا فى ذلك الصباح المنير، بعد يومين لم ينقطع خلالهما المطر، وبين الحقول المنتشية.

جلسنا طويلاً على حافة الخندق بجوار مقابر اليهود، معجبين بحبات الندى الزمردية فوق أوراق الشجر، وفوق الأعشاب، وهو يحكى لى عن المأساة الهزلية فى حياة اليهود «داخل أسوارهم»، بينما تزداد عتمة ظلال التعب تحت عينيه.

وكانت الساعة قد جاوزت التاسعة حين عدنا إلى البلدة. وعندما استأذنت منه ذكّرنى بما قاله لى:

«إذن فستحاول أن تكتب قصة طويلة أليس كذلك؟».

وذهبت إلى بيتى، وجلست على الفور أكتب «تشيلكاش»، وهى قصة صعلوك من أوديسا، كان جارى فى عنبر المستشفى ببلدة نيكولاييف. ولبثت يومين أكتبها، ثم أرسلت المسودة الخطية إلى ف. ج.

وبعد يوم أو اثنين هنأنى بحرارة.

«ليس شيئًا رديئًا، ذلك الذى أرسلته لى! إنها قصة جيدة جداً. مفصّلة من جميع القماش...».

وقد ارتبكت جداً من ثنائه على القصة.

وفى ذلك المساء، كان جالسًا على كرسيه فى مكتبه الصغير، فقال متحمسًا:

«ليست رديئة أبدًا! أنت تجيد خلق الشخصيات، فالناس عندك يتكلمون ويسلكون من تلقاء أنفسهم، وأنت تحاول ألا تتدخل فى تيار أفكارهم، ولعب مشاعرهم، وهذا ما لا يقدر عليه كل الكتاب. وأحسن شىء أنك تصور الناس كما كما وجدتهم. لقد قلت لك إنك واقعى».

ولكنه سكت لحظة، ثم ضحك وأضاف:

«ولكنك فى نفس الوقت رومانتيكى. واسمع! أنت لم يمض عليك هنا إلا ربع ساعة، وهذه رابع سيجارة تدخنها!».

«أنا مهتاج جداً».

«لا ينبغى أن تهتاج. أنت تهتاج بلا توقف، وربما كان هذا هو السبب فى أن الناس تقول عنك إنك تشرب كثيراً. إن جِلدك على العظم – يجب ألا تدخن، فالتدخين لن يمنحك أى سرور – مالك؟».

«لا أعرف».

«وما حكاية شريك – صحيح؟».

«كذب كلها!».

«وأنك تقوم بكل صنوف العربدة...».

ونظر إلىَّ فى ثبات، وضحك، وكرر على مسمعى بعض ألوان النميمة المنسوجة فى مهارة، والتى سمعها عنى.

ثم نطق بالكلمات التى لا تنسى:

«بمجرد أن يحرز المرء لنفسه أدنى قدر من الشهرة، تقرع له الناس رأسه - لمجرد أن تتأكد... هذا قاله طالب. ولكن بصرف النظر عن المزاح، لا تبالِ بأسلوب معاملتهم لك. سننشر «تشيلكاش» فى مجلة «الثروة الروسية»، وفى صفحتها الأولى، وذلك امتياز خاص لك، تكريم. إن بالقصة بعض الهنات النحوية، مما قد يفسدها، ولكنى صححتها. ولم أمسسها من أى ناحية أخرى - أتحب أن تراها؟».

ورفضت طبعًا.

وذرع الغرفة الصغيرة وهو يفرك يديه قائلاً:

«نجاحك أسعدنى جداً».

وقد أذهلنى صدق انفعاله وسعادته، ولم يكن يسعنى إلا الإعجاب بهذا الرجل الذى كان يتحدث عن الأدب، وكأنه يتحدث عن امرأة يحبها حبًا هادئًا مقيمًا، إلى الأبد. ولم أنس أبداً كم كنت سعيداً، وأنا وحدى مع هذا الربَّان، أرقب عينيه فى سكون. وكم كان يلتمع فى عينيه من الفرح لى.

الفرح لرجل آخر، إحساس لا يعترى الإنسان إلا فيما ندر، ومع ذلك فهو أعظم مشاعر الفرح على الإطلاق.

وتوقف كورولنكو أمامى، ووضع يديه الثقيلتين على كتفىّ:

«اسمع – لماذا لا ترحل عن هنا. تذهب إلى سمارا، مثلاً. لى صديق فى مجلة سمارا. إذا أحببت فإنى أكتب له كى يدبِّر لك عملاً، هل أفعل؟».

«لماذا، هل أنا واقف فى طريق أحد هنا؟».

«بل إن آخرين يقفون فى طريقك أنت».

واتضح لى أنه صدَّق حكايات سكرى «وعربدتى فى الحمام العام»، «وذنوبى»، التى كان فى مقدمتها الفقر. وقد ساءنى إصراره على أن أرحل عن البلدة، ولكنى تأثرت فى نفس الوقت من رغبته فى أن ينتشلنى من «حضيض الرذيلة».

وأطلعته، وأنا منفعل، على حياتى. وكان يصغى فى سكون، ويعبس، ويهز كتفيه:

«ولكنك ترى بنفسك أن هذا كله مستحيل، ماذا يهمك أنت من كل هذه السخافات؟ لا. اسمع كلامى. أنت يلزمك مجرد أن ترحل، وتغيِّر أسلوب حياتك...».

وقد أخَذت بنصيحته.

وبعدئذ، بينما كنت أكتب قصصًا يومية رديئة لمجلة سمارا وأوقعها بالاسم المستعار «ييجوديل خلاميدا»، كتب كورولنكو لى خطابات ينقد فيها عملي الشنيع، فى تهكم، وفى رزانة، وبقسوة، ولكن بروح ودية دائمًا.

ولا يزال حادث واحد حيًا فى ذاكرتى.

كان يثير الفثيان بنفسى شاعر يحمل عن حق لقب «سكوكين» (١). كان يوالى الصحيفة باستمرار بقصائد، طول الواحدة منها ياردة من الورق، وكلها أخطاء نحوية لا علاج لها، وتافهة بشكل لا يبشر بأدنى أمل، ويستحيل بذلك نشرها. وكان الظمأ للمجد قد ألهم هذا الرجل بفكرة شاذة، فطبع قصائده على أوراق قرمزية، ووزعها على دكاكين البقالة كورق لِلَف السلع، يلف فيه الباعة علب الشاى والحلوى والسردين والصلصة، فيحصل الزبون بذلك على ورقة طولها بضعة أقدام ومدبجة عليها الأشعار، وتتلقى فيها السلطات المحلية وأولو الأمر من النبلاء ومحافظ المدينة والمطران، مع المشتروات، ثناء يرتفع بهم إلى عنان السماء، وله نبرة متزنة للغاية، كمنحة فوق البيعة.

وكان كلٌ من وجوه القوم هؤلاء مبرزًا فى ناحية من النواحى، وجديرًا بالالتفات، ولكن الأسقف بنوع خاص كان شخصًا ملحوظًا. فقد كان عَمّدَ فتاة تترية قسرًا، وكاد يصبح بهذه الفعلة سببًا فى إشعال الفتنة بين التتار فى كل أنحاء المنطقة، وأقام من بلاهته دعوى ضد الخلستيين (٢)، صدرت فيها أحكام على أشخاص بريئين تمامًا،

---

(١) سكوكين: لفظ مشتق من «سكوكا»، ومعناها الملال. (إيفى)

(٢) طائفة دينية. (إيفى)

وكنت أعلم ببراعتهم علمًا قاطعًا. وكان أمجد أعماله هو الآتى: بينما كان يجوب منطقة أسقفيته ذات يوم جوّه ردىء، تحطمت عربته بجوار قرية صغيرة جداً. واضطر أن يأوى إلى كوخ أحد الفلاحين. وهناك اعترته دهشة عظيمة، إذ رأى فوق رف، بجوار الأيقونة، تمثالاً نصفياً من المصيص للإله چوبيتر. وقام بالتحريات، وبجولة تفتيشية فى الأكواخ الأخرى أسفرت عن اكتشاف صورة لإله الأوليمب، وتماثيل لڤينوس فى عدة بيوت أخرى، بينما لا يريد أحد أن يقول من أين أتى بهذه الأوثان.

وكان فى هذا ما يكفى لإقامة قضية جنائية ضد طائفة من الوثنيين فى سمارا، واتهامهم بعبادة آلهة الرومان القدماء. وقد أُلقى بالكفرة فى السجن، ولبثوا فيه إلى أن كشف التحقيق أنهم إنما قتلوا رجلاً من مستعمرة الجند فى ڤياتكا وسلبوه، وكان القتيل تاجراً متجولاً يبيع تماثيل المصيص.

وبعد أن قَتل هؤلاء الناس البائع اقتسموا سلعَه بروح ودية، وكان ذلك هو كل ما فى الأمر.

بالاختصار، لم أكن أنا راضيًا عن المحافظ، ولا عن الأسقف، ولا عن البلدة، ولا عن الكون كله، ولا عن نفسى، فضلاً عن استيائى من أشياء أخرى كثيرة. وهكذا، حدث أنى فى ثورة غضب واهتياج شتمت الشاعر الذى يغرق بالمديح من كانوا فى نظرى غاية فى الحقارة.

وأرسل لى ڤ. ج. كورولنكو على الفور رسالة طويلة يلومنى فيها، ويلفت نظرى إلى أنه حتى عندما يشتم المرء الناس، فلا بد له من أن يراعى جادة الأدب. وقد كانت رسالة جيدة، ولكن البوليس استولى عليها عندما هاجم غرفتى، وفقدتها مع سائر خطابات كورولنكو لى.

وكلمة عن البوليس.

فى الربيع الباكر من سنة ١٨٩٧م قبض علىَّ فى نيچينى - نوفجورود، ورحِّلت إلى تفليس بلا ضجيج. وهناك فى قلعة ميتيخى، أثناء التحقيق، قال لى الكابتن كونيسكى فى غباء، وهو الذى أصبح فيما بعد مديراً للبوليس فى بطرسبرج.

«أى خطابات جميلة كتبها كورولنكو لك - وتعرف، لقد أصبح كورولنكو الآن الكاتب الأول فى روسيا».

كان هذا الكابتن نوعًا عجيبًا من السمك - صغير الحجم، وله إشارات حذرة ومختلسة، تدل على فقدان الثقة بالنفس، وأنف شيطانى متدلٍ على نحو كئيب، وعينان لا تلائمان بقية ملامح وجهه أبداً، يقظتان، وأنساناهما كأنهما يختبئان خلف جسر أنفه.

«أنا من نفس بلدة كورولنكو. من ڤولهينيا، مثله، وسليل ذلك الأسقف كونيسكى الذى خاطب كاترين الثانية بخطاب عن الشمس، إذا كنت تذكر. أنا فخور به».

فسألته فى أدب بأيهما هو أكثر فخراً، جده الأسقف، أو ابن بلدته كورولنكو.

«بكليهما، طبعًا - بكليهما».

وكأن عيناه اختفتا نهائيا وراء جسر أنفه، ولكنه تنشّق بصوت مرتفع، ثم عادت عيناه إلى موضعهما الطبيعى. وإذ إنى كنت منزعجًا، على حافة الغيظ، أوضحت له أنى لا أستطيع أن أفهم لماذا يفخر برجل يمتاز برعاية البوليس الدائمة له.

فقال فى صلاح:

«كل منا يحقق إرادة الكائن الأعلى. دعنا نستأنف. إذن فأنت تعترف... ورغم ذلك فقد كنا على بيِّنة من...».

كنا جالسين فى غرفة صغيرة تحت سطح الأرض، فى مدخل القلعة، وكان الشباك عاليًا جداً فى الحائط، يكاد يصل إلى السقف، وأشعة الشمس السخنة تنحرف خلاله لتسقط على المنضدة فوق أكوام الأوراق، وأثار فزعى أن الشمس أضاءت قصاصة ورق كنت قد كتبت عليها بضعة كلمات بخط واضح.

ونظرت إلى هذه الورقة الملعونة وأنا أفكر:

«ماذا أقول إذا سألنى الكابتن عن معنى هذا الهراء؟».

وخلال ست سنوات من ١٨٩٥ إلى ١٩٠١م لم أر فلاديمير كورولنكو، ولم نتبادل غير خطابات قليلة فى تلك الفترة.

وفى سنة ١٩٠١م ذهبت لأول مرة إلى بطرسبرج - بلدة الخطوط المستقيمة والناس غير واضحى الملامح. وقد كنت «مودة» الناس هناك، وكنت أحرزت قدرًا من الشهرة أصبح مثار مضايقة عظيمة لى. وقد تغلغلت جذور شهرتى فى الأعماق. أذكر أنى كنت أعبر قنطرة إينشكوف ذات مساء، فلحق بى رجلان، يظهر أنهما حلاقان، ونظر أحدهما فى وجهى، وقال لرفيقه بنبرات خافتة مذعورة:

«انظر - إنه جوركى!».

وجمد الآخر. وفحصنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى، وصاح فى حماس وهو يتنحى ليفسح لى الطريق:

«الشيطان! إنه يرتدى خفا ريفيا!».

وفضلاً عن دواعىَ للسرور لا حصر لها، سعدت بالتقاط صورة لى مع محررى مجلة «ناتشالو» (البداية)، وكان من بينهم م. جوروڤتش، وهو عميل مهمته الاستفزاز واصطياد الأحرار.

وسعدت للغاية طبعًا بأن النساء كنَّ يقابلنى بابتسامات ملاطفة، وبأن ألمح نظرات تكاد تعبدنى فى عيون بنات صغيرات. ولا شك أنى كنت، كأى شاب تهبط عليه الشهرة فجأة، أشبه بالطاووس.

ولكنى كنت فى الليل أنفرد بنفسى، فينتابنى فجأة مثل شعور المجرم الطليق، تحوطه الجواسيس، والقضاة، ورجال النيابة، وكلهم

يسلكون كما لو أنهم يعتبرون جريمتى مجرد «طيش شباب» مؤسف، وسوء طالع – اعترف فقط، ولسوف يغفرون لك من فيض كرمهم. ولكن كل منهم ينطوى فى أعماق قلبه على رغبة لا تقاوم فى أن يقبض على المجرم، ويصرخ فى وجهه ظافراً: «أمسكتك!».

وقد كان يعترينى فى معظم الأحيان شعور تلميذ جالس للامتحان العلنى فى كل فروع المعرفة.

كان كبار القسس ورجال الطوائف الدينية يسألوننى بعيونهم الفاحصة: «ما عقيدتك؟».

وقد استسلمت لهذه الامتحانات لأنى مؤدب، وأظهرت صبراً أدهشنى أنا نفسى، ولكن إذا ما مضى عذاب الاستجواب، كان ينتابنى شعور بالرغبة فى أن أغرز برج الأميرالية فى قبة كنيسة القديس إسحق، أو أن أقترف أى حيلة أخرى خبيثة.

وفى مكان ما، وراء هذا المرح، كان ثمة غالبًا شىء زائف، كان الروسيون يخفون شيئًا شبيهًا بالوقاحة. وهذه الخصلة – أو هل أقول: منهج الاستقصاء هذا؟ – كانوا يعبِّرون عنه بأساليب مختلفة، ويعبرون عنه بصفة رئيسية بمحاولة كل منهم أن يقتحم تفكير جاره – كما لو كان تفكيره هذا عرضًا مسرحيا فى سوق – حتى يرى كيف تتألف فيه الحيَل، وتتوسل بالترهات، لكى تدوس، وتشوش، وتحْوى على عقل الآخرين، ولكى تقلب شيئًا فيه رأسًا على عقب أحيانًا... كانوا يعبرون

عن هذه الخصلة بأن يحاول كل منهم أن يدفع بأصابعه في الجروح، فِعْل توماس الشكاك؛ وهو فيما يظهر لا يرى فرقًا بين شك الرسول وفضول القرد.

وقد وجد ڤ. ج. كورولنكو حتى في بطرسبرج المبنية بالحجر، بيتًا خشبيا عتيقًا، مهيأ بوسائل الراحة الريفية، وأرضيَّته مطلية – بيت معطر بشذى السنين اللطيف.

وخلال هذه السنوات كان ڤ. ج. قد وخط الشيب شعره كله، بينما أصبحت أطراف شعره على صدغيه بيضاء. وكانت تحت عينيه تجاعيد، ونظرته متعبة وشاردة. وقد لاحظت لفورى أن الهدوء الذى كنت أحبه فيه استحال إلى عصبية رجل قواه الروحية مجهدة إلى الحد الأقصى. واتضح لى أن قضية مولتان [1] قد كلفته كثيراً.

«أنا أعانى من الأرق – وهو لا يدع لى أى هدوء. وأنت، هل تدخن كثيراً كما كنت تفعل، برغم السل؟ كيف حال رئتيك؟ أنا أنوى السفر إلى البحر الأسود. هلا ذهبنا سويا؟».

---

(١) قضية لفقت بقصد التشهير (١٨٩٢ – ١٨٩٦م)، وقد أقامها بوليس القيصر ضد جماعة من فلاحى أودمورت من قرية ستارى مولتان بولاية فياتكا. وقد قام كورولنكو بالدفاع فيها عن الفلاحين. (إيڤى)

وأجلس نفسه إلى المائدة أمامي مباشرة، وحملق فيَّ من وراء السماوڤار، وشرع يتحدث عن كتاباتي:

«إنك في قصص من قبيل «ڤارنكا أوليسوفا» أحسن منك في قصص مثل «قصر ماجورديف». إن هذه الرواية عسيرة القراءة؛ ومكتظة بالمادة، ولكنها فقيرة جداً في نظامها أو رشاقتها».

وفرد نفسه حتى طقطقت سلسلته الفقرية، وسأل:

«حسن – هل أصبحت ماركسيا؟».

وعندما قلت له إني أقرب ما أكون إلى ذلك، ابتسم ابتسامة شكسة وقال:

«هي في نظري مجرد تشويش. اشتراكية بلا مثالية – لا أستطيع أن أفهم ذلك. ولا أعتقد أن الوعي بالمصالح المادية العادية يكفي لبناء نظام خلقي عليه – لا نستطيع أن نحيا بلا أخلاق».

وسأل وهو يحسو الشاي:

«حسن، ما رأيك في بطرسبوج؟».

«البلدة أمتع من الناس الذين يسكنونها».

«الناس هنا –».

ورفع حاجبيه وهو يدعك عينيه المتعبتين بأصابعه بشدة.

«الناس هنا أوروبيون أكثر من أهل موسكو، أو من قومنا في الڤولجا. يقولون إن موسكو أكثر تفردًا - لست أعرف. يلوح لي أن تفردها ليس إلا من قبيل المحافظة الخرقاء البليدة. وعندهم هناك السلاڤوفيليون، وكاتكوف، ومن إليهم؛ ونحن عندنا الديسمبريون، والبتراشيڤسكيون، وتشيرنيشڤسكي».

فأضفت: «وبوبيدونوستسيڤ».

فاستأنف حديثه ضاحكًا: «والماركسيون، وكل صنوف الأفكار التقدمية، أو بتعبير أدق، الأفكار الثورية. ولكن بوبيدونوستسيف موهوب. قل فيه ما تشاء، هل قرأت له «شهريات موسكو؟» اسمها موسكوو، على فكرة».

وفي الحال شملته كله حيوية عصبية، وهو يروي لي حسابًا هزليا للمعارك بين الحلقات الأدبية، وللمناقشات بين الناروديين والماركسيين.

وكنت قد عرفت شيئًا عن كل هذا، ففي اليوم التالي لوصولي بطرسبرج استُدرجت إلى مشكلة لا أذكرها حتى اليوم إلا وتنتابني مشاعر سيئة. ولقد زرت كورولنكو حقيقة لأتحدث إليه في هذا الموضوع بالذات، ولأسباب أخرى.

وهذا ما حدث:

أعدّ ف. ا. بوس، رئيس تحرير مجلة «الحياة» لأمسية أدبية، احتفالاً بذكرى ن. ج. تشيرنيشڤسكي، ودعا إليها ڤ. ج. كورولنكو،

و ن. ك. ميخايلوفسكى، و ب. ف. ستروف، و م. ا. توجان بارانوفسكى، وبعض الماركسيين والناروديين الآخرين. وقد وافق الكتاب على الحضور، وأذِن البوليس بإقامة الحفلة.

وفى اليوم التالى لوصولى إلى بطرسبرج زارنى طالبان متأنقان وبنت ذات دلال، وأعلنونى أنهم لا يمكن أن يوافقوا على اشتراك بوس فى حفلة تشيرنيشفسكى، لأن «الطلبة لا يحبون بوس، فهو يستغل محررى مجلة الحياة». وكنت قد عرفت بوس لأكثر من سنة، ورغم أنى كنت أعتبره ذكيا وموهوباً، فلم أكن أعتقد أنه من الذكاء والموهبة بحيث يستطيع أن يستغل محررى «الحياة». وكنت أعرف أن علاقته بالمحررين كانت علاقة زمالة، وأنه هو نفسه كان يشتغل بجد كالحصان، ويعيش هو وأسرته عيشة أقرب إلى التضور جوعًا، لا يعتمد على غير مرتبه التعس. وعندما قلت ذلك للشبان، تحدثوا عن موقف بوس السياسى الغامض، وتأرجحه بين الناروديين والماركسيين، وهو شىء، بالمناسبة، كان هو يفهمه جيداً؛ ولذا كان يوقع مقالاته بالاسم المستعار «ڤيلد». وغضب حماة الخلق والعقيدة منى لما قلته، وانسحبوا من عندى، معلنين أنهم سيذهبون إلى كل من سيشترك فى الاحتفال، ويحثونه على الامتناع عن إلقاء كلمته.

ومن ثم لم تعد هذه الحادثة فى جوهرها هجومًا شخصيا ضد بوس، وإنما أصبحت فصلاً آخر من فصول الصراع بين اتجاهين فى الفكر السياسى. وقد اعتبر شباب الماركسيين أنه من غير اللائق

أن يظهر ممثلوا مدرستهم أمام الجمهور مع ممثلى النارودية «البالية المحتضرة». كل هذه الحكمة شرحَتها لى رسالة تبلغ من طولها حجم الكتيب، مكتوبة بأسلوب خيل لى معه أنى أقرأ لغة أجنبية. وبعد أن تسلمت هذه الرسالة من ناس لم أكن قد تعرفت إليهم، تسلمت مذكرة من ب. ب. ستروف يبلغنى فيها أنه رفض إلقاء كلمة فى الاحتفال. وبعد عدة ساعات تسلمت منه مذكرة أخرى يقول فيها إنه قد سحب رفضه. وفى اليوم التالى رفض م. ا. توجان - بارانوفسكى. وأرسل لى ستروف مذكرة أخرى أيضًا، فيها رفض نهائى هذه المرة؛ وكالمذكرتين السالفتين لم تحو هذه المذكرة إشارة إلى أدنى سبب لرفضه إلقاء كلمة فى الحفلة.

ضحك ف. ج. وهو ينصت لحكايتى عن كل تلك الجلبة، وقال فى سخرية مريرة:

«هاك - إنهم يطلبون منك أن تقرأ، وعندما تصعد فوق المنبر يشدون بنطلونك يخلعونه، ويعطونك علقة سخنة».

ومشى جيئة وذهابًا، ويداه مطويتان خلف ظهره، واستطرد يتحدث فى نبرات مفكرة خافتة:

«عصر شاق! فى الجو شىء غريب ومثبِّط للعزائم. لا أستطيع أن أفهم هوى هؤلاء الصغار، ويبدو لى أن العدمية تنبثق فيما بينهم؛ وقد بدأ الاشتراكيون المحترفون يظهرون. الأوتوقراطية تخرب روسيا، ومن الصعب أن نتبين: أية قوة تلك التى تستطيع أن تحل محلها».

ولم أكن قد رأيت كورولنكو من قبل مهمومًا ومتعبًا على هذا النحو. وقد أحزنني هذا للغاية.

وحينذاك وصل بعض أعضاء مجلس زمستقو من الريف، وانصرفت أنا. وبعد بضعة أيام رحل كورولنكو إلى مكان ما فى إجازة، ولا أستطيع أن أذكر ما إذا كنت قابلته بعد ذلك أو لا.

لم ألتق به إلا قليلاً، ولا أتيح لى أبدًا أن ألحظه مدة كافية، وكانت الظروف تقطع علىّ محاولتى أن أتأمله دائمًا، يومًا بعد يوم، حتى خلال الفترات القصيرة جدًا التى كنت أراه فيها.

ولكن كل حديث تجاذبت معه كان يؤكد فكرتى التى كونتها عنه باعتباره رجلاً إنسانيا عظيمًا، إننى لم ألتق فى حياتى بأحد من المثقفين الروسيين له مثل هذا الظمأ «للحقيقة والعدالة»، أو بأحد من المثقفين الروسيين ينطوى على مثل شعور كورولنكو الجارف بضرورة تجسيد الحقيقة الكامنة فى الحياة.

وبعد موت ل. ن. تولستوى، كتب كورولنكو لى:

«لقد زاد تولستوى عدد المفكرين والمؤمنين كما لم يزدهم أحد قبله. ويبدو لى أنك تخطئ إذ تقول إن هذه الزيادة فى عدد المفكرين والمؤمنين تمت على حساب الناس الإيجابيين، أو على حساب أولئك القادرين على الإيجاب. إن الفكر الإنسانى إيجابى دائمًا؛ استثره فحسب، وسيتجه مطالعًا وجه الحقيقة والعدالة».

إنى لأحس إحساساً يقينيا بأن جهد ف. ج. كورولنكو الثقافى قد أيقظ الوعى بالحقيقة، من غفوته، فى عدد واسع جداً من بنى وطنى. لقد وهب نفسه لقضية العدالة فى تدفق عقلى متفرد، يمتزج فيه الفكر والشعور معًا امتزاجًا متسقًا يرتفع إلى مستوى الهيام الدينى العميق. كان يبدو وكأنه قد رأى العدالة، وأحسها، وهى مثل كل أرفع أحلام الإنسان، ضباب تخلقه روح المرء، ويتدافع نحو التجسد فى شكل ملموس.

لقد وهب طاقته للنضال الذى لا ينى، ولا يتوقف، ضد المسخ ذى الألف رأس الذى كانت تغذيه طبيعة الحياة الخيالية فى روسيا، وكان ذلك على حساب موهبته الفنية.

كانت الأشكال الصارمة للفكر وللسلوك الثوريين تملأ قلبه بالارتباك وتعذبه - قلب رجل مغرم فى هيام بالجمال، وبالعدالة، ويسعى ليمزجهما فى وحدة مفردة. وكان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن قوى بلادنا الخالقة ستزهر عما قريب، وقد تنبأ بأن معجزة إيقاظ الشعب من الموت ستكون معجزة عظمى.

وفى سنة ١٩٠٨م كتب:

«إن كل عمل يؤدَّى اليوم، سيفضى إلى انفجار بركانى خلال سنوات قليلة، وتلك ستكون أيامًا رهيبة. ولن يحدث هذا إلا إذا كانت روح الشعب حية، وإن روحه لحية».

وفى سنة ١٨٨٧م اختتم قصته «أثناء الخسوف» بهذين البيتين من قصيدة للشاعر ن. بيرج:

الديَكة تصيح فوق روسيا المقدسة،

وسرعان ما ترى روسيا المقدسة فجرها!

وطوال حياته، حياة البطولة الشاقة، كان يسعى ليلتقى بهذا اليوم المجيد. وإن ما فعله ف. ج. كورولنكو فى سبيل سرعة حلول فجر هذا اليوم، لهو عمل لا يمكن أن يشمله أى حصر.

* * *

ميخائيل كوتسوبينسكى[1]

«الكمال نادر»، هكذا كتب الجونكورتيون. وقد كان كوتسوبينسكى واحداً من هؤلاء النادرين، الذين يشعرونك فى أول لقاء بأن: هذا هو الرجل الذى كنت أريد أن ألقاه، الرجل الذى من أجله كنت أحتفظ بأفكار معينة، خاصة جداً.

وله ألفة عظيمة بعالم الجمال والخير الروحى، ومن أول لقاء بالذات يثير فى المرء حنيناً لزيارته كلما أمكن ذلك، والتحدث إليه طالما كان ذلك ممكنا.

ورغم أنه ليس ثمة شىء لم يتأمله، إلا أن أقرب شىء له هو الخير، وكراهة الشر وسرعة الغضب عليه شىء فطرى فيه. وله بصيرة جمالية بما هو خير؛ نامية فى دهاء. وهو يحب الخير بغرام الفنان، ويؤمن

---

(١) ميخائيل ميخائيلوفتش كوتسوبينسكى (١٨٦٤ - ١٩١٣م) - كاتب أوكرانى بارز. وأحسن أعماله «فاتا مورجانا» - ويعالج حركة الفلاحين أو أوكرانيا خلال (١٩٠٥ - ١٩٠٧م). (إيفى)

بقوته الظافرة، وفى قرارة نفسه شعور المواطن الذى يفهم الدلالة الثقافية والقيمة التاريخية للخير، فى عمق وفى مقدرة على استيعاب جوانبه المتباينة.

ذات مرة، بينما أروى له خطة لتنظيم مشروع ديموقراطى للنشر على نطاق واسع فى روسيا، سمعت صوته الرقيق وكلماته المفكرة:

«ينبغى أن تصدر سنويا «صحيفة للظواهر الإنسانية» - نوع من الاستعراض لكل جهود الإنسان، خلال السنة السابقة، فى سبيل تقدم سعادة البشر. ذلك ليصبح كتيبًا رائعًا يتعرف فيه الناس على أنفسهم، وعلى بعضهم البعض. نحن نألف ما هو شر أكثر مما نألف الخير، تعرف. وستكون عواقب هذه الصحيفة ذات أهمية فائقة للديموقراطية...».

وكان ولوعًا بالتحدث عن الديموقراطية، وعن الناس، وكان ثمة دائمًا شىء سار بنوع خاص، وتعليمى، فيما يقوله.

وذات أمسية هادئة حكيت له حكاية الكاليبرىّ الذى تقدم خلال كفاح صقلية ضد فيرديناند بومبا سنة ١٨١٩م - تقدم من روجيروسيتيمو التقىّ باقتراح برىء:

«سيدى إذا انتصر طاغية نابلى، فسيقطع رأسك من غير شك، أليس كذلك؟ فقدم له إذن يا سيدى ثلاثة رءوس بدل رأسك الواحدة - هى رأسى ورأسىّ أخى وزوج أختى. نحن جميعًا نحتقر بومبا

كما تحتقره، يا سيدى، ولكننا ناس لا أهمية لها، ولا نستطيع أن نكافح من أجل الحرية بالحكمة والمهارة التى لك. ويبدو لى أن الشعب سيحرز مكسبًا عظيمًا بهذا الإجراء، وبوما سيرضى لا شك بأن يقتل ثلاثة بدلا من واحد، وهو فى غاية السرور. إنه يحب قتل الناس، ذلك التافه! ونحن سنقدم حياتنا فرحين، من أجل الحرية».

وقد أحب ميخائيل ميخاثيلوفتش الحكاية وقال، وعيناه تبرقان فى انفعال:

«الديموقراطية رومانسية دائمًا، وهذا شىء حسن، تعرف. فالرومانسية، بعد كل شىء، أكثر المواقف التى عرفها البشر إنسانية. ويبدو لى أن دلالتها الثقافية لا تقدر حق قدرها. إنها تغالى، طبعًا، ولكنها تغالى دائمًا من جانب الخير، لتثبت كم هو عظيم ذلك الظمأ للخير الذى يعانيه الناس».

وذكرى أخرى: وضعت كلبة ألمانية ضخمة من الكلاب التى تستخدم فى حراسة الماشية، أولى جرائها فى ألمٍ عظيم. وقد ولدت الجراء ميتة. وأثارت الكلبة، وهى نصف ميتة من الألم، أوضح مشاعر العطف فى كلبة من فصيلة أعداء الثعلب، ولم تكن قد وضعت جراءها بعد.

وقد أدهشتنا المخلوقة الصغيرة بفرط عاطفيتها. أخذت تخب حول كلبة الحراسة وتنوح فى خفوت، وتلعق دموع العذاب من عينيها، وتوشك أن تبكى هى الأخرى. ثم اندفعت إلى المطبخ فأطبقت على عظمة

وخطفتها وعادت بها إلى الكلبة المعذبة، وبعدها جرت إلى أولئك الواقفين حولها وصارت تقفز إليهم وهى تنبح نباحًا ناعمًا شاكيًا، كأنها تتوسل إليهم أن يساعدوها، وهى لا تزال تبكى، والدموع تنهمر من عينيها الجميلتين. كانت مؤثِّرة للغاية، ومفزعة قليلاً أيضًا.

صاح كوتسوبنسكى، وقد تأثر فى عمق: «عجيبة؟ الوسيلة الوحيدة التى يمكننى بها أن أفسر لنفسى قوة مشاعر الكلبة هى (أن أزعم)، أن البشر قد نجحوا فى خلق جو إنسانى مؤثر وقوى، وقادر على تطويع حتى طبائع الحيوان، وإشرابها شيئًا من الروح الإنسانية».

الإنسانية، الجمال، الناس، أوكرانيا - وما شابهها، كانت موضوعات الحديث المحببة لكوتسوبنسكى، وكانت بعضه الذى لا ينفصل عنه، كقلبه نفسه، وكعقله، وكعينيه الجميلتين المحبَّتين.

كان يحب الزهور، ورغم أنه كان عارفًا بها معرفة عالم النبات، إلا أنه كان يتحدث عنها حديث الشاعر. وكم كان يدخل السرور إلى قلبى أن أراه ممسكًا بزهرة فى يده، يمسح عليها ويتحدث عنها.

«انظر! لقد اتخذت زهرة الأوركيد شكل النحلة. وهى تحاول بذلك أن تقول إنها فى غير حاجة لزيارة الحشرات. كم من العقل فى كل مكان، وكم من الجمال!».

وكان ضَعف قلبه يمنعهُ من المشى فى ممرات كابرى غير المستوية، فوق الصخور التى لفحتها الشمس، فى الهواء الساخن، الذى تثقله

رائحة الزهور؛ ولكنه لم يكن يرفق بنفسه، فكان يمشى طويلاً جداً، حتى ليصل إلى حد الإرهاق الشديد.

وإذا قال له أحد: «لماذا ترهق نفسك؟» يجيب عليه، نافضًا عنه النصيحة المعقولة:

«ينبغى أن أرى كل ما هو موجود لأراه. أنا لن أعيش طويلاً على الأرض – وأنا أحبها».

وكان يحب وطنه أوكرانيا حبًا خاصًا، ويتصور دائمًا أنه يشم رائحة نباتاتها حيث لا يمكن أن تنمو هذه النباتات.

وذات يوم، أبصر دغلا من زهور الخبيزة الأفرنجية الوردية الباهتة بجوار حائط أبيض لكوخ أحد الصيادين، فنورت الابتسامة وجهه، ورفع قبعته للزهور، وهو يقول بلغة أوكرانيا:

«تحياتى، يا أصدقائى! كيف تعيشون فى البلد الغريب؟».

ثم خجل قليلاً، فحوَّرها إلى نكتة:

«يبدو أننى أصبح عاطفيًا بعض الشىء. ولكنك أنت أيضًا، ربما، توحشك كثيراً أغصان أشجار البتولا ذات الجذوع البيضاء، الأغصان التى كانوا يضربونك بها، ألا تُوحشك؟ أوه، كلنا بشر، وإذا كان أحدنا ليس بشراً، فينبغى عليه أن يخجل من نفسه!».

وكابرى كان يحبها.

كتب: «أنا لا أشعر براحة، لا أرتاح إلا فى كابرى. فالطبيعة هناك متسقة جدًا، وتؤثر فى روحى تأثيرًا محببًا يجعلها أحسن علاج لى».

ولكنى لا أعتقد أن ذلك صحيح للغاية، فجو الجزيرة الدفئ لم يكن يصلح له. وفوق ذلك كان قلبه الأوكرانى مقيمًا دائمًا فى وطنه، وكان هو يعيش فى حسرات قلبه، ويعانى ما يعانيه.

وكان المرء يراه أحيانًا ماشيًا فى بطء، محنيا قليلاً، ورأسه اللامعة عارية، وقد ارتسم على وجهه هذا التعبير المتأمل الذى رسمه الفنان زوك، فى صورته. وحينئذ يستطيع المرء أن يخمن: إنه يفكر فى منطقة تشيرنيجوف.

هكذا كان حاله. وذات يوم عاد إلى غرفته البيضاء، وغاص منهوكًا فى مقعده وقال:

«تصور - فى الطريق إلى آركانا تورالى كوخ يماثل بالضبط الأكواخ فى بلادنا؛ وسكانه أيضًا - الجَد، مقعد وحكيم، يجلس على عتبة الباب بغليونه، والمرأة، والصبية الداكنة العينين - خداع بصر متكامل. كل شىء عدا الجبال، والصخور، والبحر.. كل شىء عدا ذلك، حتى الشمس، هو نفسه كما فى الوطن».

ويبدأ يتحدث فى صوت خافت عن مصير وطنه، ومستقبله، وقومه الذين أحبهم غاية الحب، وعن آدابه، والعمل النافع الذى قامت به صحيفة بروسڤيتا الممنوعة حاليا. والمرء إذ يصغى له يدرك أنه يفكر

بلا انقطاع فى هذا كله، وأن الذى يعرفه كوتسوبنسكى، يعرفه غاية المعرفة.

وفى يونية من سنة ١٩١١م كتب من كرويڤوريڤنا فى جبال الكربات:

«لقد أنفقت عمرى هائمًا فى الجبال فوق مُهر جوزولى، خفيف ورشيق كراقص باليه. وقد زرت مناطق وحشية لا يستطيع الوصول إليها غير القليلين، فوق المروج الشاهقة حيث يقضى الجوزوليون الرحَّل كل الصيف مع قطعانهم. إذا كنت تعرف فحسب أى جلال للطبيعة هنا، وأى بداوة فى الحياة. الجوزوليون شعب مسلٍّ جداً، ولهم خيال ثرى، وأكثر المظاهر السيكولوچية أصالة. هم وثنيون فى الأعماق، ومع ذلك ينفق الجوزولى حياته كلها إلى يوم مماته فى الصراع مع الأرواح الشريرة التى تسكن الغابات والتلال والأنهار. وقد استخدم المسيحية لمجرد تزيين طقوسه الوثنية. وكم من الحواديت الخرافية الجميلة، والتقاليد، والمعتقدات، والرموز تجدها هناك! أنا أجمع مواد، وأستمتع بالطبيعة، وأنظر وأصغى، وأتعلم».

وفى خطابه الثانى من تشيرنيجوڤ، اضطر أن يعترف:

«لا أستطيع مقاومة الرغبة فى تسلق الجبال. وقد آذيت صحتى طبعًا، ولكن ذلك كان جميلاً للغاية - وهذا أهم شىء».

وبينما كان فى تلهفه على معرفة الحياة وجمالها لا يعفى قواه، كان موقفه من موهبته الشاعرية صارمًا للغاية، وقد أرهق نفسه بمطالب قاسية فوق الحد.

كان يقول مراراً: «إن عندى شعوراً قوياً بعدم الرضى عن نفسى».

وكتب سنة ١٩١٠م: «تبدو لى قصصى أحياناً غثة، غير مسلية، نافلة، وأحس أحياناً بغاية الذنب حيال الأدب وحيال قرائى».

وقد شعرت أن هذه الأفكار كانت ماثلة أبداً فى ذهنه، وتقرض أبداً قلبه المعذب.

وكان يسأل: «هل تحب قصيدتى ساموتنى؟».

«إنها أحسن قصائدك النثرية الثلاثة، وفى رأيى أن القصائد الثلاثة حسنة».

فيبتسم فى حزن.

«قرأتها مرة أخرى صباح اليوم، وشعرت بغاية الحرج. فلا أحد يمكن أن يريدها، وهي لا يمكن أن تهمّ أحداً. لِمَ كان هذا العويل؟ كل شخص وحيد. ولماذا يكتب امرؤ عن لعنتنا هذه كما كتبتُ؟».

ثم استشاط غضباً، واستأنف يقول:

«فى النهاية بالذات صيحة ابتهاج – وهذا ليس صدقاً، أقحمتها فقط لأعزِّى بها نفسى. فأى شىء هنالك ليثير البهجة؟ إذا كنتَ وحيداً – فذلك يعنى أن أحداً لا يحتاج لك».

وكثيراً ما تحدثنا عن هذا، وكان دائماً يعنف نفسه بقسوة:

«أنصت لهذا الشعر. فهو جيد:

أيتها الأرض الحزينة! أنا أشفق بك فى ورطتك.

ومع ذلك أعرف أن الكآبة التى تغطى وجهك.

ستذوى ذات يوم، ومكانها.

سترسل شمس الحرية نورها الفرِح.

وضحك ثم حرَّف الأبيات إلى شعر هزلى.

قال له أحد الناس مرة:

«أى شىء صادق وفظيع، ضحكتك!».

فلوَّح بيده فى احتقار:

«إنها مستعارة. وتُطلق فى غير مهارة - الضحك فى الحياة الحقيقية أفظع، وله ما يبرره».

كان سماع إجاباته هذه يثير المرء أحيانًا، ويؤلم فى أحيان أكثر - وترن فيها نبرات عَذَاب عظيم وصادق.

وفى حين كان غير رحيم بنفسه، كان سمحًا إلى الحد الأقصى مع الآخرين، ويجد دائمًا حتى فيما هو غير جيد جدًا، كلمة بارزة أو جملة ممتازة.

قال ذات مساء، وقد تلفع البحر والجزيرة بسكون غريب، كأنهما معجبان فى صمت بشىء رائع ما: «يا صديقى العجوز، لقد رأيت أنا

وأحسست كثيراً جداً، ثمة عالم حقيقى من الصور، والأفكار، والأغنيات بسيطة ورقيقة إلى حد استدرار الدموع، تغلى فى روحى. لو أنى فقط أستطيع أن أجعلها تنهمر فى سيول كالأمطار على الأرض، وعلى الناس فوق الأرض! ولكنى لا أعرف سبيلاً إلى ذلك».

ولم يكن يستطيع ذلك، ولكنه ربما كان ليفعل، ربما كان ليستطيع أن يكتب أعمالاً عظيمة رائعة، فقد كان أنعم النظر فى قدر عظيم من الأمور، قدر عظيم مما هو جميل وأصيل فى ذاته. ولكنه لم يستطع التعبير عن كل ذلك، فخلال سنوات تعارفنا الثلاثة ظلت نفس النبرة ترن فى حديثه، وتتعالى قوتها فى كل حرف ينطقه.

«ينبغى علىّ أن أعترف أن بى خطأ ما. فقلبى تتفاقم حالته، وأضطر أحياناً للجوء إلى الفراش. والكتابة ترهقنى حتى لتستنفد قواى، فلا أستطيع أن أقوم بأى عمل آخر».

«لا أكاد أكون كسبت شيئًا هذا الشتاء، وذلك يخلق لى عقبة لا سبيل للتغلب عليها. وطوال الوقت تواجهنى مشكلة الڤيلا ذات الغرف الأربعة، وإيجارها ٦٥ ليرة، وصاحبتها الطيبة تغرينى بابتساماتها المضيئة».

وأخيراً، كتب فى التاسع من أكتوبر سنة ١٩١٢م:

«أنا أواجه مصيراً سيئًا، يا عزيزى ا. م.، فالمرض يلازمنى باستمرار وفى قسوة. والأسوأ من كل ذلك، أنى لا أستطيع النهوض بأى

عمل. وقد بقى أمامى علاج اليائس - أن أذهب للمستشفى وألبث فيها مدة طويلة، وعلى ذلك فسأرحل خلال أيام إلى كييف».

وكتب فى حبور من عيادة أوبرازتسوف:

«أخيراً نقلونى إلى كييف، وأدخلونى المستشفى باعتبار حالتى مرضًا خطيراً فى القلب. ومع ذلك، تصور! يبدو لى أحيانًا أن المرض شىء لطيف جداً. تزورنى كل يوم شخصيات رائعة، ويحضرون لى أحبَّ الأشياء إلىَّ - زهوراً، وكتباً؛ وهم أنفسهم. إن نفس الشمس التى تدفئك تطل علىَّ من نافذتى، وهذا يجعلها فى نظرى أكثر دفئًا، وأطيب».

كان به ولع أن يهدى كلمة طيبة للناس، فهو حتى حين كان يعانى أعمق الأحزان فى اليوم الأسبق لموت ن. ف. ليسنكو، وهو مؤلف موسيقى أوكرانى نابه، كانت بقلبه كلمة طيبة كهذه ليقولها...

كان يعرف أنه سرعان ما سيموت، وكان يتحدث عن ذلك دائمًا، فى بساطة وبلا خوف، وبلا شجاعة المدعين أيضًا، التى قد يجد فيها بعض العزاء الكاذب.

قال ذات مرة:

«ينبغى أن ندحر الموت، وسندحره. أنا أومن بانتصار العقل والإرادة على الموت، كما أومن بالضبط بأنى أنا نفسى سرعان ما أموت.

وسيموت ملايين الناس بعدى، ومع ذلك، سيصبح الموت، عندما يحين الوقت، مجرد سلوك يصدر عن الإرادة؛ وسيتهيأ البشر للنسيان التام، بنفس الوعى الذى يتهيأون به للنوم. سينحدر الموت عندما تفطن أغلبية الناس إلى قيمة الحياة فى وضوح، وتدرك جمالها، وتحس فرحة العمل والعيش».

كان رجلاً ذا ثقافة روحية محلِّقة، وله معرفة حسنة بعلم الطبيعة، ويتابع فى مثابرة كل الجهد الذى كان يُبذل فى الصراع ضد الموت، ولكنه كان يحس أيضًا بشاعرية الموت، شاعرية التغييرات الدائمة فى الشكل.

ويعود المرة بعد المرة يرفع عينيه فى امتنان، يتأمل صخور كابرى الرمادية، المكسوة فى ثراء بأعشاب وزهور فخمة، ويقول:

«كم هى باهرة قوة الحياة! نحن قد اعتدناها فلا نلحظ انتصار الحى على الميت، والفعال على السلبى، ويبدو أننا لا نعى بأن الشمس تخلق الزهور والثمار من الصخر الهامد، ولا نرى كيف ينتصر الحى فى كل مكان، ليبهجنا ويسرنا. ينبغى أن تحيى العالم بابتسامة ود...».

وكان يعرف كيف يبتسم - ابتسامة ود لكل شىء.

كتب لى عن موت تولستوى:

«أسفت حين قرأت عن ألمك لموت تولستوى. لقد عانيت أنا أيضًا، ولكن - هل ينبغى علىَّ أن أخجل؟ - شعرت بالسرور لمعرفتى أن العظمة

مـوجـودة عـلى الأرض. ويـبـدو أن الموت يـبـدى نِسب العظمـة بـأوضح مما تبديها الحياة».

وقد أحسست أن أموت ميخائيل كوتسوبنسكى خسارة شخصية فادحة وقعت بى، فقد فقدت فيه صديقًاحقيقيا.

لقـد ذبلت نـوّارة جـمـيـلة نادرة، وانطفـأ نجم عطوف. وقـد كـانت قسمته فادحة - فليس بالشغلة الهينـة أن يكون امرؤ شريفًا روسيا.

إن الرجال الطيـبين يتـناقصون فى عصرنا - دعنا نستسلم للأسى الحلو الذى يثـيره تذكّرهم، وتذكّـر جمـال هذه الأرواح المشـرقـة التى كانت تحب الإنسانية والعالم حبا متفانيًا، الأقـوياء الذين كانوا يجيدون العمل من أجل سعادة وطنهم.

لتحيا ذكرى الشرفاء!

* * *

نيكولاى جارين - ميخايلوفسكى

يولد من وقت لآخر فى العالم أناس، فلأسميهم الشهداء ذوى البشاشة. ولا أظن يسوع المسيح، الذى يجعل منه الإنجيل فقيهًا على نحو ما، هو جدُّهم الأعلى. إن الجد الأعلى للشهداء ذوى البشاشة قد يكون فرانسيس أسيسى - الفنان العظيم فى حبه للحياة، وهو لم يكن يحب لكى يعظ الناس بفضائل الحب، ولكنه أحب لمجرد أنه كان أستاذًا لفن ولبهجة الحب المذهل، ولم يكن يملك إلا أن يشرك الآخرين فى بهجته.

إنها بالضبط بهجة الحب، أؤكد لكم، وليست قوة الشفقة، هى التى ساقت چان هنرى دونان إلى إنشاء المنظمة العالمية المعروفة بالصليب الأحمر، والتى أنجبت شخصيات كالدكتور جاز المشهور، والذى كان إنسانيا عمليا، وعاش خلال الأيام العصبية لحكم القيصر نيكولا الأول.

ولكن لم يعد ثمة مكان فى العالم للشفقة الصرف، ويبدو أنها لم تعد تعيش فى عصرنا إلا كقناع للخجل.

وليس الشهداء ذوو البشاشة رجالاً عظماء جداً، أو ربما هم لا يبدون عظماء لأنهم، بالبداهة، لا يمكن أن يفطن إليهم الناس وهم في أرض معتمة بالعلاقات الاجتماعية الخشنة. إنهم يعيشون رغم ما هو بديهي، ووجودهم لا سبيل إلى العثور على تعليل له، إلا أن نعتبر سبباً لوجودهم أنهم يريدون أن يكونوا على هذا النحو.

وقد أسعدني الحظ أن ألتقي بستة شهداء من ذوي بشاشة، وكان أكثرهم تمثيلاً لهذا القوام من الخلق ياكوف تيتل، المدعي العام السابق في سمارا واليهودي غير المعمَّد.

وقد كان مجرد وجود يهودي في منصب المدعي العام، مثاراً لمضايقات لا نهاية لها، تعرَّض لها تيتل. كان رؤساؤه المسيحيون يعتبرونه لطخة تلوث النصوع الأبيض الذي تتصف به الإدارة القانونية، وكانوا يبذلون غاية الجهد لعزله عن منصبه الذي تولاه، فيما أعتقد، منذ «عصر الإصلاحات العظيمة». وقد كتب تيتل، الذي لا يزال يزدهر، عن الحرب التي خاضها ضد وزارة العدل في «مذكراته». نعم، هو لا يزال يزدهر، وقد احتفل أخيراً بعيد ميلاده السبعين أو الثمانين. ولكنه يقتفي أثر ا. بيشيخينوف و ف. مياكوتين، اللذين كانا دائماً يسلكان كأنهما أصغر سناً مما هو حقيقة.

فلم تكن الشيخوخة لتثني تيتل أبداً عن أن يواصل العمل الذي وقف عليه حياته. كما كان تماماً في سنتي ١٨٩٥ و ١٨٩٦م في سمارا، لاينى يحب، ويبش لرفاقه البشر، ويبذل غاية الجهد ليعينهم.

وقد كان أمتع الناس وأحبهم فى البلدة، وهم قليلون، يجتمعون فى بيته يوميا. كان كل شخص يزوره - من أول الچنتلمان الذكى أننكوف، رئيس محكمة المنطقة، وسليل أحد الثوار الديسمبريين، إلى أعضاء هيئة تحرير مجلة (سمارا هيرالد) الماركسيين، وأعضاء هيئة تحرير (سمارا جازيت)، المعادون لمحررى (هيرالد)، وخصومتهم تصدر عن التنافس، أكثر مما تصدر عن العقيدة السياسية. وهناك يستطيع المرء أن يقابل محامين أحراراً وشباناً ذوى مشاغل غامضة، لكن لهم نوايا وأفكاراً غاية فى الإجرام. وكان من الشاذ أن يلتقى المرء بمثل هؤلاء الأشخاص، ضيوفاً «باختيارهم» فى بيت المدعى العام. والأدهى من ذلك أنه لم يكن فيهم من يبذل أدنى جهد لإخفاء أفكاره أو نواياه.

وعندما يصل الوافد الجديد إلى البيت، لا يقدمه المضيفون لأصدقائهم، ولا يبالى به أحد، وكلهم متأكد تماماً أن أى وافد يزور ياكوف تيتل، لا بد أن يكون على ما يرام. وكانت تشمل الجلسة حرية قول لا حدود لها. وكان تيتل نفسه مجادلاً نارياً، ويضرب الأرض بقدمه حين يواجه من يناقشه، ويحول وجهه إلى اللون العنابى، ويقف شعره الرمادى المجعد على أطرافه، وينتفش شاربه الأبيض فى شراسة، وتتقلقل حتى أزرار زيه الرسمى. ولكن هذا كله لم يكن يفزع أحداً، لأن عينى ياكوف تيتل الرقيقتين تشعان طول الوقت بابتسامة وضيئة ودودة.

كان ياكوف لڤوڤيتش وزوجته ييكاترينا دمتريڤنا أكرم المضيفين، ويضعون على مائدتهم الضخمة طبقًا عظيم الحجم من اللحم والبطاطس المحمرة، يشترك فى تناولها الضيوف حتى لترضى قلوبهم، ويشربون البيرة أو النبيذ ثقيل القوام، ذا اللون البنفسجي؛ ربما كان نبيذًا قوقازيًا، فقد كان له طعم المنجنيز؛ ورغم أنه كان يلوث المفرش الأبيض ببقع لا تمحى، فلم يكن يؤثر فى رأس أحد من الضيوف.

وبعد العشاء كانت تنشب بين الضيوف معارك جدلية، كانت تبدأ غالبًا أثناء عملية اكتظاظ البطون، أيضًا.

وقد كان فى بيت تيتل أن تعرفتُ على نيكولاى چيورچيفتش ميخايلوفسكى - جارين.

تقدم إلىّ رجل يرتدى الزى الرسمى لمهندسى السكك الحديدية، ونظر فى عينىّ، وقال فى لهجة نشطة وفى ألفة:

«أنت جوركى، أليس كذلك؟ كتابتك لا بأس بها، ولكن ما تكتبه باسمك المستعار حلاميدا، ردىء. فأنت خلاميدا و أيضًا، أليس كذلك؟».

وكنت أعرف أنا نفسى أن كتابات ييجوديل خلاميدا رديئة، ويملؤنى الأسى لذلك، ربما كان هذا هو السبب الذى من أجله لم أحب المهندس، ولكنه استمر يقول فى هدوء:

«أنت لا تجيد كتابة المقالات الخفيفة. فهذا النوع من الكتابة يلزمه ملكة النقد الاجتماعى، وهى خصلة ليست فى طباعك. أنت تملك

روح الفكاهة، ولكنها فكاهة خشنة قليلاً، ولا تستخدمها استخدامًا ماهرًا جدًا».

وليس يسر المرء أن يفاجئه غريب بأن يطلق عليه حشداً من الحقائق التى تخصه. فالمرء حينئذ يتمنى أن يكون هذا الغريب مخطئًا، ولكنه يضطر للاعتراف بأن الرجل على حق.

كان يقف ملاصقًا لى، يتكلم فى لهجة سريعة جداً، كأنما فى نفسه قدر عظيم من الكلام، ويخاف أن يضيق به الوقت، فلا يستطيع أن يفرغ كل ما بنفسه. كان أقصر منى طولاً، فكنت أرى وجهه الرفيع جيداً، ولحيته المعتنى بها، وجبهته الجميلة من تحت شعره الرمادى، وعينيه بشبابهما الملحوظ. ولم أفهم جيداً ما تعبِّر عنه عيناه، وإن بدا لى فيهما الود، ولكنهما كانتا فى نفس الوقت متحديتين مستهزئتين.

وقدَّم لى نفسه بالاسم، كأنما ليؤكد حقه فى أن يقول لى ما يسوءنى: «ألا تحب ما أقوله؟ أنا جارين. ألم تقرأ شيئًا لى؟».

كنت قرأت له فى صحيفة «الفكر الروسى» مقالاته الشكيَّة بعنوان «وصف تخطيطى للقرية الحديثة»، وسمعت بعض القصص المسلية عن حياته بين الفلاحين. وقد استمتعت جداً «بالوصف التخطيطى»، الذى تعرَّض للنقد القاسى من قِبَل الكُتَّاب الناروديين، وما سمعته عن جارين دلَّنى على أن الرجل يملك موهبة التخيُّل. «إن وصفى التخطيطى ليس من الفن، وليس حتى من القصص» قال ذلك، وفى عينيه ذاتا المظهر الشاب نظرة مشتتة تنم عن أنه يفكر فى شىء آخر.

وسألته عما إذا كان حقًا قد بذر ذات مرة أربعين فدانًا ببذور الخشخاش.

«لماذا أربعون بالتحديد؟».

قالها وبدا عليه التضايق، وشرع يحصى بمشغولية زائدة، وحاجباه الجميلان معقودان:

«إنك لتغسل أربعين خطيئة، إذا قتلت عنكبوتًا. في موسكو، أربعون مضروبة فى أربعين من الكنائس. المرأة لا يسمح لها بالدخول فى الكنيسة إلا بعد الوضع بأربعين يومًا. طقوس الجناز للموتى تستغرق أربعين يومًا. أخطر الدببة هو الدب الأربعون. من أين، بحق الشيطان، جاءت كل هذه الدردشة حول الأربعينيات؟ ما ظنك بها؟».

ومع ذلك كان من الواضح أنه غير مهتم بأن يعرف رأيى، لأنه قال على الفور، وهو يربت على كتفى بيده الصغيرة القوية:

«كان يلزمك أن نرى الخشخاش وهو مزدهر، يا صديقى العجوز!» ثم راغ منى واستغرق في معركة الجدل التى كانت قد ثارت حول المائدة. لم يجعلنى هذا اللقاء أحب ن. ج.، وشعرت أن به شيئًا متكلفًا، فلماذا شرع يسرد علىَّ كل هذه الأربعينيات؟ وقد قضيت وقتًا طويلاً قبل أن تألف نفسى أناقته الأرستقراطية، و«تمذهبه بالديموقراطية»، الذى خيل لى فى أول الأمر أنه يصطنعه لكى يزهو به.

كان نحيفًا، حسن المنظر، ويتحرك بسرعة ولكن فى رشاقة، توحى بأن هذه السرعة ليس مصدرها اضطراب أعصابه، بل تدفق طاقته. وكان يبدو أنه يتكلم بإهمال، ولكنه كان يبنى عباراته فى الحقيقة بمهارة وأصالة. وكان أستاذًا فى كتابة الديباجة الجيدة، التى كم كان يبغضها ا. ب. تشيكوف. ولكنى لم ألحظ أبدًا فى ن. ج. خصلة المحامى الذى يتعاجب بفصاحته. وكان فى حديثه دائمًا «مجال ضيِّق للكلمات، ومجال فسيح للأفكار».

إنه قد يترك فى ذهن المرء، فى أول لقاء، أثرًا فى غير صالحه. وقد شكا منه المؤلف المسرحى كوزوروتوف، فقال:

«كنت أريد أن أحدثه عن الأدب، ولكنه تكرَّم علىّ بمحاضرة عن زراعة الجذور الصالحة للأكل، ثم بدأ يتحدث عن آفات الزرع».

وقد سألت ليونيد أندرييف: هل يعجبك جارين؟ فأجاب بقوله:

«ظريف جدًا، وذكى، وممتع للغاية، ولكنه مهندس. إنه لشىء سيِّئ، يا ألكسى، أن يكون المرء مهندسًا. أنا أخاف المهندسين – فهم خطرون. وقبل أن تعرف أين أنت، يركِّبون لك عجلة إضافية، فتنطلق لفورك على قضبان مجهولة. وجارين هذا له طريقة ينقل بها الناس إلى قضبانه هو – إنه لحوح جدًا، وعدوانى».

بنى نيكولاى چيورچيفتش خط السكة الحديدية بين سمارا وعيون المياه الكبريتية فى سيرچييفسك، وأى قدر تريد من القصص عن عمله هناك، قد حصل له.

احتاج إلى آلة ذات تركيب خاص، فأرسل تقريراً إلى وزير المواصلات يفيد ضرورة شرائها من ألمانيا. ولكن وزير المواصلات، أو لعله «ويت»، أمر برفض شرائها من ألمانيا، وأشار بطلبها من مصانع سورموفو، أو مصانع كولومنا. ولا أتذكر الآن الخدعة المعقدة والجريئة التى احتال بها جارين لشراء الآلة من ألمانيا، رغم كل شىء، وتهريبها إلى مدينة سمارا. ولا شك أنه بذلك قد وفَّر بضعة ألوف من الروبلات، وبضعة أسابيع أيضًا، هى أثمن من النقود.

وعلى أية حال، لم يكن الاقتصاد فى الوقت وفى النقود هو ما يزهى به بهذا الحماس الشاب؛ ولكنه كان مزهوا بنجاحه فى تهريب الآلة إلى سمارا.

كان يزعق: «ذلك كان عملاً عظيمًا! قل، ألم يكن كذلك؟».

ومن الواضح أن هذا العمل العظيم لم ينجزه لصالح العمل بقدر ما أنجزه إرضاء لرغبته فى قهر العقبات التى وضعت فى طريقه، أو بتعبير أبسط - لكى يلعب لعبة عملية على الحكومة. وقد كان ن. ج.، ككل روسى موهوب، تشوب فضائله سوءة ما.

فحتى أسلوبه فى الإحسان كان روسيا أصيلاً. كان يرمى نقوده حوله، كأنما هى عبء عليه، أو كأنما أوراق النقد الملونة بألوان قوس قزح، والتى يبادل عليها الناس بقواهم، تثير اشمئزازه. وكانت زوجته الأولى ثرية، وهى على ما أذكر ابنة الچنرال تشيريفين، وكان صديقًا مقربًا للقيصر ألكسندر الثالث. ولكن جارين أنفق ملايينها فى مدة

قصيرة جداً على التجارب الزراعية، وفى سنتى ١٨٩٥ و ١٨٩٦م كان يعيش على ما يكتسبه. كان يفعل كل شىء على أوسع نطاق، ويدعو أصدقاءه إلى وجبات غذاء وعشاء لذيذة، ونبيذ غالى الثمن. وما أقل ما كان يأكله ويشربه هو، حتى ليصعب على المرء أن يفهم أى شىء هذا الذى تتغذى عليه حيويته التى لا يدركها التعب. وكان ولوعًا بتقديم الهدايا وإسعاد الناس؛ ولكن لا ليفوز بحبهم، فقد كان يكفيه جداً سحر مواهبه، وحيويته المتدفقة، ليحظى بهذا الحب. وكانت الحياة فى عينيه إجازة، وقد فعل كل ما وسعه أن يفعله، بلا وعى، ليجعل أولئك المحيطين به يشاركونه فى وجهة النظر هذه.

وكنت أنا نفسى، على غير رغبة منى، طرقًا فى أحد مقالبه العملية. كنت ذات يوم أحد صباحاً فى مكتب «سمارا جازيت»، جالسًا أسرٌ إعجابى بإحدى مقالاتى، التى دهسها الرقيب كما يدهس حصانٌ حقلَ شوفان؛ فدخل علىّ البواب، صاحيًا جداً، وقال:

«هنا شخص يريد أن يقابلك. يقول إنه قد أحضر إليك بضعة ساعات من سيزران».

ولم أكن زرت سيزران، ولا اشتريت ساعات، فقلت ذلك للبواب.

خرج البواب، وغمغم بشىء عند الباب، ثم عاد ثانية.

«اليهودى يقول إنه أحضر لك بضعة ساعات».

«دعه يدخل».

فدخل يهودى عجوز، ذو شكل عجيب، ويرتدى معطفًا مغبرًا، وألقى علىَّ نظرة مرتابة، ووضع على المنضدة أمامى قصاصة ورق منزوعة من نتيجة حائط، مكتوب عليها بخط جارين الذى لا يُقرأ، «بيشكوف - جوركى»، وشىء آخر استحال علىّ أن أقرأه.

«هل أعطاك المهندس جارين هذه الورقة؟».

فقال العجوز:

«كيف أعرف؟ أنا لا أسأل زبائنى عن أسمائهم».

فمددت يدى وقلت: «أرنى الساعات».

ولكنه لم يفعل إلا أن خطا إلى الوراء، وسألنى وهو ينظر إلىّ كمن يظن أنى سكران:

«ربما كان هناك بيشكوف - جوركى آخر!».

«لا، ليس هناك آخر. أعطنى الساعات، واذهب».

«طيب، طيب»، قالها اليهودى، وخرج يهز كتفيه، دون أن يعطينى أية ساعات. وبعد دقيقة حمل البواب وأحد العربجية إلى داخل الغرفة قفصًا ضخمًا، غير ثقيل، ووضعاه على الأرض، بينما قال العجوز:

«وقّع الإيصال».

فأشرت للقفص أسأله:

«ما هـذا؟».

فأجابنى اليهودى بغير اهتمام:

«قلت لك – ساعات».

«أهى ساعة حائط من عهد أجدادنا؟».

«ساعات حائط – عشر ساعات».

«عشر ساعات؟».

«هـذا ما قلته».

كـان ذلك كله مـضـحكًا، ولكنى غـضـبت، فليـست كل نوادر اليـهـود مسلية، وخصوصًا عندما لا تفهم مغزاها، أو عندما تجد نفسك تقوم بدور سخيف فيها. سألت العجوز عن معنى كل ذلك.

«فكر فيما تقول! الناس لا تذهب من سمارا إلى سيزران لتشترى ساعات، أيحدث هذا؟».

ولكن اليهودى العجوز غضب عند ذاك.

«ليست شغلتى أن أفكر. لقد كلِّفت – افعل كذا. وقد فعلت. «سمارا جازيت»؟ مضبوط. بيشكوف – جوركى؟ مضبوط، أيضًا. أنت وقَّعت الإيصال. أى شىء تريد منى بعد ذلك؟».

وما كنت أريد شيئًا بعد ذلك منه. واتضح لى أن الرجل ظن أنه استُدرج إلى شغلة مشبوهة، فقد ارتعشت يداه، وأخذ يعبث بحافة

قبعته متململاً. وجعلتنى نظرته أحس كأنى قد أسأت إليه بطريقة ما، فصرفته وطلبت من البواب أن يحمل القفص إلى غرفة التصحيح.

وبعد أربعة أو خمسة أيام جاء نيكولاى چيورچييڤتش، معفَّرًا، مجهدًا ولكنه بشوش. وكان رداء المهندسين محبوكًا عليه كأنه جلده. سألته:

«أأنت الذى أرسلت الساعات؟».

«آه، نعم! أنا أرسلتها! فيها إيه؟».

وسألنى بدوره، وهو يتطلع إلى وجهى فى فضول:

«ماذا تنوى أن تفعل بها؟ فليس لها أدنى نفع لى أنا».

ثم حكى لى الحكاية الآتية: «بينما كان نيكولاى چيورچييڤتش جارين – ميخايلوڤسكى يتمشى فى بلده سيزران الصغيرة على ضفة الڤولجا، عند المغرب، صادف صبيًا يهوديًا يصطاد سمكًا.

وكان غير محظوظ على الإطلاق، تعرف يا صديقى العجوز. كان السمك الصغير يقضم الطعم بشراهة، ولكن اثنتين من كل ثلاثة كانتا تهربان. ما الحكاية؟ اكتشفت أنه لم يكن يصطاد بسنارة خطافية، ولكن بدبوس نحاسى».

وكان الطفل، طبعًا، جميلاً وذكيًا بشكل ملحوظ. ومع أن جارين لم يكن سانذجًا أبدًا، ولم يكن بخاصة طيب القلب، فهو لم يكن يقع إلا على أشخاص «أذكياء بشكل ملحوظ». فالمرء لا يلتقى إلا بمن يريد أن يلتقى بهم.

«وكان الولد قد تعرَّف على أحزان الحياة مبكرًا، ويعيش مع جده الساعاتى، ويتعلم الصنعة، وهو فى الحادية عشرة من عمره. ويظهر أنه هو وجدّه كانا اليهوديين الوحيدين فى البلدة... إلى آخره، إلى آخره، ذهبت معه إلى دكان جده. دكان تعس صغير. وكان العجوز يصلح محارق المصابيح الزيتية، وينظف غطاءات الساموفارات. عفر، وقذارة، وفقر. وأنا تنتابنى أحيانًا نوبة - عاطفية. أقدم لهم نقودًا؟ محرِجة. وهكذا اشتريت هذه الشروة كلها، وأعطيت النقود للولد. وقد أرسلت إليه بعض الكتب أمس».

وأضاف ن. ج. فى جد عظيم:

«إذا كنت لا تعرف ماذا تفعل بالساعات، أرسل لك من يحملها. يمكننا أن نعطيها للعمال على خط السكة الحديدية الفرعى».

كل هذا قاله، كعادته باستعجال عظيم، ولكنه كان محرَجًا قليلاً، ولاح لى أنه يفض السيرة بإشارة مختصرة قاطعة من يده اليمنى.

كانت «سمارا جازيت» تنشر له أحيانًا بعض القصص. وإحدى هذه القصص - وعنوانها: العبقرى - وقعت حوادثها بالفعل لليهودى ليبرمان، الذى اكتشف حساب التفاضل بنفسه. كان رجلاً شبه أمى، مصدورًا، اشتغل اثنتى عشرة عامًا بالحسابات، واكتشف فعلاً حساب التفاضل، ولكنه علم أن الناس حققت هذا الاكتشاف من قبله بدهر طويل، فمات كمدًا، وقد نزفت رئتاه دمًا على رصيف محطة سمارا.

لم تكن القصة مكتوبة جيداً، ولكن ن. ج. حكى قصة ليبرمان فى مكتب رئيس التحرير، فكان لها وقع دراماتيكى مؤثر. لقد كان راوية عظيمًا، وغالبًا ما كان حديثه أحسن من كتابته. وكان يشتغل فى ظروف غير ملائمة على الإطلاق لكاتب، والأعجوبة أنه كان يعيش حياة ارتحال دائم، ويستطيع مع ذلك أن يكتب قصصًا مثل: «طفولة تيوما»، و«التلاميذ»، و«الطلبة»، و «كلوتيلدا»، و «جدتى».

وعندما طلبت منه «سمارا جازيت» أن يكتب قصة ليبرمان الرياضى، قال بعد أن قلَّب وجوه الأمر طويلاً، أنه سيكتبها فى القطار فى طريقه إلى مكان ما بمنطقة الأورال. وقد أحضر بداية القصة إلى الصحيفة شخص يدعى أيزفوتشيك من محطة سمارا، مكتوبة على استمارات تلغرافية. وفى نفس الليلة تسلمنا برقية طويلة جداً تتضمن تعديلات لبداية القصة. وبعد يوم أو يومين تسلمنا برقية أخرى تقول: «لا تطبعوا القصة طرفكم، سأكتبها بشكل آخر». ولكنه لم يرسلها بشكلها الآخر أبداً. وقد وصلتنا خاتمة القصة من إيكاتيرينبرج، على ما أظن.

وكان خطه غير مقروء إلى حد أن المخطوط كان بحاجة لعملية (حل شفرة)، وهذا طبعًا نتج عنه تغيير القصة قليلاً. وقمنا بنسخ المخطوط بخط يمكن أن يقرأه عامل المطبعة. وكان طبيعيًا جدًا أن يقرأ ن. ج. قصته، وقد انعقدت جبهته، فيصيح:

«أى شىء جعلنى أكتب هذا، بحق الشيطان».

وقال لى عن قصته «جـدتى»:

«كتبها فى ليلة واحدة، فى محطة إرسـال البريد. كان بعض التجار هناك يسكرون، ويثرثرون كقطيـع من الأوز، فجلست وكتبت».

ورأيت مسودات كتابه عن منشوريا، و«حكايات خرافية من كوريا»؛ حزمـة من كل أنوا ع قصاصـات الورق – منهـا اسـتمارات مكتـوب على رأسـهـا «مصلحة السكك الحديدية والمرور»، وصـفـحـات مسطَّرة منزوعة من دفـتر حسابات المصلحة، وتذكرة لإحدى حفلات الكونسير، وبطاقتى زيارة صـينـيـتين حتى، كلهـا مشـخبطة عليـهـا كلمات غير تامـة، مجرد إشارات للحروف.

«كيف تقرأ كل هـذا؟».

«ببساطة جداً، إنه خطى».

وبـدأ يـقـرأ واحــدة مـن الحكايات الكـورية السـاحـرة فى أعـظم يسـر. ولكن خيل لى أنه لم يكن يقرأ من المخطوط، بقـدر مـا كـان يردد «عن ظهر قلب».

وأظن أنه كـان يرتاب فى مـقـدرته ككاتب، ولا ينصف نفسه. امتدح أحدهم قصته «طفولة تيوما»، فى حضوره، فقال وهو يتنـهد:

«هـى شـىء لا وزن له. كل النـاس تكتب جـيـداً عن الأطـفـال، فـمـن الصعب أن تكتب عنهم كتابة رديئة».

وغـيّـر موضوع الحديث كما كان يفعل دائمًا فى مثل هذه الأحوال.

«ولكن الفنانين يعتبرون رسم الأطفال عملاً صعبًا جدًا - فهم دائمًا يظهرون فى الرسم كالدمى، حتى لوحة ڤان دايك «طفولة» عبارة عن دمية».

وعاتبه س. س. چوزيف، وهو كاتب مقال موهوب:

«خسارة كبيرة أنك لا تكتب إلا قليلاً جداً».

فقال وهو يضحك فى أسف:

«سبب ذلك بلا شك هو أنى مهندس، أكثر منى كاتبًا. والهندسة الميكانيكية ليست مهنتى الحقيقية، أيضًا، فقد كان ينبغى أن أشرف على بناءات عمودية، لا أفقية. كان ينبغى أن أشتغل بالهندسة المعمارية».

ومع ذلك كان يتحدث عن عمله فى السكة الحديدية بحماس شديد، مثل شاعر.

وكان حديثه عن موضوعات قصصه لا يقل بهاء وتحمسًا - أخبرنى ونحن فوق باخرة أقلتنا من نيچيتى - نوفجورود إلى قازان أنه يريد أن يكتب رواية طويلة يؤسسها على أسطورة الشيطان الصينى تشينج تشيو - تونچ، الذى كان يريد أن يصنع بالناس خيرًا. وقد استُخدمت هذه الأسطورة قبل ذلك فى الأدب الروسى مرة: كتبها راڤاييل زوتوف، وكان بطل جارين رجلا من أصحاب الصناعة، ثريًا جدًا، سئم الحياة، وأراد هو الآخر أن يصنع بالناس خيرًا. وهو حالم طيب، يتصور نفسه «روبرت أوين» آخر، وأتى قدرًا عظيمًا من

التصرفات البلهاء، فأخذ يطارده الرجال العمليون مطاردة كلاب الصيد، حتى مات فى نفس الإطار الذهنى الذى مات فيه تيمون الأثينى.

وفى مرة أخرى، كان جالسًا معى ذات ليلة فى بطرسبرج، فروى لى قصة خلابة يريد أن يكتبها.

«فى ثلاث صفحات - لا تزيد!».

وكان موضوعها، على ما أذكر، كما يلى:

حطاب انطوائى، أفكاره كلها متجهة إلى داخل نفسه، قد ضاق بوحدته، ويعتبر كل الناس وحوشًا ضارية. يلقى صعلوكًا أفاقًا فى الليل، وهو راجع إلى كوخه، فيواصلان السير معًا فى طريقهما، والمحادثة الحذرة الواهنة بين شخصين كل منهما مستريب فى الآخر. الرعد فى الجو، والطبيعة نفسها متوترة، والهواء يعصف بالأرض، والأشجار يختبئ بعضها خلف بعض، وخشخشة خبيثة. ويعتور الحطاب فجأة شعور بأن الصعلوك وقع فريسة إغراء بقتله. فيحاول أن يبطئ قليلاً حتى يمشى خلفه، والصعلوك، يتضح أنه لا يريد ذلك، فهو يلتزم جانبه تمامًا. ويسكتان. ويقول الحطاب لنفسه إنه مهما فعل فسيقتله الأفاق - هذا مصيره. ويصلان للكوخ، ويقدم الحطاب للأفاق طعامًا، ويشاركه هو فيه، ويصلى ثم يذهب لينام، وقد ترك على المنضدة السكين التى كان يقطع الخبز بها. ويختبر البندقية المسنودة فى ركن الغرفة بجوار الموقد، قبل أن يرقد فى سريره. يقعقع الرعد مخيفًا فى الغابة، والبرق مفزع بشكل لم يسبق له مثيل، والمطر ينهمر

فى سيول والكوخ يرتج كأنما قد انتُزع من أساسه. ويطفو الآن فوق الماء، ينظر الأفاق إلى السكين، وإلى البندقية، وينهض فيرتدى قبعته.

«أين أنت ذاهب؟» .

«أنا ذاهب! رح إلى الجحيم أنت».

«لماذا؟».

«أنت تريد قتلى، أعرف أنا ذلك».

فيمسك الحطاب به.

«هذا يكفى يا صاحبى. ياه، لقد ظننت أنك أنت تريد قتلى! لا تذهب!».

«سأذهب. ما دام كلانا فكر فى نفس الشىء، فمعنى ذلك أن أحدنا لا بد أن يموت».

ويخرج الأفاق. ويجلس الحطاب على كرسيه، وحيداً مرة أخرى، ويذرف دمعة رجل عصيَّة.

وبعد لحظة صمت، قال جاردين:

«ربما لا يحسن أن أجعله يبكى. ولكنه هو نفسه قال لى: «لقد بكيت بكاء مراً». فسألته: «لِمَ؟». «لا أدرى يا نيكولاى چيورچيڤتش. كنت حزيناً فحسب». ربما يحسن أن أجعل الأفاق يبقى، ويقول: «انظر أى نوع من الناس نحن يا صاحبى». وشيئًا من هذا القبيل. أو ربما يحسن أن يستديرا كلاهما، وينَامان».

كان من الواضح أنه متأثر للغاية بالموضوع، وأنه واعٍ وعيًا حادًا بأعماقه القاتمة. فهو يرويه بنبرات خافتة جدًا، توشك أن تكون همسًا ويتكلم بسرعة. وجعلني أحس بأنه يرى فى وضوح الحطاب، والأفاق، ووهج البرق الأزرق بين غصون الأشجار السوداء؛ كأنما هو يسمع الرعد وعويل الريح، والخشخشة. وكنت أستغرب أن رجلاً رقيقًا كهذا، بوجهه الذكى ويديه الأنثويتين، رجلاً فرحًا ونشطًا دائمًا كهذا، يمكن أن يسرَّ فى داخل نفسه موضوعات كئيبة مثل تلك القصة. لم تكن هذه الموضوعات لتلائمه - فالنبرة التى تسود عمله كانت خفيفة ومبهجة، وكان ن. ج. جارين يبتسم للناس، ويعتبر نفسه عاملاً، العالم يحتاج له، ويمتلك ثقة بشوشة مفحِمة، ثقة رجل يعرف أنه سيظفر دائمًا بما يريد. التقيت به كثيرًا، وإن كانت مقابلاتى به عابرة، لأنه كان دائمًا متعجلاً الذهاب إلى مكان من الأمكنة. ولا أستطيع الآن إلا أن أتذكره مرحًا، غير مهموم أو متعب أو مرهق البال.

وهو يكاد يتحدث دائمًا عن الأدب حديث الحائر، ونظرته ترتبك، وصوته ينخفض. وعندما سألته، بعد حديثنا بزمن طويل: هل كتبت قصة الحطاب؟ أجابنى: لا. ليس هذا موضوعى. إنه أقرب إلى تشيكوف. فالموضوع يلزمه مزاج تشيكوف الشاعرى».

أظنه كان يعتبر نفسه ماركسيًا، لمجرد أنه مهندس. وقد كانت تجتذبه حيوية العقائد الماركسية، ولكن عندما كانت تُذكر على مسمعه حتمية الفلسفة الماركسية فى شئون الاقتصاد - التى كان الحديث عنها

فى وقت ما مودة عصرية - كان جارين يجادل بانفعال ليدحضها، نفس الانفعال الذى أصبح يجادل به فيما بعد ليدحض القاعدة المأثورة عن ا. برنشتاين: «الحركة هى كل ما يهم، أما الهدف النهائى فلا يهم على الإطلاق».

وكان يصيح: «هذا هو الانهيار! أنت لا تستطيع أن تظل إلى الأبد تعبِّد طرقًا على ظهر الأرض».

وكانت تبهجه خطة ماركس لإعادة تنظيم العالم، لشمولها. وكان يرود خيالَه مستقبل من صنوف الشغل الجماعى الضخمة، تقوم بأدائها البشرية جمعاء، وقد تحررت من أغلال الحكومة الطبقية.

كان شاعراً بطبعه، وهذا ليبدو كلما تحدث عما يحبه، أو يؤمن به. ولكنه كان شاعر العمل، كان رجلاً يجنح جنوحًا محدداً إلى كل ما هو عملىّ، وإلى الإيجاب. وكثيراً ما كان يُسقط عبارات أصيلة وجريئة إلى الحد الأقصى. وكان، مثلاً، مقتنعًا بأن مرض الزهرى يمكن الشفاء منه بحقنة من جراثيم التيفويد، وصرح بأنه عرف عدة حالات اختفت فيها آثار مرض الزهرى، بعد أن أصيب المرضى بحمى التيفوس. بل وكتب عن هذا - وقد شُفيت إحدى شخصيات كتابه «الطلبة» من الزهرى بنفس هذه الطريقة بالضبط. وفى هذا كان يوشك أن يكشف عن سمات النبيِّين فيه، لأن الشلل المطرد قد اكتشفت الآن طريقة لعلاجه، بحقن من بلازموديوم الحميات المختلفة، وقد أخذ علماء الطب أكثر من ذى قبل فى التحدث عن قوة الطرق المستحدثة فى العلاج».

وكان جارين مولعًا بالتحدث عن «تربية الطفيليات»، وقد اكتشفت فى الولايات المتحدة، ما لم أكن مخطئًا، فصيلة من الطفيليات تقتل حشرة البطاطس، واستخدمت فعلاً فى ذلك.

كان جارين موهوبًا فى كل شىء على الطريقة الروسية؛ وعلى الطريقة الروسية أيضًا كان يبعثر طاقته بلا تمييز. وكانَ منِ الممتع دائمًا، على أية حال، أن ينصت المرء إليه عندما يتحدث عن حماية النباتات من الآفات، أو تدركه الفصاحة وهو يشرح وسائل حفظ فلنكات الخطوط الحديدية من التآكل، أو يتحدث عن القضبان شديدة الصلابة المطبوخة من عدة معادن، أو عن الفرامل بضغط الهواء، وهكذا.

ذات مرة قال لى ساڤا مامونتوف، الذى أنشأ خط السكة الحديدية الشمالى، وكان فى زيارة لجزيرة كابرى، بعد وفاة جارين:

«لقد كان موهوبًا – موهبة تشمل كل شىء. لقد كان حتى يرتدى زىّ المهندسين بأسلوب رجل موهوب».

وكان مامونتوڤ رجلاً ذا فطنة يستطيع التعرف على مواهب الآخرين؛ وقد قضى حياته كلها بين رجال موهوبين، مثل فيودور شاليابين، وڤروبل، وڤيكتور ڤاسنتسوف، وكثيرين آخرين أقامهم هو نفسه على أقدامهم. وكان هو أيضًا ذا مواهب غير عادية، يحسده الناس عليها.

وقد دُعي جارين، عند عودته من منشوريا وكوريا، إلى قصر إنيشكوف ليقابل القيصرة، ورغب القيصر نيكولا الثاني في أن يسمع قصة رحلاته.

وقال جارين بعد استقباله في البلاط: «ياه! إنهما مجرد قرويين !» وهز كتفيه مدهوشاً:

وهكذا وصف زيارته للقصر القيصري:

«لن أحاول إخفاء أني جعلت ألملم نفسي للذهاب هناك، بل وشعرت ببعض الحياء من لقاء القيصرين؛ فلقاء إمبراطور يحكم مائة مليون وثلاثين مليوناً من الرعايا- ليس حادث تعارف عادياً. ولم أتمالك نفسي من أن يذهب بي الظن إلى أن رجلاً كهذا لا بد أن يكون خطيراً ومهيباً، ولكني وجدته ضابط مشاة ظريفاً، جالساً يدخن، ويبتسم في طيبة، ويلقي سؤالاً من حين لآخر. ولكنه لم يسألني أبداً عن الأشياء التي ينبغي أن يهتم لها القيصر الذي أنشئت في عهده سكة حديد سيبيريا العظيمة. فقد امتدت روسيا بذلك حتى سواحل المحيط الهادي، لتلتقي هناك بأي شيء عدا الأصدقاء، وبأي روح عدا الود. ربما كانت سذاجتي هي التي جعلتني أفكر في أن القيصر لا ينبغي له أن يتحدث إلى خامل مثل. ولكن، علام كان يدعوني لألقاه؟ وما دام قد دعاني، فلماذا لم يكن جاداً، لماذا سألني: هل يحبنا الكوريون؟ فما الذي كان بوسعي أن أقوله. أجبت عليه بسؤال، وكان سؤالاً غير لبق أبداً: «تقصد من؟» وقد نسيت أني تلقيت تحذيراً من أن ألقي

بأى سؤال. وبأن أجيب على أسئلة القيصر فحسب. ولكن كيف كان بوسعى ألا أسأله، إذا كانت أسئلته هو تافهة. وكان الموقف مملا، ولم تتحدث السيدات أبدًا. وكانت القيصرة ترفع حاجبًا، ثم ترفع الآخر، وهى مدهوشة، وبجوارها كانت ابنتها تجلس كالوصيفة، جلسة جامدة، وعيناها كالحجرين، وعلى وجهها يرتسم الاستياء. وذكرتنى بعانس، بلغت الرابعة والثلاثين، فأصبحت تضيق بالطبيعة التى ألقت مسئولية ولادة الأطفال على كاهل المرأة، فى حين لم تلد هى أى أطفال، ولم تنعم حتى بأتفه حادث حب وكان شبهها بالقيصرة يصيبنى بالارتباك على نحو ما، أيضًا، وبالخجل. والزيارة فى مجموعها كانت مملة جدًا».

قال ذلك أيضًا على طريقته المسرعة، كأنما يغيظه أن يضطر للتحدث عن شىء غير ممتع كهذا...

وبعد بضعة أيام أُبلغ رسميًا أن القيصر قد منحه نيشانًا – نيشان فلاديمير على ما أظن – ولكنه لم يحصل عليه أبدًا، فقد أُبعد من بطرسبرج بعد ذلك مباشرة، لأنه وقَّع، مع كتاب آخرين، احتجاجًا على مهاجمة الطلبة وغيرهم من الذين اشتركوا فى المظاهرات أمام كاتدرائية قازان. وأخذ أصدقاؤه يمازحونه قائلين: «نيشانك انزلق من بين أصابعك، يا نيكولاى چيورچييڤتش». فيصيح مغضبًا: «ينحرق! أمامى شغل هام يجب أن أقوم به، والآن أُلزم بالرحيل. أى

بلاهة! أنت لا تعجبنا، ولذلك أنت لا تملك أن تعيش وتشتغل فى بلدتنا! سأظل على ما أنا عليه بالضبط فى أى بلدة أخرى، أليس كذلك؟».

وبعد بضعة دقائق كان يتحدث عن ضرورة زراعة الغابات فى ولاية سمارا، حتى يتوقف زحف الرمال من الشرق.

كان رأسه دائمًا محتشداً بمشروعات واسعة النطاق، وربما كانت صيحته التى يكثر ترديدها هى: «يجب أن نكافح».

يجب أن نكافح، حتى لا يرتفع قاع الفولجا ويصبح النهر ضحلاً، ونكافح انتشار صحيفة «أخبار سوق الأوراق المالية» فى الأقاليم، نكافح اتساع الأخاديد؛ بالاختصار - نكافح.

فاجأه العامل بيتروف، أحد أتباع جابون، بقوله: «ونكافح الأتوقراطية».

فأجابه جارين بأن ألقى عليه سؤالاً:

«هل يسوءك أن عدوك غبى؟ هل تفضّل أن يكون عدوك أذكى وأقوى مما هو الآن؟».

فتساءل سيلجونوف الأعمى، وهو ثورى سابق، وأحد أوّل العمال الذين انضموا للحزب الاشتراكى الديمقراطى:

«من قال هذا؟ قول حسن جداً!».

حدث ذلك فى كيوكالا صيف سنة ١٩٠٥م. أحضر لى ن. ج. جارين خمسة عشر ألف روبل - أو لعلها كانت خمسة وعشرين ألفًا - لأسلمها إلى ل. ب. كرازين، ليضعها فى خزينة الحزب، ولكنه لقيَنى فى جلسة، هى بعتبير لطيف. مختلطة إلى الحد الأقصى. ففى إحدى حجرات البيت الصيفى كان ب. م. روتنبرج مجتمعًا باثنين من المستفزِّين الذين لم يكن أمرهم قد انكشف بعد - هما ييڤنو آزيف وتاتارو. وفى حجرة أخرى كان سولتيكوف من المنشفيك يناقش ف. ل. بينوا فى أن تَستخدم لجنة بطرسبرج نظام نقل صحيفة «التحرير». وكان نيكولاى زولوتينى أوتشكى، ولم يكن أمره قد انكشف بعد، حاضراً أيضًا، إذا لم تخنى الذاكرة. وكان جارى فى الريف، عازف البيان أوسيب جابريلوڤتش يتمشى فى الحديقة مع الرسام ا. ى. ريبين. وكان بيتروڤ، وشيلجونوڤ وجارين جالسين على سلم الڤارانداه؛ وجارين، كعادته كان متعجلاً، ينظر فى ساعته، ويحاول مع شيلجونوڤ أن يزعزعا إيمان بتروڤ وثقته فى جابون، ثم دخل إلىَّ جارين فى غرفتى، التى كان بابها يطل على بوابة البيت.

ومن هنا رأينا آزيف العملاق، ذا الشفتين الغليظتين، وعينى الخنزير، ببدلته الزرقاء القاتمة، وتاتاروف المطعوم جيداً، طويل الشعر، الذى يشبه قسيس كاتيدرائية متنكراً، وهما يمران فى طريقهما إلى المحطة. ثم تبعهما سولتيكوڤ المتجهم، الطويل النحيف، وبينوا المتواضع. وأذكر أن روتنبرج غمز بعينه مشيراً إلى رفيقيه المستفزِّين، وقال لى مزهوا:

«جماعتنا أكثر مدعاة للاحترام».

فقال جارين، وهو يتنهد:

«أى مجموعة من الناس عندكم هنا! أنتم بلا شك تعيشون حياة ممتعة!».

«لست أنت من يحق له أن يحسدنا».

«أنا؟ أنا أندفع مسافراً فى كل الأنحاء، كأننى أشتغل حوذياً فوق عربة الشيطان نفسه، والعمر ينقضى؛ سرعان ما أصبح فى الستين، وما الذى أنجزته من العمل؟».

«أنت كتبت (طفولة تيوما)، و(التلاميذ)، و(الطلبة)، و(المهندسين)؛ وهذا عمل حقيقى».

فضحك وقال: «أنت طيب جداً. ولكنك تعرف جيداً أنه لم يكن ليضير أحداً، ألا تكتب هذه الكتب».

«ولكنك بالتأكيد لم تكن لتستطيع ألا تكتبها».

«أوه، نعم، كنت أستطيع ألا أكتبها. وعلى العموم، ليس هذا زمن الكتب...».

وأظن أن هذه كانت المرّة الأولى التى رأيته فيها متعبًا ومنحرف المزاج قليلاً، وسبب ذلك أنه كان مريضاً، وحرارته مرتفعة.

قال على حين فجأة: «سيقبضون عليك وشيكًا، يا صديقى العجوز. يخالجنى شعور بذلك. وسيدفنوننى، يخالجنى شعور بذلك أيضًا».

ولكنه بعد بضع دقائق، تمالك نفسه، ونحن نشرب الشاى، وقال:

«روسيا أسعد البلاد. أى قدر عظيم من الشغل الممتع هنا لنقوم به، كم من الإمكانيات الباهرة، والأعمال المعقدة! لم أحسد فى حياتى أحدًا. ولكنى أحسد بالتأكيد الأجيال القادمة، أولئك الذين سيأتون بعدى بثلاثين أو أربعين سنة. حسن - وداعًا. أنا راحل».

وكان هذا آخر لقاء لنا. وقد مات «على عجل» كما عاش. كان مشتركًا فى مؤتمر لشئون الأدب، وبعد أن ألقى خطبة حماسية، ذهب إلى الغرفة المجاورة، ورقد على الكنبة، وقضى شلل القلب على حياة هذا الرجل الموهوب، ذى الحيوية التى لا تكلّ.

* * *

ميخائيل بريشفين

ليست الكتابة عنك أمرًا سهلاً يا ميخائيل بريشفين، فهى تقتضى من المرء مهارة عظيمة مثل مهارتك، وذلك ليس فى وسعى - أنا عارف.

وفوق ذلك، فثمة شىء سخيف قليلاً فى أن يكتب م. جوركى مقالاً تفسيريا لأعمال م. بريشڤين، وهو الفنان الأصيل الذى قدم كتبًا رائعة فى الأدب الروسى خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية. وإنى إذا فعلت، أكون كمن يرمى قراءك بالجهل، وبالقصور عن الفهم.

وفضلاً عن ذلك فبنفسى شعور يهاب الكتابة؛ لأنى تعلمت الكثير من كتبك، رغم أنى بدأت حياتى الأدبية قبلك. لا تحسب أنى أقول ذلك من أدبى، أو عن تواضع زائف. إنها الحقيقة - لقد تعلمت منك. ولا أزال أتعلم، لا منك فحسب، وأنت أستاذ كامل، ولكن حتى من الكتاب الذين يصغروننى بخمسة وثلاثين سنة، من هؤلاء الذين بدءوا يكتبون أمس، الذين لم تتوازن موهبتهم مع قدرتهم بعد، ولكن أصواتهم ترن رنينًا قويًا، وطازجًا، وجديدًا.

ولا أتعلم أنا لمجرد أنه «ينبغى للمرء أن يطلب العلم طول حياته»، ولكن لأنه من الطبيعى أيضًا، ومما يبهج النفس.. أن يتعلم المرء؛ وفوق كل ذلك فإنى أتعلم؛ لأن الفنان، طبعًا، لا يستطيع أن يتلقن المهارة إلا من فنان آخر.

بدأت أتعلم منك، يا ميخائيل ميخايلوڤتش، منذ الوقت الذى صدرت لك فيه «العربى الأسوَد»، و «كولوبوك»، و «منطقة الطيور التى لا تعرف الخوف»، وقصص أخرى كثيرة لك. وقد أُخذت بنقاء لغتك، والإتقان الذى تنقل به الإحساس فى صورة توشك أن تكون جسدية، فى مجموعة طيعة من الكلمات البسيطة، فى كل ما تكتب. ولا يملك كثير من كتابنا مثل هذه القوة.

ولكنى، حين أقرأ كتبك للمرة الثانية، أجد فيها فوق ذلك خاصية أهم، تنفرد بها أنت انفرادًا تاما؛ خاصية لم أعثر بها فى أىٍّ من أعمال الكتاب الروسيين الآخرين.

لقد كان، ولا يزال، الكثيرون منا يستطيعون أن يرسموا مناظر الطبيعة فى كلمات ساحرة. ولا يلزمنا إلا أن نتذكر ا. س. تورجنيف، وكِتاب أكساكوڤ «مذكرات صياد»، ولوحات ليو تولستوى الباهرة التى رسمها بالكلمات. وعندى أن ا. ب. تشيكوف قد طرَّز قصته «الاستبس» بالخرزات الملونة. ويبدو سيرچييڤ – تسينسكى، وهو يصف مناظر الطبيعة فى القرم، مثل شوبان يعزف نايًا من الغاب. وفى

الأدب الروسى قدر أعظم مما ذكرت، يتسم بالمهارة، والحركة، وقوة الوصف للطبيعة.

وقد ظللت زمنًا طويلاً وأنا معجب بهذه الترانيم الغنائية التى ينشدها الكتاب للطبيعة. ولكن بمرور الأعوام بدأت هذه الترانيم تثير فى نفسى الدهشة، والاحتجاج أيضًا. بدأت أحس أن خلف اللغة الساحرة المستخدمة للإشادة «بجمال الطبيعة»، يخبئُ الكتاب محاولة غير واعية ليسحروا (ليڤياتان)، فيمضى بعيداً - هذا المخلوق الرهيب الكليل، الذى يبيض فى غير وعى، بيضات جسيمة، وفى غير وعى أيضًا يلتهم بيضاته. وفى هذا شىء يحطُّ بالإنسان، إذ يواجهونه بألغاز معينة لم يصل إلى حلها بعد. وثمة شىء «بربرى ونزوع نحو الارتداد والنكوص» فى ربط الإنسان بجمال الطبيعة وجره خلفه - وهو الجمال الذى يضفيه هو نفسه عليها، بفضل خياله.

فالبديهى أن لا جمال فى الصحراء، ولكن الجمال يكمن فى روح العربى. ولا جمال فى طبيعة فنلندا العابسة - إن فنلنديًا هو الذى ابتدع هذا الجمال وأضفاه على وطنه الكالح. قال شخص ما: «لقد اكتشف ليڤيتان لونًا من الجمال فى مناظر الطبيعة الروسية لم يره أحد من قبله». ولم يكن فى وسع أحد أن يراه؛ لأنه غير ذى وجود، وليڤيتان لم «يكتشفه»، لقد كان هدية منه للأرض. ومن قبله چاكوب رويسدايل وكلود لورين وعشرات غيرهما من الرسامين البارعين أمطروا هبة الجمال على الأرض بوفرة. والعلماء أيضًا، أمثال همبولت، مؤلف

«الكون»، قد زينوا الأرض فى سخاء. واختار هايكل المادى أن يجد «جمال الشكل» فى الاشتباك الشنيع للأعشاب المائية، وفى سمك «قنديل البحر» - وجده وكاد يقنعنا بأن الأعشاب والسمك جميلة حقًا. ومع ذلك فقد كان الهيلينيون القدامى، وهم أرفع ذوقًا من كل الخبيرين بالجمال، يعتبرون سمكة «قنديل البحر» مخلوقًا مقرفًا.

وقد تعلم الإنسان الكلام من أنين وعويل الرياح الثلجية الوحشى، ومن الرقص البسيط لأمواج البحر ذات النوائب. ومن الزلازل، ومن الزوابع، تعلم الإنسان النطق بأروع وأعذب الكلمات. وليكن كل المجد والثناء للإنسان على هذا؛ لأنها قوة إرادته هو، وخياله هو، الذى يحوِّل على الدوام الشظية الكونية إلى مكان لسكناه، ويجعل الأرض أكثر ملاءمة لحياته، ويحاول أن يقبض فى ذهنه على كل قواها الخفية.

وأنت ترى، يا ميخائيل ميخايلوفتش، إنى فى كتبك لا أجد الإنسان مربوطًا فى عجلة الطبيعة. وفى الحقيقة أنا لا أشعر أنك تكتب عن الطبيعة، ولكن عن شىء أعظم من الطبيعة - الأرض؛ أمنا العظيمة. لم أعثر أبدًا، ولا شعرت، فى كتب أىٍّ من الكتاب الروسيين سواك، بمثل هذا التوليف المتسق بين حب الأرض ومعرفتها، بقدر ما أرى وأحس فى كتبك.

إن لك معرفة تامة بالغابة والمستنقع، بالسمك والطير، بالأعشاب والوحوش، بالكلاب والحشرات - والعالم، كما تدركه، وسيع وثرى بشكل

غير عادى. والأجدر بالاعتبار من هذا أيضًا، تلك الوفرة فى الكلمات البسيطة المشرقة التى تجسِّد فيها حبك للأرض، ولكل ما هو حىّ عليها، لكل «المجال الحيوى». وأنت فى قصة «الحذاء» تكتب: «ليس أصعب من أن يتحدث المرء عما هو حَسَن»، ولكنى أظن أن سبب ذلك – كما تقول أنت فى نفس تلك القصة –: «إن المرء ليودّ أن يجعل قوة الكلمة فى مستوى قوة الإثارة الجسدية».

وفى قصة «عيون مياه بيريندى» أراك كالفتى الطيب الوسيم، العاشق، وكلماتك عن «أسرار الأرض» ترن فى أذنىّ مثل كلمات رجل المستقبل، ملك الأرض، وخالق معجزاتها وأفراحها، وأن هذا الملمح الذى تنفرد به تمامًا هو ما ألقاه فى كتابتك، وهو ما يبدو لى جديدًا، وذا أهمية لا حدود لها.

الناس تقول عادة للأرض:

«نحن منك».

وأنت تقول لها:

«أنت منى».

وهذا حق. فنحن نملك الأرض أكثر كثيرًا جدًا مما اعتدنا أن نظن. وقد أنشأ العالم الروسى العظيم ڤيرنادسكى نظرية فلسفية جديدة، بمقدوره، وفى رسوخ فائق، إذ أثبت أن التربة الخصيبة التى تعلو

السطح الصخرى والمعدني لكوكبنا مؤلفة من عناصر عضوية نتجت من المادة الحية. وهذه المادة، فى غضون عصور من الزمن لا يمكن إحصاؤها، فتتت وحطّمت قشرة الكوكب الصلبة العقيمة، تماماً كما يحطم الفلفل المتسلق وبعض النباتات الأخرى، إلى يومنا هذا، المعادنَ. ولم تسحق النباتات والبكتيريا القشرة الصلبة للأرض فحسب، بل خلقت أيضاً الجو نفسه الذى نعيش فيه ونتنفسه. فالأوكسجين نتاج النشاط النباتي. والتربة الخصيبة التى تنتج لنا الخبز، مكونة من عديد من أجسام الحشرات والطيور والحيوانات الميتة، وأوراق الشجر وأوراق الزهر. والملايين فوق الملايين من البشر أثروْا الأرض بلحمهم – إن الأرض منا حقًا وصدقًا.

وإن ذلك الانبهار بالأرض، كبضعة من لحمنا، هو الذى يرن فى وضوح تام فى أذنىَّ من خلال صفحات كتبك، آه، يا عشيق ويا ابن الأم العظيمة!

ربما يبدو لك فى هذا شيء كالفسق بالمحارم. ولكنه الصدق – فالإنسان المولود من الأرض يخصبها بشغله، ويثريها بجمال خياله.

الكون؟ علماء النظام الكونى، والفلك، والفلك الطبيعى، يشغلون أنفسهم جميعاً فى مهارة وحرارة بكمال الكون. وإن كمال الأرض لأقرب وأهم لفكر وقلب الفنان. والكوارث الكونية ليست أهم من الجَيشَان الاجتماعى. وأرضنا لا يعتورها شحوب أو قتامة؛ لأن شمساً فى مكان

ما فى أعماق السديم، لا نعلم عنها شيئًا، تنطفئ. فتلك الشمس قد تتوهج ثانية: ولكن لن يأتى لنا أبداً بوشكين آخر.

إن أسرار الكون ليست لها إمتاع وخطورة هذا اللغز العجيب: بأية معجزة تتحول المادة غير العضوية إلى مادة عضوية، وتتطور إلى بشر، وتنتج لنا رجالاً مثل لومونوسوف. وبوشكين، وميندلييف، وتولستوى، وباستير، وماركونى، وآلاف المفكرين والشعراء العظام؛ رجالاً يشتغلون بخلق طبيعة ثانية، هى ثمرة فكرنا الإنسانى، وإرادتنا.

إن كتبك يا ميخائيل ميخايلوڤتش تدل فى وضوح على مشاعر الود التى تكنها للبشر. وليس هناك كثيرون من الفنانين سواك يستطيع المرء أن يقول هذا عنهم من غير تردد ومن غير تدقيق. فمشاعرك التى تخص بها البشر تنبع في بساطة منطقية من حبك للأرض، من حبك للطبيعة، وتفاؤلك بها. ويبدو أحيانًا أنك تقف أعلى من سائر البشر بدرجة، دون أدنى انتقاص من كبريائهم. وهذا الكلام يسوِّغه تمامًا نفاذ بصيرتك، وصداقتك القلبية للبشر. فأيًا كانوا هم، سواء أكانوا أشراراً من حاجتهم، أو أخياراً من ضعفهم، معذبين من كراهيتهم للتعذب، أو ضحايا الخضوع للأمر الواقع.. فالبشر عندك هم بضعة من الأرض، وعلى وفاق مع الأرض. إنهم أكثر استعداداً - من الناحية الچيولوچية والبيولوچية - من بشر الكتاب الآخرين، وهم أكثر أبناء الأم العظيمة شرعية، وهم ذرات «جسد الإنسانية المقدس» الحية حقًا. وأنت

تحفظ فى ذاكرتك، دائمًا وفى عمق، تقدمَ البشرية المؤلم، والملىء بالمعجزات، منذ عصر الفئوس المصنوعة من حجر الصوان حتى عصر الطائرة.

ولكن أهم ما أعجب به هو أنك تعرف كيف تزن وتقوّم البشر بما هو حسن فيهم، لا بما هو سيِّئ فيهم. وهذه الحكمة البسيطة لا يدركها معظم الناس إلا بغاية الصعوبة، إذا أدركوها على الإطلاق. نحن لا نحب أن نفهم أن ما هو حسن فى الإنسان هو نفسه أروع معجزة صنعها. فما من شىء فى الحقيقة يدعو البشر لأن يكونوا «طيبين»، فلا قوانين الطبيعة ولا ظروف الحياة الاجتماعية، تشجِّعهم على الرحمة والإنسانية. وبالرغم من ذلك فأنت وأنا نعرف عددًا كثيرًا من الناس الطيبين حقًا. فما الذى جعلهم طيبين؟ لا شىء إلا رغبتهم هم. وأنا لا أرى أى حافز آخر لذلك - البشر يرغبون فى أن يكونوا أحسن مما هم، وهذا يحققونه. أى شىء فوق الأرض أروع، وأعجب من هذا الكائن المركَّب، المفعم فى الحقيقة بضروب الصراع الباطنى، ولكنه مع ذلك ينمِّى داخل نفسه قوة الخيال المروعة، والقدرة الجهنمية على أن يضحك من نفسه. لقد علمنى ناس كثيرون أن ألاحظ، وأن أفكر فى الكائنات الإنسانية؛ ويبدو لى أن معرفتى بك كفنان، قد علمتنى هى الأخرى نفس الشىء، كيف؟ ليس فى قدرتى أن أقول، ولكنى تعلمت منك أكثر مما اعتدت أن أتعلم من غيرك.

إن الروسيين بنوع خاص، بعد كل الذى عانوه، وفى ضوء كل الذى لا يزالون يعانونه حتى اليوم، يستحقون أن نتأملهم من زاوية مختلفة،

مـن زاوية أرفع، وبعناية واحترام أعظم. وأنا أعرف جيداً بالطبع أنهـم لا يزالون بعـيـدين عن خـصـال الملائكة، وأنا حـتى لا أريدهم أن يكونوا مـلائكة، كل مـا أريد هو أن أراهم شـغـالين يحبـون شـغلهم، وعلى وعى بالدلالة الفائقة لهذا الشغل.

أهم شىء على الإطلاق بالنسبة لنا نحن الذين نجتهد لخلق حياة جديدة، هو أن نحس على الخصوص بالقرب وبالقرابة بيننا. فالأيام العصيبة التى نعيشها، والعمل الواسع الذى نحمله فوق عاتقنا، يتطلبان ذلك، فإذا كنت كاتبًا فواجبك أن تكتب!

لا شك أنى أخطأت بعض الشىء، وبالغت بعض الشىء. ولكن إذا كنت قد فعلت، فإنى لم أفعل ذلك إلا وأنا واع به تمامًا، فإنى كما يعرف الجميع شخص مفكر، ومتعاظم على نحو ما. أعتقد ألا ضرر فى أن أخطئ على النحـو الذى أخطأت؛ لأن أخطائى هذه لا تصـدر عن رغبتى فى أن أعزِّى نفسى أو أعزى الآخرين بأكاذيب نبيلة، ولكنها تصدر عن اقتناعى بأن أخطائى تؤيد تلك الحقيقة التى لا مفر من أن تتحقق، التى لا يحتاج الناس إلا لها، التى لا بد للناس، أبناء هذه الأرض، من أن يعثروا فيها على الإلهام.

* * *

تنويه

الشروح الواردة أسفل بعض صفحات الكتاب بلا توقيع كتبها جوركى نفسه. أما شروح إيڤى ليتڤينوف، الذى ترجم الكتاب إلى الإنجليزية، فموقعة باسمه الأول. والشروح الموقعة بكلمة «المترجم»، أضافها مترجم الكتاب إلى اللغة العربية.

التصحيح اللغوى : محمد ديب

الإشراف الفنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد



فى هذا الكتاب الجميل يقترب جوركى من السيرة الذاتية، يتحدث بصدق تام عن نفسه وعن حياته وكتاباته، وهو يتحدث عن هؤلاء الكتّاب، وعن أخلاقهم وأساليبهم وعلاقاتهم التى تومئ إلى أحوال وخصال بلاده، التى لم تكن تسلم من رقابة الشرطة وتوجيهات الحزب، كما لم تسلم من صراعات العقائد السياسية والفنية، وصراعات التنافس، والجدل الأجوف العقيم.